

غرفة يعقوب

غرفة يعقوب

رواية

فيرجينيا وولف

الطبعة الأولى / ١٤٤١هـ، ٢٠٢٠م
حقوق الطبع محفوظة



دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خـالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة النبودي

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٩/ ١٩١٦٢

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 559 - 9

غرفة يعقوب

رواية

فيرجينيا وولف

ترجمة:

سناء عبد العزيز

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

وولف، أدالين فيرجينيا، ١٨٨٢ - ١٩٤١

غرفة يعقوب: رواية / فيرجينيا وولف؛ ترجمة سناء عبد العزيز.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٢٠

ص؛ سم.

تدمك: ٩ ٥٥٩ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- عبد العزيز، سناء (مترجم)

ب- العنوان

٨٢٣

رقم الإيداع / ٢٠١٩ / ١٩١٦٢

هذه الترجمة العربية لكتاب:

Jacob's Room

By: Virginia Woolf

Copyright © 1922 by Hogarth Press

Arabic Translation © by Elain publishing House for Translation,

All Rights Reserved

حين قررت وولف أن تكتب غرفة يعقوب

في عام 1920 كتبت فيرجينيا وولف في مذكراتها: "أريد أن أكتب رواية جديدة"، وكان قد صدر لها روايتان بالفعل؛ رحلة إلى الخارج 1915، والليل والنهار 1919. لكن الروائيتين على تميزهما لم يلفتا الانتباه إلى تجربة وولف رائدة الحداثة التي لم تكن قد كُتبت بعد. ولعل اطلاعها في تلك الفترة على ملامح القلق الوجودي لدى مارسيل بروست، وجيمس جويس وهنري برجسون، كان بمثابة الدافع وراء هذه العبارة التي دوّنتها في دفتر يومياتها، ومن ثمّ جاءت روايتها الثالثة غرفة يعقوب 1922 لتحقيق تلك النقلة النوعية من حيث اللغة وأسلوب السرد والبناء في كتابة وولف.

"تحتوي غرفة يعقوب على طاولة مستديرة وكرسيين منخفضين. وثمة أعلام صفراء في برطمان على رف المدفأة؛ صورة لأمه؛ بطاقات

من جمعيات بأهلة صغيرة مرتفعة، وشعارات النبالة، والأحرف الأولى؛ مفكرات وغليونات؛ على الطاولة، وُضعت ورقة مخططة بهامش أحمر - لا بد أنه مقال - "هل يتألف التاريخ من سير العظماء؟ ... هناك أيضًا صورٌ فوتوغرافية من الإغريقين، ونقش من السير جوشوا - كلها كانت إنجليزية. كتب جين أوستن، أيضًا، مراعاة، ربما، لمعايير بعض الأشخاص. أعمال كارليل التي نالها كجائزة... فاطر هو الهواء في غرفة خاوية، ينفخ الستارة فحسب؛ يحرك الزهور في الزهرية. يصدر صريرًا في إحدى جدائل الكرسي الخيزران، على الرغم من أن لا أحد يجلس عليه".

أثر على حائط

تُفتَح الرواية على نصف جملة: "هكذا بالطبع"، كتبها "بيتي فلاندرز"؛ أرملة شابة وأم لثلاثة أولاد على شاطئ كورنوال في إنجلترا، لشخص اسمه الكابتن بارفوت يقطن في سكاربورو على بعد سبع مئة ميل، تبلغه فيها أنه: "لم يكن هناك حل سوى الرحيل". وكما أسلوب وولف الذي اتضح أكثر فأكثر في رواياتها التالية: "السيدة دالواي" و"الأمواج" و"إلى الفناء"، يتم رصد الشخصيات والأحداث والأماكن بتتبع آثارها فحسب، ويصبح لزامًا على القارئ أن يفطن من خلال الآثار إلى حقيقة الأحداث، وعن طريق تجميع الشذرات والتف التي توردها بين الحين

حين قررت وولف أن تكتب غرفة يعقوب

والآخر يشكل بنفسه صورة للشخصية عبر مرورها أو تواجدها وسط ركام من الأشياء والجمل المبتورة، وظلال المباني والبضائع والمارة، حتى يعقوب، الشخصية الرئيسية، لا نكاد نتعرف عليه إلا من خلال ملاحظات الآخرين عنه: "يروقني يعقوب فلاندرز"، كتبت كلارا دورانت في دفتر يومياتها: إنه لا يهتم بالمظاهر. شخص غير متكلف، ويمكن للمرء أن يباح له بما يريد، على الرغم من أنه مخيف بسبب... "لكن السيد ليتس لا يتيح سوى مساحة صغيرة في دفتره الذي يباع بشلن⁽¹⁾.

عدسة وولف المصوبة إلى جميع الجهات

في غرفة يعقوب نتعرف على إرهاصات تيار الوعي الذي ميز كتابة وولف، وبقدر حرصها على الاستفادة من أجناس أدبية أخرى (الشعر على وجه الخصوص)، بقدر ما تستثمر فنوناً أخرى كالسينما والرسم والتشكيل والموسيقى، حيث تتابع المشاهد من خلال كاميرا توزع عدستها في كل أرجاء المشهد المترامي الأطراف، فتظهر لوحة مباغته للسماء تعكس دائماً ما يطرأ على دواخل الشخص من تقلبات، وللنوارس المحلقة على ارتفاع، وللبحر بأمواجه وتتابعها وتسابقها وتحدها وتسطحها وتكسرهما على الشاطئ أو انسيابها حول الأقدام، وللمصيفين المستلقين على قطعة

(1) مفكرة صغيرة تسمى مفكرة ليتس نسبة إلى توماس ليتس (1803 - 1873) بائع أفلام وأوراق كتابة ومطبعجي، وهو من قام بطبع المفكرات الصغيرة وتعميمها.

من القماش أو المصطفين بوجوههم المحمرة النكدة على وسائد، للأرض بتنوع نباتها وبراعمها وزهورها وأشجارها وحيواناتها ومياهها وناسها، وللمباني بإعلاناتها الملونة، والأضرحة بنقشوها وشواهد قبورها التي تذكر آية من الإنجيل تشيد بشخص ما، أو تراثه أو تطلب له المغفرة والبركة. "لوحات إعلانية ثلاثية الأبعاد يدفعها رجال يرتدون معاطف بيضاء. صاد الكابتن جورج بواس سمكة قرش متوحشة. أحد جوانب اللافتة ذكر ذلك بحروف حمراء وزرقاء وصفراء؛ وكل سطر ينتهي بثلاثة علامات تعجب مختلفة الألوان."

وفي موضع آخر:

"استحالت جزر سيلبي إلى لون ضارب إلى الزرقة؛ واكتسى البحر فجأة باللون الأزرق والأرجواني والأخضر؛ وخلف الجزر رمادية؛ التمعت رقعة بسرعة وخبث؛ ولكن عندما وضع يعقوب قميصه فوق رأسه، تلون سطح الأمواج كله بالأزرق والأبيض، متموجًا ومتغضنًا، رغم ظهور بقعة أرجوانية واسعة بين الحين والآخر، مثل كدمة؛ أو أحيانًا يكتسي بأكمله بالزمرد المشوب بالذهبي."

القلق الوجودي وتشظي السرد

لا يتوقع القارئ إذن أن تسير الأحداث مسلسلة ومرتبة بما يتيح له

حين قررت وولف أن تكتب غرفة يعقوب

الاستلقاء والمتابعة فحسب، ولا أن يتحرك الزمن بتدفقه الطبيعي، أو أن يمتد المكان أفقيًا ورأسيًا كما هو الحال، ففي غرفة يعقوب، الحيز الضيق الذي عنونت به وولف روايتها، تتقلب التربة، لتطفو شخصيات على السطح وما تلبث أن تختفي، مفسحة المجال لشخصيات جديدة قد لا تحتل من عالم الرواية إلا سطرًا أو سطرين بالكاد:

"... واستغل الطفل جوني ستورجيون الفرصة للتسلل بسرعة من أسفل السلام، حاملاً طرده الضخم الغامض، ويتجنبه مسارًا متعرجًا بين عجلات السيارات وصل إلى الرصيف، وراح يصفر لحنا وسرعان ما غاب عن الأنظار - إلى الأبد".

كما لا يسير الزمن على نحو خطي، بل يتذبذب بين الماضي والحاضر والمستقبل دونما إشارة مسبقة، وهو ما يتسبب دائمًا في كثير من الالتباس إذا لم ينتبه المترجم جيدًا إلى زمن وولف شديد التعقيد وفجواته المتعمدة. كما تقطع أميالًا من سكاربورو إلى كورنوال ومن اليونان إلى إنجلترا أو إيطاليا وتعود هرولة أحيانًا في مقطع واحد.

لقد أصبح الآن رئيس مجلس المدينة. تطلعا إلى الليل، الذي كان مثل ليل لندن، إلا أنه أكثر شفافية على نحو رائع. أجراس الكنيسة في المدينة دقت الحادية عشرة. توقف هبوب الرياح من البحر. وأظلمت نوافذ غرف النوم جميعها - نام آل بادج. نام آل جارفيت؛ نام آل كرانش، بينما في لندن في هذه الساعة كانوا يحرقون جاي فوكس على قبة البرلمان.

أما عن القلق الوجودي فهو بمثابة السمة الرئيسية والمحرك لكل
شخص الرواية كانعكاس حقيقي لقلق وولف واضطرابها:

"آنذاك، تنطلق من مدام جارفيس تنهيدة حارقة، تفكر في نفسها: "لو
يستطيع شخصٌ ما أن يمنحني... لو استطعت أن أمنح شخصًا ما..."،
لكنها لا تعرف ماذا تريد أن يُمنح لها، ولا من يستطيع أن يمنحها إياه".

أخيرًا، بعد ترجمة غرفة يعقوب انتبهت إلى أن كل أعمال وولف اللاحقة
وشخصها خرجت من تلك الرواية على وجه التحديد، ولعل وولف
نفسها كانت تدرك ذلك حين عادت إلى "مونكز هاوس" بعد عشرين عامًا؛
المكان الذي كتبت فيه غرفة يعقوب وملأت جيوبها بالحجارة وأغرقت
نفسها في نهر أوس.

الترجمة

الفصل الأول

"هكذا بالطبع"، كتبت بيتي فلاندرز، وهي تغرس كعبيها أكثر عمقاً في الرمال، "لم يكن هناك حل سوى الرحيل".

انبجس ببطء من سن قلمها الذهبي، حبرٌ أزرق باهت ذوّب النقطة؛ هنالك علق قلمها؛ ثبتت عيناها، وترقرقتا بالدموع. ارتجف الخليج بأكمله؛ تمايلت المنارة؛ وخايلتها صورة لصاري يخت السيد كونور متقوساً مثل شمعة في الشمس. طرفت بعينيها بسرعة. كانت الصور العارضة أشياء فظيعة. طرفت بعينيها مجدداً. استقام الساري؛ انتظمت الأمواج؛ اعتدلت المنارة؛ لكن البقعة انتشرت.

قرأت: "... لم يكن هناك حلٌ سوى الرحيل".

"لا مانع، إن كان يعقوب لا يريد اللعب" (سقط ظل آرشر، ابنها الأكبر، قاطعاً الورقة ولاح أزرق على الرمال، وسرت في بدنها قشعريرة - إنه الثالث من سبتمبر بالفعل)، "إن كان يعقوب لا يريد اللعب" - يا لها من بقعة مريعة! لا بد أن الوقت تأخر.

صاحت: "أين ذاك الولد الصغير المتعب؟" "أنا لا أراه. اذهب بسرعة وابحث عنه. أخبره أن يأتي حالا." "... ولكن برفق"، كتبت، متجاهلة النقطة، "كل شيء يبدو مرتباً على نحو مرضٍ، وإن تكسنا مثل أسماك مملحة في برميل، وأرغمنا على تحمل عربة الأطفال التي لن تسمح بها صاحبة المكان بطبيعة الحال..."

هكذا كانت رسائل بيتي فلاندرز إلى الكابتن بارفوت، صفحات عديدة ملطخة بالدموع. سكاربورو⁽¹⁾ تبعد سبع مئة ميل عن كورنوال⁽²⁾: كابتن بارفوت يعيش في سكاربورو: سيبروك مات. الدموع جعلت كل زهور الأضاليا في حديقته تترقق في تموجات حمراء، وزجاج البيت يلتصق في عينيها، والمطبخ يبرق بشفرات السكاكين الوامضة، وجعلت مدام جارفيس، زوجة القس، تفكر وهي في الكنيسة، بينما تعزف التراتيل ومدام فلاندرز تنحني قليلاً على رؤوس أطفالها الصغار، في أن الزواج حصن وأن الأرامل يهمن على وجوههن بمفردهن في الحقول المترامية، يلتقطن الحصى، ويجمعن أعواد القش الذهبية، كائنات بائسة وحيدة بلا حماية. لقد عاشت مدام فلاندرز أرملة على مدار ذنك العامين.

"يع—قوب! يع—قوب!" صاح آرشر.

(1) مرفأ بريطاني في يوركشاير على بحر الشمال ويقام فيه مهرجانات موسيقية سنوية لاسيا مع وجود المنتجعات السياحية المتعددة والمساح.

(2) مقاطعة ساحلية جنوب غرب إنجلترا.

"سكاربورو"، كتبت مدام فلاندرز على الظرف، وسحبت أسفلها خطًا ثقیلاً؛ إنها مسقط رأسها، ومحور الكون. لكن طابع البريد؟ بحثت في حقيبتها؛ ثم قلبتها رأسًا على عقب؛ ثم فتشت في حجرها، بمتهى الحركة والنشاط حتى أن "تشارلز ستيل" المعتمر قبعة بنم⁽¹⁾ أوقف فرشاته عن الرسم.

مثلما ترتجف قرون الاستشعار بانتظام عند بعض الحشرات سريعة الاستشارة. ها هي تلك المرأة تتحرك، كانت بالفعل في سبيلها للنهوض، تَبَّأْها!

ضرب بفرشاته اللوحة القماشية برتوشٍ من البنفسجي الداكن. وهو ما تتطلبه المناظر الطبيعية. انسابت الألوان الرمادية شديدة الشُّحوب داخل الألوان الأرجوانية، وعلقت نجمة أو نورس أبيض في مكانه بدقة، شاحب اللون أيضًا كالمعتاد. سيقول النقاد إنها باهتة للغاية، فهو رجلٌ غير معروف يعرض لوحاته بطريقة غامضة، والرسام المفضل لدى أطفال صاحبات النُّزل، يرتدي صليبيًا على سلسلة ساعته، ويبيد الكثير من الامتنان حين تروق لوحاته لصاحبات النُّزل، وهو ما كنَّ يُبدينه في كثير من الأحيان.

"يع-قوب! يع-قوب!" صاح آرشر.

(1) قبعات مسامية مصنّعة من القش دائرية الشكل، ازدادت شعبيتها بداية من القرن العشرين عندما أقدم الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت على ارتدائها في زيارته لدولة بنما للاطلاع على مشروع إنشاء قناة بنما، وأخذ صورة تذكارية وهو يعتمرها.

حانقًا من الضجيج، رغم محبته للأطفال، التقط ستيل بعصبية في الظلام أسطوانات صغيرة من لوحة ألوانه.

"رأيتُ أخاك - رأيتُ أخاك"، قال مُومئًا برأسه، بينما آرشر يتلصق خلفه، وهو يجرجر جرافته، ويعبس في وجه الرجل العجوز في منظره.

"هناك؛ جوار الصخرة"، تتم ستيل، بفرشاته بين أسنانه، معتصرًا خام صبغ أصفر ترابي اللون، وعيناه مثبتتان على ظهر بيتي فلاندرز.

"يع-قوب! يع-قوب! صاح آرشر"، متباطئًا بثانية.

كان الصوت يعتريه حزنٌ غير عادي. محررًا من الجسد بأكمله، مبرأً من كل شغف، منطلقًا إلى العالم، متوحدًا، غير مجاب، متكسرًا على الصُّخور -هكذا تردد. عبس ستيل؛ غير أنه ابتهج لتأثير اللون الأسود- تلك اللمسة فحسب هي ما جلبت معها الراحة. "آه، قد يتعلم المرء أن يرسم في الخمسين! هناك تيتيان..." وما إن عثر على اللون المناسب، نظر إلى أعلى ولمح بهلعٍ غيمة فوق الخليج.

نهضت مدام فلاندرز، ونفضت معطفها على هذا الجانب وذاك لتخلصه من الرمال، والتقطت مظلتها السوداء.

كانت الصخرة من تلك الصُّخور البنيّة شديدة الصلابة، أو بالأحرى السوداء، الصُّخور التي تخرج من الرمال كشاهد على عصر بدائي. حادة بقشور متغضنة وعلى نحو طفيف تناثرت عليها أهداب بعض الطحالب

الجافة، لا بد لصبي صغير أن يفرد ساقيه متباعدتين عن بعضهما، ويشعر حقاً بنوع من البطولة، قبل أن يصل إلى سطحها.

لكن على السطح تماماً، كانت هناك حفرة مليئة بالمياه، قاعها رملي؛ على جانبها التصقت كتلة من قنديل البحر، وبعض المحار. وعبرها مرقت سمكة. فرفرت أهداب الطحالب بلونيهما الأصفر والبني، ودفعت بواحدة من سرطان البحر بصدفته الصلبة-. "أوه، كابوريا ضخمة"، همس يعقوب - وشرع في السير على ساقين هزيلتين فوق القاع الرملي. الآن! غمس يعقوب يده في الماء. وكان سرطان البحر بارداً وخفيفاً جداً. غير أن الماء كان مثقلاً بالرمال، ولذا، تدافع إلى أسفل، كان يعقوب على وشك القفز، حاملاً دلوه أمامه، حين لمحهما -مستلقيين في جمود تام، جوار بعضهما، بوجهين غاية في الاحمرار- رجل ضخم البنية وامرأة. كان هناك رجل ضخم وامرأة (في يوم إغلاق مبكر) ممددين بلا حراك، رأساهما على منديل كبير، جوار بعضهما، على بُعد بضعة أقدام من البحر، بينما يخلق نورسان أو ثلاثة برشاقة حول الأمواج المتهداية قرب أحذيتهما. تفرس الوجهان المحمران الضخمان الممدان على منديل كبير وجه يعقوب. وحقق إليهما يعقوب. تشبث بدلوه جيداً، ثم قفز بترؤ وركض غير مكترث تماماً في البداية، ولكنه أسرع وأسرع عندما قابله زبد الأمواج وكان عليه أن ينحرف ليتجنبه، والنوارس تطير أمامه وتحلق عالياً وتستقر مرة أخرى أبعد قليلاً. ثمة امرأة سوداء ضخمة كانت تجلس على الرمال. فركض نحوها.

"دادة! دادة! كان يصرخ، وهو يشهق بالكلمات في ذروة كل لهث.

اندفعت الأمواج حولها. تلك الصخرة المغطاة بالطحالب التي تطلق حين تدوسها قدم. كان يشعر بالضياح.

هنالك وقف. ووجهه يستجمع شجاعته. كان على وشك الصراخ حين رأى، مستقرة بين العصي السوداء والقش تحت المنحدر، جمجمة كاملة - ربما تكون جمجمة بقرة، جمجمة، ربما، بأسنان داخلها. "ها هو!" صرخت مدام فلاندرز، وهي تهرع نحو الصخرة مجتازة منطقة الشاطئ بأكملها في بضع ثوانٍ. "ما الذي أمسكه؟ تخلص منها يا يعقوب! ارمها حالاً! شيء بشع، أعرف. لماذا لم تبق معنا؟ يا لك من ولد شقي!

ارمها الآن. وليأتِ كلاكما على الفور"، استدارت، وهي تمسك آرشر بيدٍ وتبحث عن ذراع يعقوب بالأخرى. غير أنه انحنى والتقط فك الغنمة، الذي كان مرتخيًا.

وبينما تؤرجح حقيبتها وتقبض على مظلتها، وتمسك بيد آرشر، وتروي له قصة انفجار البارود الذي فقد فيه السيد كورنو المسكين عينه، كانت فلاندرز تصعد الممر المنحدر بسرعة، متبهة طوال الوقت في أعماق عقلها إلى بعض الإزعاجات الدفينة.

هناك على الرمال ليس ببعيدٍ عن العشاق استقرت جمجمة الغنمة العجوز دون فك. نظيفة، بيضاء، كنستها الرياح، ومسحتها الرمال، أنظف قطعة

من العظام قد تجدها في أي بقعة على ساحل كورنوال. سوف ينمو نبات البهشية⁽¹⁾ مخترقاً محجراً العينين؛ ستؤول إلى هشيم، أو يضر بها أحد لاعبي الغولف بكرته ذات يوم جميل، فيتناثر الغبار الناعم - لا، ولكن ليس في الغرف المؤجرة، فكرت مدام فلاندرز. إنها تجربة مهولة قادمة مع الصغار. لا يوجد من يمد إليها يداً في تسيير عربة الأطفال. ويعقوب مجرد طفل صعب المراس؛ ومن ثمّ فهو عنيد بالفعل.

"ارمها بعيداً يا حبيبي، هياً". قالت وهم يبلغون الطريق؛ ولكن يعقوب تملص منها؛ وهاجت الرياح، خلعت دبوس قبعتها، تطلعت إلى البحر وشبكته من جديد. اشتدت الرياح. أبانت الأمواج ذلك الاضطراب، مثل كائن حي، حرون، يترقب ضربة سوط، لأمواج أمام عاصفة. راحت قوارب الصيد تتمايل على حافة الماء. بزغ ضوء أصفر شاحب عبر البحر الأرجواني؛ وخبأ. أضاءت المنارة. قالت بيتي فلاندرز: "تعالاً". تألقت الشمس في وجوههم وطلت باللون الذهبيّ التوت الأسود الكبير الذي ارتجف خارج السّياج بينما يحاول آرشر انتزاعه وهم يمرون.

"لا تتركها، لا توجد لكما ملابس إضافية". قالت بيتي وهي تسحبهما، وتنظر باضطراب إلى الأرض البادية غاية في الشحوب، مع شرر ضوء مباغت من صوبات الحدائق، يتقلب بين الأصفر والأسود، في مواجهة

(1) البهشية أو الإيلكس جنس من النباتات من الفصيلة البهشية يتميز بأوراقه المصقولة شائكة الأطراف وزهره الصغير الضارب إلى البياض.

الغروب الوهاج، هذه الإثارة المذهلة والألوان المفعمة، هي ما أثارت بيتي فلاندرز وجعلتها تفكر في المسؤولية والخطر. تشبث بيد آرشر. وهي تصعد التل بتثاقل.

"ما الذي طلبت منك أن تتذكره؟" قالت.

"لا أعرف"، رد آرشر.

"حسنًا، أنا أيضًا لا أعرف"، قالت بيتي، بمرح وتلقائية، ومن ينكر أن هذا الفراغ في العقل، مختلطًا بالزخم، والفتنة، وخرافات العجائز القديمة، والأساليب العشوائية، واللحظات الجريئة المدهشة وروح الدعابة والعاطفة المفرطة - من ينكر أن كل امرأة في هذه الجوانب أجمل من أي رجل؟

جميل البدء بهذا يا بيتي فلاندرز.

وضعت يدها على باب الحديقة.

"اللحم!" صاحت، وهي تفلت القفل.

نسيت أن أشتري اللحم.

كانت ربيكا هناك في النافذة.

ظهر عُري غرفة مدام بيرس الأمامية كاملاً في تمام العاشرة مساءً حين وُضع مصباح زيتي قوي في منتصف الطاولة. سقط الضوء القوي على

الحديقة؛ مخترقاً المرجة الخضراء مباشرة؛ فأضاء دلو الطفل وزهرة النجمة الأرجوانية⁽¹⁾ وامتد إلى السّياج.

تركت مدام فلاندرز قطعة نسيجها على الطاولة. وهناك كانت بكرات كبيرة من خيوط القطن الأبيض ونظاراتها؛ علبة الإبر؛ الصوف البني ملفوفاً حول بطاقة بريدية قديمة. نباتات البردي ومجلات الستراند⁽²⁾؛ ومشمع مكسو بالرمل من أحذية الأولاد. انطلق عنكب⁽³⁾ من ركن إلى ركن وضرب انتفاخ المصباح الزجاجي. طيرّ الهواء رذاذ المطر من النافذة، فومض بلون فضي أثناء مروره عبر الضوء. خبطت ورقة شجر الزجاج في مروقها بإصرار. كانت هناك زوبعة في البحر.

لم يستطع آرشر النوم.

انحنت مدام فلاندرز فوقه. "فكّر في الجنيات"، قالت بيتي فلاندرز. "فكر في الطيور الحلوة الجميلة المستقرة في أعشاشها. أغمض عينيك الآن وانظر إلى العصفورة الأم وفي منقارها دودة. استدر الآن وأغمض عينيك"، همست "وأغمض عينيك". غصّ النزل بقرقرة الماء واندفاعه؛ طفح الحزان؛

(1) سميت بهذا الاسم لشكلها الذي يشبه شكل النجمة وقد اعتقد اليونانيون القدماء أن زهرة النجمة أو الأستر تعمل كمصدات واقية من الأفاعي وتقي من سمها أيضاً.

(2) The Strand Magazine مجلة شهرية أسسها جورج نيوز، وتتألف من مقالات قصيرة عن الخيال العام والمصلحة العامة. كانت تنشر في المملكة المتحدة في الفترة من يناير 1891 إلى مارس 1950، واستمرت حتى الإصدار 711.

(3) daddy-long-legs ويُعرف باسم العنكبوت الأب طويل القوائم أو العنكبوت الجذويل القوائم أو عنكبوت النجار أو العنكبوت المهتر.

ببقبة المياه وصريرها وجريانها عبر المواسير وتدفعها أسفل النوافذ.

"ما كل هذا الماء المندفع؟" غمغم آرشر.

قالت مدام فلاندرز: "إنه صرف مياه الاستحمام ليس إلا".

شيء ما فرقع في الخارج.

قال آرشر، وهو يفتح عينيه: "أتساءل، ألن تغرق الباخرة؟"

قالت مدام فلاندرز: "بالطبع لن تغرق". "الكابتن في فراشه منذ فترة طويلة. أغلق عينيك، وفكر في الجنيات، استغرق في النوم، تحت الأزهار." "اعتقد أنه لن يغفو أبداً في عاصفة كتلك"، همست لريبيكا، المنحنية على السبرتاية في الغرفة الصغيرة المجاورة. كان الهواء يندفع في الخارج، لكن لهب السبرتاية الهزيل اشتعل بهدوء، وقد حجب سرير الطفل بالكتاب الموضوع على حافته. همست مدام فلاندرز "هل تناول رضعته جيداً؟"، أومأت ربييكا وذهبت إلى المهد وثنت للحاف، وانحنت مدام فلاندرز ونظرت بقلق إلى الطفل، النائم ولكن بوجه عابس. ارتجت النافذة، فتسللت ربييكا مثل قطة وأحكمت غلقها. غمغمت المراتان على ضوء السبرتاية، تدبران المؤامرة الأبدية لتوخي الصمت ونظافة البزاة فيما تثار الرياح وتتسبب في خلخلة الأشياء التي لم يُحكم غلقها. نظرت كلتاهما إلى المهد. بشفتين مزمومتين. عبرت مدام فلاندرز إلى المهد. "نائم؟" همست ربييكا، وهي تنظر في المهد.

أومأت مدام فلاندرز.

"ليلة سعيدة يا ربييكا"، غمغمت مدام فلاندرز، فردت عليها ربييكا مخاطبة إياها بسيدتها، على الرغم من أنها كانتا تدبران المؤامرة الأبدية لنظافة البزازات وتوخي الصّمت.

تركت مدام فلاندرز المصباح مشتعلًا في الغرفة الأمامية. كانت هناك نظارتها والقطعة التي تحيكها. ورسالة بطابع بريد سكاربورو. لم تسحب الستائر كذلك. التمتع الضوء في الخارج على رقعة من العشب؛ سقط على دلو الطفل الأخضر فأحاطه بخيط ذهبي اللون، وحول زهرة النجمة التي وقفت ترتعش جواره بعنف. كانت الرّياح تجوب الساحل بسرعة جنونية، تحدف بنفسها على التلال، وتثب، في زوابع مفاجئة، قبل أن تقفل متراجعة. كيف تنتشر في أرجاء المدينة داخل التجاويف! كيف للأضواء أن تتراءى وكأنها تغمز وترتعش بضراوتها، وأضواء الميناء، وأضواء نوافذ غرفة النوم بالأعلى! وتُدحرج الأمواج الداكنة أمامها، في سباق عبر الأطلسي، مُرْعشة النُّجوم في شتى الاتجاهات.

ثمة صوت تكة في غرفة الجلوس الأمامية. كان السيد بيرس يطفى المصباح. وأظلمت حديقة البيت. لم يكن هناك سوى رقعة معتمة. كل شبر تشبع بماء المطر. كل ورقة عشب قوّسها المطر. لقد أجبر المطر الجفون على الانسدال. لن يكون بوسع المرء إذا ما استلقى على ظهره أن يرى سوى

الفوضى والاضطراب - غيم يلف ويدور، وشيء يتوهج بالأصفر والكبريتي في الظلام.

رمى الولدان في غرفة النوم الأمامية لحافيهما ورقدا أسفل الملاءات. كان الجو حارًا؛ خانقًا بالأحرى ومشبعًا بالرطوبة. تمدد آرشر، واضعًا إحدى ذراعيه عبر الوسادة. كان وجهه متوردًا؛ وعندما انزاحت الستارة الثقيلة قليلًا استدار وفتح عينيه. حركت الرياح بالفعل مفرش خزانة الأدراج، مسربة قليلًا من الضوء، بحيث بانت الحافة الحادة لصندوق الأدراج، تحرك الضوء مستقيمًا إلى أعلى، إلى أن بزغ شكل أبيض؛ وظهر شريط فضي في المرأة.

في السرير الآخر عند الباب رقد يعقوب، مستغرقًا في النوم، غائبًا تمامًا عن الوعي. وفكُّ الغنمة بأسنانها الصفراء الكبيرة يستقر عند قدميه. بعد أن ركله تجاه سياج السرير الحديدي.

في الخارج كان المطر يهطل بثبات وقوة والرياح تعصف في الساعات الأولى من الصباح. سُحقت زهور النجمية على الأرض. امتلأ دلو الطفل إلى منتصفه بمياه المطر؛ ودارت الكابوريا بمحارها ببطء في القاع، محاولة بأرجلها الضعيفة تسلق جانبه شديد الانحدار؛ تحاول فتسقط مرة أخرى، وتعاود المحاولة مرارًا وتكرارًا.

الفصل الثاني

"مدام فلاندرز" - "المسكينة بيتي فلاندرز" - "العزيزة بيتي" - "ما زالت جذابة جدًا" - "من الغريب ألا تتزوج مرة أخرى!" "هناك الكابتن بارفوت كما تعرفن - يزورها كل أربعاء بانتظام مثل الساعة، ولا يأخذ زوجته أبدًا".
"لكن هذه غلطة إلين بارفوت"، قالت سيدات سكاربورو. "إنها لا تسعى لمساعدة أحد."

"كل رجل يجب أن يكون له ابن - وهذا ما نفهمه".

"بعض الأورام لا بد من استئصالها؛ ولكن ما أصاب أُمي كان من النوع الذي يجعلك تعاني لسنوات وسنوات، ولا تحظى حتى بكوب شاي يُقدم إليك في الفراش."

(لقد كانت مدام بارفوت قعيدة.)

إليزابيث فلاندرز، التي قيل عنها هذا وأكثر من هذا ولسوف يقال، أصبحت، بالطبع أرملة في ريعانها. في منتصف المسافة بين الأربعين والخمسين.

أعوام وأحزان تخللتها؛ موت زوجها سيبروك؛ ثلاثة أولاد؛ فقر؛ منزل على أطراف سكاربورو. أخوها مورتى المسكين، وقوعه في الأسر، وموته المحتمل - إلى أين يتجه؟ من يكون؟ راحت تحمي عينيها، وهي تبحث على قارعة الطريق عن الكابتن بارفوت - نعم، كان هناك، في الموعد المحدد كما هو دائماً؛ مجاملات الكابتن - أنضجت بيتي فلاندرز، طورت شخصيتها، وخضبت وجهها بلون البهجة، وجعلت عينيها تفيضان بالدموع ربما ثلاث مرات في اليوم دون سبب يمكن لأحد تخمينه.

صحيح، لا عيب في أن تبكي المرأة زوجها، وشاهد القبر، وإن كان بسيطاً، فهو قطعة أثرية صلبة، وفي أيام الصيف عندما تأتي الأرملة بأولادها للوقوف أمامه، كان هناك من يشعر بالتعاطف معها. القبعات تُرفع أعلى من المعتاد؛ الزوجات يضغطن أذرع أزواجهن بقوة. وسيبروك الراقداً أسفل بستانه أقدام، ميتاً هذه الأعوام العديدة؛ مطوقاً بجدران نعشه الثلاثة؛ المختومة شقوقه بالرصاص، بحيث لو كانت الأرض والخشب من زجاج، لتراءى وجهه راقداً أسفل، وجه شاب بشارب، أنيق، خرج ليصيد بطلاً ورفض تبديل حذاءه الرياضي.

"تاجر هذه المدينة"، نُقش على شاهد القبر؛ لكن لماذا فضلت بيتي فلاندرز أن تطلق عليه هذا اللقب في حين، كما ما يزال يتذكر الكثيرون، ظل جالساً فحسب خلف نافذة مكتب لثلاثة شهور، وقبل ذلك كان يروض الخيل، ويشارك كلاب الصيد في مطاردة ثعلب ويزرع بعض الحقول

ويجمع قليلاً - حسناً، كان عليها أن تطلق عليه هذا اللقب لغرضٍ ما.
من أجل الأولاد مثلاً.

هل أصبح، إذن، لا شيء؟ سؤال يتعذر الإجابة عليه، لأنه حتى لو لم يكن من عادة متعهد الدفن غلق العينين، فسرعان ما ينطفئ فيهما الضوء. في البداية، كان جزءاً من نفسها؛ الآن بات جزءاً من مجموع، لقد اتحد بالعشب، والتل المنحدر، وآلاف الأحجار البيضاء، المائل بعضها، والقائم بعضها، وأكاليل الزهور العطنة، وصلبان من القصدير الأخضر، والممرات الصفراء الضيقة، وزهور الليلك التي انحنت في إبريل، برائحة أقرب إلى رائحة غرفة نوم مريض، على جدار مدفن الكنيسة. سيبروك الآن كل ذلك؛ وحين يتناهى إلى سمعها وهي عاقدة تنورتها تطعم الدجاج، جرس القداس أو الجنازة، فإن هذا هو صوت سيبروك - صوت الميت.

تعود الديك أن يطير على كتفها وينقر عنقها، لذا تحمل الآن عصاً أو تأخذ معها أحد الأولاد عندما تذهب لإطعام الطيور.

"ألا يعجبك سكينى يا أمي؟" قال آرشر.

تردد في نفس اللحظة التي رنَّ فيها جرس الكنيسة، صوت ابنها في مزيج مثير لا ينفصم، من الحياة والموت.

"يا له من سكين كبير لصبي صغير!" تناولتها لترضيه. طار الديك من عش الدجاج، وبينما تصرخ في آرشر ليغلق الباب المؤدي إلى حديقة المطبخ،

كانت مدام فلاندرز تضع الطعام على الأرض، وتجمع الدجاج بقوقاتها، وتنتقل بنشاط في الحديقة، ومدام كرانش تتابعها بعينها عبر الطريق، إذ كانت تنفض سجاداتها على الحائط، فعلقها في يدها للحظة مشيرة إلى مدام بادج في البيت المجاور بأن مدام فلاندرز في البستان مع دجاجها.

بوسع مدام بادج ومدام كرانش ومدام جارفيت رصد مدام فلاندرز في بستانها، فهو عبارة عن قطعة مسيجة من الدودز هيل⁽¹⁾؛ تلك التلال التي هيمنت على القرية. لا كلمات تعد ضرباً من المبالغة في أهمية الدودز هيل. إنها الأرض بأكملها؛ الدنيا مقابل السماء؛ أفق النظرات التي لا يمكن أن يقوم بحصرها على أفضل وجه، إلا أولئك الذين عاشوا طوال حياتهم في القرية نفسها، ولم يتركوها إلا للقتال في شبه جزيرة القرم، مثل العجوز جورج جارفيت، المتكى على بوابة حديقته يدخن غليونه. بها يُقاس تقدّم الشمس؛ لون النهار يستلقي أمامها ليُبيت في أمره⁽²⁾.

قالت مدام كرانش للسيدة جارفيت، وهي تنفض سجاداتها للمرة الأخيرة، وتتحرك بنشاط داخل بيتها: "إنها الآن تصعد التل مع جون الصغير". وبعد أن فتحت بوابة البستان، سارت مدام فلاندرز إلى قمة التل، ممسكة جون بيدها. وآرشر ويعقوب يركضان أمامها أو يتلكان

(1) Dods Hill أعلى قمم في الجزر البريطانية، وهي عبارة عن تل له قمة مستديرة ملساء.

(2) تقصد فيرجينا الدودز هيل. هو ما يقاس به تقدم الشمس عن طريق الظل ويعرف به أجواء اليوم.

خلفها. لكنهما كانا في القلعة الرومانية عندما وصلت هناك، يتصايحان كلما ظهرت السفن في الخليج. هناك حيث المنظر الخلاب - المستنقعات في الخلف، والبحر في الأمام، وسكاربورو بأكملها من أدناها لأقصاها تستلقي ممددة مثل لغز. جلست مدام فلاندرز، التي كانت تزداد بدانة، في القلعة ونظرت حولها.

المشهد المتقلب بأطيافه كافة لا بد أن تكون قد ألفته؛ هيئته الشتوية والربيعية والصيفية والخريفية؛ الطريقة التي تنطلق بها الزوابع من البحر؛ التي تخفت بها المستنقعات وتشع وفقاً لحركة السُّحب فوقها؛ ولا بد أن تكون قد لاحظت البقعة الحمراء من الفيلات قيد الإنشاء؛ وشبكة الخطوط التي تقطع التَّقسيّات الفرعية؛ وبرق الماس من الصّوبات الصّغيرة في الشّمس. أو إذا ما أفلتت منها تفاصيل كتلك، فربما تركت خيالها يتلاعب مع لون البحر الدّهبيّ عند غروب الشّمس، وجال بخاطرها كيف أنها تُصقل في عملات ذهبية على الحصى. كانت قوارب التّنزه الصّغيرة تشق طريقها خلالها بصعوبة؛ تحجزها ذراع الرّصيف السّوداء. المدينة بأكملها اصطبغت بالوردي والدّهبيّ؛ مقببة؛ مكلّلة بالضباب؛ طنانة؛ مصمة للأذان. عزفت آلة البانجو؛ طفا موكب رائحة القطران العالق بكعوب الأحذية؛ مرقت الماعز بعرباتها بغتة عبر الحشود. لُو حظ مدى دقة ترتيب الحي لأحواض الزُّهور. من آنٍ لآخر كانت تتطاير قبعة من القش بعيداً. زهور التوليب تشتعل في الشّمس. أعداد مصطفة من سراويل السباحة. أغطية رأس

أرجوانية بكرانيش وردية ناعمة الملمس، وجوه نكدة على وسائد مقاعد الشاطئ. لوحات إعلانية ثلاثية الأبعاد يدفعها رجال يرتدون معاطف بيضاء. صاد الكابتن جورج بواس سمكة قرش متوحشة. أحد جوانب اللافتة ذكر ذلك بحروف حمراء وزرقاء وصفراء؛ وكل سطر ينتهي بثلاثة علامات تعجب مختلفة الألوان.

كان هذا دافعاً جيداً للنزول إلى المربى المائي، حيث تبقت ستائر نبات الصفصاف الحاجبة، رائحة نكهات الملح المعتقة، مقاعد البامبو، الطااولات بطفايات السجائر، الأسماك الملتفة حول نفسها، حارسة المكان التي تحيك خلف ست قطع شكولاتة أو سبعة (كثيراً ما تجلس وحدها تماماً مع السمك لساعات في المرة الواحدة) تبقت في الذهن مثل جزء من قرش متوحش، هو نفسه ليس إلا وعاء أصفر رخواً، يشبه حقيبة جلادستون⁽¹⁾ الفارغة في خزان. لا أحد هلّل من قبل قرب المربى المائي؛ لكن وجوه أولئك المستجدين سرعان ما فقدت تعبيرها البليد حين أدركوا أنهم بوقوفهم فحسب في طابور يمكنهم الدخول إلى الرّصيف. بمجرد مرورهم من الأبواب الدوّارة، سار كل واحد أو اثنين نحو الفناء بحيوية شديدة؛ بعضهم لوح بأعلام إلى هذا الكشك. وآخرون إلى ذاك.

(1) هي حقيبة سفر صغيرة لها قاعدة صلبة يمكن فصلها إلى قسمين متساويين، وسميت على اسم وليام إيوارت جلادستون (1809-1898)، رئيس وزراء المملكة المتحدة الذي تقلد رئاسة الوزارة أربع مرات.

لكن الفرقة هي ما جذبت انتباههم إليها أخيراً؛ حتى أن الصيادين على الرّصيف السفلي شرعوا في الصيد في نطاقها.

عزفت الفرقة في الكشك المغربي. برز رقم تسعة على لوحة. كان لحن الفالس. اكتست ملامح كل من البنات الشاحبات، الأرملة العجوز، واليهود الثلاثة المقيمين في نفس النّزل، الرجل الغندور، الرائد، تاجر الخيول، والسيد النبيل مستقل الموارد، بنفس التعبير الحالم الغائب عن الحس، ومن خلال شقوق الألواح الخشبية عند أقدامهم، كان بوسعهم أن يروا أمواج الصيف الخضراء، تنساب بوداعة، ولطف، حول الأعمدة الحديدية للرّصيف.

ولكن كان هناك زمن لم يكن أيّ من هذا موجوداً (جال بخاطر الشاب المتكئ على السور). ثبت عينيك على تنورة السيدة؛ نعم التّنورة الرّمادية - فوق جوارب الحرير الوردية. إن موضته تتغير؛ يكسو الكاحلين تماماً - في التسعينيات؛ قبلها فضفاضاً - في السبعينيات؛ وأحياناً أحمر لامعاً مشدوداً على قماش قطني - في الستينيات؛ تتسلل فجأة قدم سوداء صغيرة ترتدي جورباً قطنياً أبيض شفافاً. ألا زالت جالسة هناك؟ نعم، ما تزال على الرّصيف. الحرير الآن مُزّين بالورد، لكن بطريقة ما لم يعد المرء يرى بوضوح تام. لا يوجد رصيف أسفلنا. قد تتأرجح المركبة الثقيلة على طول الطّريق السريع، ولكن لا يوجد أي رصيف كي تتوقف عنده، كم كان البحر رمادياً ومضطرباً في القرن السابع عشر!

هلم بنا إلى المتحف. قاذفة الكرات النارية. رؤوس السهام. زجاج روماني

ومبضع أخضر مغطى بالزنجار. قام القس جاسبار فلويد باستخراجها من تحت الأرض على نفقته الخاصة في أوائل الأربعينيات في المعسكر الروماني في دودز هيل - انظر النقش الصغير بالكتابة الباهتة عليه.

والآن، ما هو الشيء التالي الذي ينبغي رؤيته في سكاربورو؟

جلست مدام فلاندرز على الدائرة المرتفعة في المعسكر الروماني، تُرَقع بنطال يعقوب؛ لا تنظر إلى أعلى إلا وهي تُبلل طرف خيطها القطني، أو عندما تندفع بعض الحشرات إليها، وتثر في أذننها، وتحتفي. ظل جون يهرول عاليًا ويلقي في حجرها بالعشب أو الأوراق الميتة التي أطلق عليها "الشاي"، فقامت بترتيبها بنظام ولكن بذهنٍ غائب، واضعة رؤوس الأعشاب المزهرة معًا، وهي تفكر كيف ظل آرشر متيقظًا مرة أخرى الليلة الماضية؛ كانت ساعة الكنيسة متقدمة عشر أو ثلاث عشرة دقيقة. تمت لو استطاعت شراء قطعة أرض جارفيت. "إنها ورقة زهرة الأوركيد يا جوني. انظر إلى البقع البنية الصّغيرة. تعال يا حبيبي. لا بد أن نعود إلى البيت. آر-شر! يع-قوب!"

"آر-شر! يع-قوب!" راح جوني يصفر خلفها، وهو يدور مرتكزًا على كعبه، مبعثرًا الأعشاب والأوراق بيديه كما لو أنه بيدر بذورًا. قفز آرشر ويعقوب من وراء التل حيث كانا يربضان ليبرزتا لأمهما على نحو مفاجئ، وطفقوا يتمشون عائدين إلى البيت.

"من ذلك؟" قالت مدام فلاندرز، مظلمة عينيها.

"هذا العجوز في الطريق؟" سأل آرشر، وهو ينظر إلى الطريق.

قالت مدام فلاندرز: "إنه ليس عجوزاً". "إنه - كلا، ليس هو - ظننته الكابتن، ولكنه السيد فلويد. تعالوا يا أولاد".

قال يعقوب: "أوه، السيد فلويد الممل!"، وهو يقطع إحدى رؤوس الأشواك، فقد كان يعلم تمامًا أن السيد فلويد سيدرس لهما اللغة اللاتينية، كما ظل يفعل على مدى ثلاث سنوات في أوقات فراغه، بدافع العطف، فلم يكن هناك شخص آخر في الحي بوسع مدام فلاندرز أن تطلب منه القيام بهذا الأمر، راح ولداها الكبيران يتجاوزانها، وعليهما الاستعداد للمدرسة، وما يفعله السيد فلويد يفوق كثيرًا ما كان يفعله معظم رجال الدين، فهو يأتي بعد الشاي ليتناقش معهما، أو يأخذهما إلى غرفته الخاصة - كلما كان بمقدوره - لأن الأبرشية واحدة من تلك الأبرشيات الضخمة، والسيد فلويد، كما كان والده يفعل من قبله، يزور الأكواخ التي على بعد أميال من المستنقعات، وكان مثل أبيه، عالمًا جليلاً، ما جعل الموضوع مستبعدًا جدًا - فلم تكن لتحلم أبدًا بمثل هذا الأمر. أما كان عليها أن تخمن ذلك؟ ولكن ناهيك عن كونه رجل دين فهو يصغرها بشمانية أعوام. لقد كانت تعرف والدته - السيدة العجوز فلويد. تتناول الشاي هناك. وفي ذلك المساء بالذات حين عادت بعد تناول الشاي مع مدام فلويد الأم وجدت الورقة في القاعة وأخذتها معها إلى المطبخ

حين ذهبت لتعطي ريبيكا السمك، معتقدة أنها لا بد أن تكون شيئاً عن الولدين.

"السيد فلويد أحضرها، أهو من أحضرها؟ - أظن أن الجبنة موجودة في الطرد في الصالة - أوه، في الصالة -" قرأت. كلا، لم يكن عن الأولاد.

"نعم، هذا يكفي للسمك، الكعكات غداً بالتأكيد - ربما كابتن بارفوت -" كانت قد وصلت إلى كلمة "حب". ذهبت إلى الحديقة وقرأت، متكئة على شجرة الجوز لتثبت نفسها. راح صدرها يصعد ويهبط. برز سيبروك أمامها بوضوح. هزت رأسها ونظرت من خلال دموعها إلى الأوراق الصغيرة بألوانها المتبدلة قبالة السماء الصفراء حين انطلقت ثلاثة إوزات، شبه راکضة، شبه محلقة، عبر العشب وجوني خلفهم، يلوح بعضاً.

استشاطت مدام فلاندرز غضباً.

"كم مرة قلت لك؟" صرخت، واحتجزته وانتزعت منه العصا ورمتها بعيداً.

"ها هي هربت!" بكى وهو يعافر كي تطلق سراحه.

"أنت ولد شقي جداً. لو قلت لك مرة واحدة، لقد قلت لك ألف مرة. ألا تطارد الإوز!" قالت ذلك وكمشت خطاب السيد فلويد في يدها، أمسكت بجوني وسافت الإوز ثانية إلى البستان.

"كيف يمكنني التفكير في الزواج!" حدثت نفسها بمرارة، وهي تغلق البوابة بقطعة من السلك. لطالما كرهت الشعر الأحمر في الرجال، جال بخاطرهما، وهي تفكر في هيئة السيد فلويد، تلك الليلة بعد أن ذهب الأولاد إلى الفراش، دفعت صندوق حياكتها بعيداً، وسحبت ورقة النشاف نحوها، وقرأت رسالة السيد فلويد مرة أخرى، وصدرها يصعد ويهبط حين تصل إلى كلمة "حب"، ولكن ليس بسرعة كبيرة هذه المرة، بعد أن رأت جوني يطارد الإوز، وأدركت أنه من المستحيل عليها أن تتزوج بأي شخص - ناهيك عن السيد فلويد، الذي يصغرها بكثير، ولكن يا له من رجل لطيف - وبخاصة إن كان عالماً أيضاً.

"عزيزي السيد فلويد"، كتبت - "هل نسيت الجبن؟"، تساءلت وهي تضع قلمها. كلا، لقد أخبرت ربيكا أن الجبن في الصالة. "أنا مندهشة للغاية..." أكملت.

لكن الرسالة التي وجدها السيد فلويد على الطاولة عندما استيقظ مبكراً صباح اليوم التالي لم تبدأ بـ "أنا مندهشة للغاية"، لقد كانت رسالة حنونة ومهذبة للغاية وغير مترابطة ومفعمة بالأسف تلك التي احتفظ بها لعدة سنوات؛ بعد مدة من زواجه بالآنسة ويمبوش، من أندوفر؛ وبعد فترة طويلة من مغادرته القرية. كان قد طلب نقله إلى أبرشية في شيفيلد، وهو ما أجابوه إليه؛ و، عندما أرسل إلى آرشر ويعقوب وجون ليودعهم، طلب منهم أن يختاروا ما يحلو لهم من مكتبته ليتذكروه به. اختار آرشر قاطعة

الورق، فلم يجبذ أن يختار شيئاً ثميناً؛ اختار يعقوب أعمال بايرون في مجلد واحد؛ اختار جون، الذي كان ما يزال أصغر من أن يحسن الاختيار، قطعة السيد فلويد الصَّغيرة، والذي فكر أخواه بأنه اختيار سخيف، لكن السيد فلويد أيد اختياره عندما قال: "إن لها فرواً ناعماً مثلك". ثم تحدث السيد فلويد عن البحرية الملكية (التي كان آرشر ذاهباً إليها)؛ وعن الروكبي⁽¹⁾ (التي سيلتحق بها يعقوب)؛ وفي اليوم التالي، تلقى من أبرشيته طبقاً فضياً وذهيباً - وسافر أولاً إلى شيفيلد، حيث قابل الأنسة ويمبوش، وهي في زيارة لعمها، ثم بعد ذلك إلى هاكني - ثم إلى دار ماريسفيلد، التي أصبح مديراً لها، وأخيراً، بعد أن أصبح محرراً للسلسلة معروفة عن السير الذاتية لرجال الكنسية، تقاعد في هامبستيد مع زوجته وابنته، وغالباً ما يرى وهو يطعم البط على بحيرة لج أوف ماتن⁽²⁾. أما عن رسالة مدام فلاندرز - حين بحث عنها ذات يوم، لم يجدها، ولم يجبذ أن يسأل زوجته عما إذا كانت قد تخلصت منها. لقد قابل يعقوب في بيكاديلي مؤخراً، تذكره بعد ثلاث ثوانٍ. لكن يعقوب كان قد أصبح شاباً رائعاً إلى درجة أن السيد فلويد لم يرغب في إيقافه في الشارع.

"يا إلهي"، قالت مدام فلاندرز، عندما قرأت في صحيفة سكاربورو وهاروجيت كورير، أن القس أندرو فلويد، إلخ، إلخ، أصبح رئيساً لدار مارسفيلد، "إنه لا بد السيد فلويد الذي نعرفه." خيم ظلام طفيف على

(1) الروكبي أو الرجبي؛ ضرب من كرة القدم.

(2) Leg of Mutton Pond بحيرة في إنجلترا.

الطَّاولَة. كان يعقوب يضع مُربّى لنفسه. ساعي البريد يتحدث إلى ربيكا في المطبخ؛ ثمّة طين نحلة في الزهرة الصفراء المتمايلة من النافذة المفتوحة. باختصار، كانوا جميعاً على قيد الحياة، حين أصبح السيد فلويد المسكين رئيساً لدار ماريسفيلد.

نهضت مدام فلاندرز واجتازت الدرايزين وداعبت توباز على رقبتة خلف أذنيه.

قالت: "توباز المسكين" (لأن هر السيد فلويد أصبح الآن قطعاً عجوزاً جداً، أصيب بجرب قليل خلف الأذنين، وسيتعين قتله في أحد هذه الأيام).

"المسكين توباز العجوز" قالت مدام فلاندرز، بينما يتمطع تحت أشعة الشمس، وابتسمت، متذكّرة كيف أنها خَصَّتْهُ، وكيف أنها لم تحب الشعر الأحمر في الرجال. واصلت الابتسام في طريقها إلى المطبخ.

مرر يعقوب منديلاً متسخاً قليلاً على وجهه. وصعد إلى غرفته في الدور العلوي.

تستغرق خنافس الأيل⁽¹⁾ وقتاً طويلاً لتموت (كان جون هو من اصطاد الخنافس). حتى في اليوم الثاني كانت أرجلها ما تزال رطبة. لكن الفراشات

(1) Stag beetles تشقّق التسمية باللغة الإنجليزية من الفك الذي يوجد لدى ذكور معظم الأنواع والتي تشبه قرون الأيل.

ماتت. تغلبت نفحة من البيض الفاسد على رائحة الفراشات الصفراء⁽¹⁾ التي انطلقت عبر البستان وأعلى سفوح المرتفعات وبعيداً فوق المستنقع، الآن اختفت خلف شجرة جولو، ثم طارت بعيداً مرة أخرى في هرج ومرج تحت أشعة الشمس الحارقة.

كانت فراشة حشيشة الحجل تندفأ على حجر أبيض في المعسكر الروماني. ومن الوادي تصاعدت أجراس الكنيسة. الجميع يأكلون الآن لحم البقر المشوي في سكاربورو؛ فقد كان يوم أحد حين صاد يعقوب الفراشات الصفراء في حقل البرسيم، على بعد ثمانية أميال من البيت.

وكانت ريبيكا تمسك بفراشة دودة ورق السمسم⁽²⁾ في المطبخ.

انبعثت رائحة الكافور قوية من علب الفراشات.

اختلطت رائحة الكافور برائحة الطحالب البحرية القوية. وفوق الشرائط السوداء المصفرة المعلقة على الباب. انصبت أشعة الشمس مباشرةً.

لا شك أن جناحي العثة العلويين التي أمسكها يعقوب كانتا مرقتين بنقط على شكل كُلية في لون الشعب المرجانية. لكن لم يكن هناك هلال على

(1) clouded yellows تسمى في ليبيا بفراشة الصفراء لأن لون الأصفر هو الغالب على لون أجنتها الأربعة مع وجود بقع سوداء، زرقاء، حمراء وبعض خطوط دقيقة سوداء، وتسمى بشكل رسمي (الفراشة الخطافية) وسبب هذه التسمية هو وجود إصبع طويل معكوف يشبه المخطف في نهاية جناحيها الصغيرين في الخلف.

(2) death's-head moth توجد على الناحية الظهرية للصدر بقعة كبيرة بشكل جمجمة الإنسان ولذلك سميت فراشة رأس الموت. وتسمى أيضاً فراشة دودة ورق السمسم.

الجناح السفلي. كانت الشجرة قد سقطت في الليلة التي أمسكها فيها. من هناك تنهى صوت انفجار في أعماق الغابة. فظنته والدته لصًا حين عاد متأخرًا إلى البيت. كان الولد الوحيد من أبنائها الذي لا يطيعها مطلقًا، هكذا كانت تقول.

أطلق عليها موريس⁽¹⁾ "حشرة محلية تنتشر على نطاق واسع في الأماكن الرطبة أو المستنقعات". لكن موريس كان يخطئ في بعض الأحيان. فكثيرًا، ما كان ينتقي يعقوب قلمًا رفيعًا جدًا لإجراء تصحيحات في الهامش.

وقعت الشجرة، برغم أنها ليلة بلا عواصف، والфанوس الموضوع على الأرض، يضيء الأوراق الخضراء وأوراق الزان الميتة. والمكان جاف. وثمة ضفدع هناك. والفراشة الحمراء⁽²⁾ كانت تدور حول الضوء تعكسه وتمضي. لم تعد الفراشة الحمراء مرة ثانية، مع أن يعقوب انتظر. كان ذلك بعد منتصف الليل حين عبر المرجة الخضراء ورأى والدته في الغرفة المضيفة، جالسة تلعب الورق.

"كم أزعجتني!" صاحت. وقد ظنت أن شيئًا مروعًا حدث. وأيقظ ربييكا، التي كان عليها أن تستيقظ في وقت مبكر جدًا.

هناك وقف شاحبًا، منبثقًا من أعماق الظلام، في الغرفة الحارة، بعينين ترمشان من الضوء.

(1) Morris عالم حشرات.
The red underwing (2)

لا، لا يمكن أن تكون فراشة القش.

دائمًا ما تحتاج آلة الجز إلى التزييت. لقد أدارها "بارنت" تحت نافذة يعقوب، فأصدرت صريرًا-صرّت، وتحشّرت خلال العشب وأخذت تصر مجددًا.

الآن تلبدت السماء بالغيوم.

ثم عادت الشمس مبهرة مرة أخرى.

سقطت مثل عين وامضة على مشغولات معدنية، بعدها استقرت فجأة بلطف شديد على السرير، وعلى المنبه، وعلبة الفراشة المتروكة مفتوحة. كانت الفراشات الصفراء تجوب المستنقع؛ في طرق متعرجة فوق البرسيم الأرجواني. وقد ازدهت حشائش الحجل على طول السّياج. واستقرت الزرقاوات على عظام صغيرة ملقاة على العشب تضربها الشمس، وأولت فراشة السيدات المتزينات⁽¹⁾ والطواويس على أحشاء دائمة عافها صقر. على بعد أميال عن المنزل، في تجويف بين نبات مشط الراعي تحت خرابة، وجد هذه الأشجار. رأى فراشة الأميرة البيضاء⁽²⁾ تحلق أعلى وأعلى حول شجرة بلوط، لكنه لم يمسك بها قط. أخبرته امرأة ريفية عجوز تعيش بمفردها في أحد الأكواخ عاليًا، عن فراشة أرجوانية كلما جاءت كل صيف إلى حديقته. قالت إن أشبال الثعالب تداعب نبات الجولق في الصباح الباكر.

painted ladies (1)

white admiral (2)

وإذا أمعنت النظر عند الفجر فستجد دائماً اثنين من حيوان الغرير. قالت
إنهما أحياناً يضرب أحدهما الآخر مثل صبيين يتعاركان.

"لن تخرج بعد الظهر يا يعقوب"، قالت أمه، وهي تطل برأسها من
الباب، "لأن الكابتن سيأتي ليوعدنا". كان آخر يوم في عطلة عيد الفصح.
ويوم الأربعاء هو موعد الكابتن بارفوت.

ارتدى ثيابه الزرقاء شديدة الأنافة، أمسك عصاه برأسها المطاطي -
لأنه كان أعرج وتنقص يده اليسرى إصبعين، بعد أن أدى واجبه نحو
بلده - وانطلق من المنزل مع سارية العلم في تمام الرابعة بعد الظهر.

في الثالثة، استدعى السيد ديكنز، المكلف بدفع كرسي المقعدين، من
أجل مدام بارفوت.

"تحرك بي"، ستقول للسيد ديكنز، بعد جلوسها في المنتزه لمدة خمس
عشرة دقيقة. ومرة أخرى، "يكفي هذا، شكرًا لك سيد ديكنز." في الأمر
الأول، يبحث لها عن الشمس؛ في الثاني يثبت الكرسي هناك في الرقعة
المضيئة.

السيد ديكنز هو واحد من مواطني سكاربورو القدامى، لديه الكثير من
الأموال المشتركة مع مدام بارفوت؛ ابنة جيمس كوبارد. لقد كانت صناير
مياه الشرب، عند تقاطع الشارع الغربي بالشارع الرئيسي، هدية جيمس
كوبارد، عمدة البلدة إبان عصر اليوبيل الذهبي للمملكة فيكتوريا، رُسمت

صورة كوبارد على عربات توزيع مياه البلدية وعلى واجهات المتاجر وعلى الستائر في نوافذ الغرفة الاستشارية. لكن إلين بارفوت لم تزر المتحف المائي قط (مع أنها تعرف الكابتن بواسي جيداً الذي صاد سمكة القرش)، وعندما اقترب الرجال بملصقات الدعاية رمقتهم بأنفة شديدة، فقد كانت تعرف أنها لن ترى فرقة بييرو⁽¹⁾ أبداً، أو الأخوين زينو، أو ديزي بود وفرقتها الأدائية من الفقميات. لأن إلين بارفوت كانت سجينة كرسية المتحرك في المنتزه - سجينة الحضارة - تسقط قضبان قفصها متعامدة على أرض المنتزه في الأيام المشمسة بينما تنعكس قاعة المدينة ومحلات الملابس الجاهزة وحمام السباحة وقاعة النصب التذكارية كشرائط من الظلال على الأرض.

كان مواطن سكاربورو القديم، السيد ديكنز يقف خلفها قليلاً، يدخن غليونه. تسأله بعض الأسئلة - من هم هؤلاء الأشخاص - من يحتفظ الآن بمحل السيد جونز - ثم عن الموسم - وهل جربت مدام ديكنز، أياً كان ما تجربته - والكلمات تندفع من شفيتها مثل فتات البسكويت الجاف.

أغمضت عينيها. وراح السيد ديكنز يحرك الكرسي. ومشاعر الذكورة لم تفارقه تماماً، رغم أنك حين تراه قادماً نحوك، تلاحظ كيف تلتوي فردة حذائه السوداء بارتباك أمام الأخرى؛ كيف يقبع ظل بين صديريته وسرواله؛ كيف يميل إلى الأمام بشكل غير مستقر، مثل حصان عجوز

(1) بييرو Pierrot، شخصية خيالية كوميدية وهي واحدة من فرق الأداء البريطانية الأصلية القليلة - فهي جزء مهم من التراث الثقافي والتقاليد الشعبية هناك.

وجد نفسه فجأة خارج الحاجزين الخشبيين لا يجر أي عربة. ولكن بينما يرشف السيد ديكنز الدخان وينفثه ثانية، كانت مشاعر الذكورة تتبدى في عينيه. جال بخاطره أن الكابتن بارفوت في طريقه إلى ماونت بليزانت؛ كابتن بارفوت، سيده. وهو في المنزل في غرفة الجلوس الصغيرة المطلة على الإسطبلات، مع الكناري في النافذة، والفتيات أمام ماكينة الخياطة، والسيدة ديكنز جاثمة على كرسيها بسبب الروماتيزم - في المنزل حيث لا يعول عليه إلا قليلاً، كانت تتعزز فكرته عن كونه مستخدم الكابتن بارفوت. راقه التفكير أنه بينما يتجاذب أطراف الحديث مع مدام بارفوت الجالسة أمامه، يساعد الكابتن في طريقه إلى مدام فلاندرز. هو، الرجل، كان مسؤولاً عن مدام بارفوت، المرأة.

حين استدار، لمحها تتحدث مع مدام روجرز. حين استدار إليها مرة أخرى، رأى مدام روجرز تواصل سيرها. فعاد إلى الكرسي المتحرك، وسألته مدام بارفوت عن الوقت، أخرج ساعته الفضية الكبيرة وأخبرها بلطف شديد، كما لو كان يعرف الكثير عن الوقت وعن كل شيء أكثر مما تعرف هي. لكن مدام بارفوت كانت تعرف أن الكابتن بارفوت في طريقه إلى مدام فلاندرز.

كان بالفعل في طريقه إلى هناك، بعد أن غادر الترام، متطلعاً إلى دودز هيل في الجنوب الشرقي، خضراء قبالة السماء الزرقاء التي غمرها الغبار على مدى الأفق. صعد التل. بالرغم من عرجه فقد كان ثمة شيء عسكري

في مشيته. وبينما كانت مدام جارفيس تخرج من بوابة بيت القس، رأته قادمًا، وكلبها النيوفندلاند، نيرو، يمسح ببطء ذيله من جانب إلى آخر.

"أوه، الكابتن بارفوت!" صاحت مدام جارفيس.

قال الكابتن: "طاب يومك مدام جارفيس".

واصلا المشي معًا، وحين وصلا إلى بيت مدام فلاندرز، خلع الكابتن بارفوت قبعته التويدية⁽¹⁾، وقال وهو ينحني بتهذيب شديد:

"طاب يومك مدام جارفيس."

وواصلت مدام جارفيس السير وحدها.

كانت في طريقها تتمشى على المستنقع. ألم تزل تركض في حديقته في وقت متأخر من الليل؟ أطفقت مرة أخرى تنقر على نافذة المكتب وتصيح: "انظر إلى القمر، انظر إلى القمر يا هربرت!"

وهربرت ينظر إلى القمر.

اعتادت مدام جارفيس السير على المستنقع حين تكون تعيسة، إلى أن تصل إلى تجويف على شكل صحن فنجان، على الرغم من رغبتها الملحة في الذهاب إلى إحدى قمم الجبال البعيدة؛ وهناك تجلس، وتخرج الكتاب الصغير المخبأ تحت عباءتها وتقرأ بضعة سطور من الشعر، وتنظر حولها.

(1) نسيج صوفى خشن.

لم تكن تعيسة جداً، وقد أدركت أنها أصبحت في الخامسة والأربعين من عمرها، ربما لن تكون أبداً تعيسة جداً، على هذا النحو اليائس، وتهجر زوجها وتدمر مهنة الرجل الصالح، كما كانت تهدد في بعض الأحيان.

مع ذلك فلا حاجة لسرد المخاطر التي قد تتعرض لها زوجة قس حين تغامر بالسير وحدها في المستنقع. قصيرة، داكنة، بعينين متوهجتين، وريشة طائر الدراج في قبعتها، كانت مدام جارفيس من نوع النساء اللائي قد يفقدن إيمانهن في المستنقع - بالخلط بين إلهها وتلك الطبيعة الكونية - غير أنها لم تفقد إيمانها، لم تهجر زوجها، ولم تقرأ قصيدتها كاملة أبداً، وظلت تواصل تجولها على المستنقع، متطلعة إلى القمر وراء أشجار الدردار، تراودها مشاعر شتى في جلستها على العشب فوق مرتفعات سكاربورو... نعم، نعم، حين تحلق القبرة؛ حين تتحرك الأغنام، خطوة أو خطوتين إلى الأمام، ترعى الكلاء، في الساعة نفسها التي تفرع فيها الأجراس؛ وتهب أول نسمة، ثم تحمد، تاركة على الخد قبلة؛ حين تبدو السفن في البحر أسفل منها تتلاقى بعضها مع بعض وتجتاز بعضها البعض كما لو أن يدًا خفية تسحبها؛ حين تحدث ارتجاجات في الهواء من مسافة وثمة أشباح لفرسان يتوقفون عن الركض؛ حين يتماوج الأفق أزرق، أخضر، مضطرباً - آنذاك، تنطلق من مدام جارفيس تهيدة حارقة، تفكر في نفسها، "لو يستطيع شخص ما أن يمنحني... لو استطعت أن أمنح شخص ما..."، لكنها لا تعرف ماذا تريد أن يُمنح لها، ولا من يستطيع أن يمنحها إياه.

"مدام فلاندرز خرجت من خمس دقائق فقط يا كابتن" قالت ريبيكا. جلس الكابتن بارفوت على كرسي ينتظرها. مريحًا مرفقيه على ذراعيه، وهو يضع يداً فوق الأخرى، ويفرد ساقه العرجاء، ويسند العصا برأسها المطاطي جوارها، ساكنًا. جامدًا. هل كان يفكر؟ ربما ما يزال يفكر في الأفكار نفسها مرارًا وتكرارًا. لكن أكانت أفكارًا "لطيفة" أفكارًا مشوقة؟ كان رجلًا حاد الطباع. عنيذًا، مخلصًا. حتى أن النساء ليشعرن، "إنه هنا القانون. إنه هنا النظام. لذلك لا بد أن نهتم بهذا الرجل. وهو في مقصورة القيادة ليلاً"، ويناولنه فئجان شايه، أو أيًا ما كان، وقد استحضرن مشاهد السفن الغارقة والكوارث، التي يتدحرج فيها جميع الركاب من مقصوراتهم، وهناك القبطان، مزررًا في معطف البحارة، يواجه العاصفة، مهزومًا بها، ولكن ليس بغيرها. "أنا أيضًا لي قلب"، ستفكر فيها مدام جارفيس، بينما يتمخط الكابتن بارفوت فجأة في منديل أحمر كبير، "إن غباء الإنسان هو ما تسبب في ذلك، والعاصفة كما أنها عاصفتي فهي عاصفته كذلك"... هكذا كانت مدام جارفيس تفكر فيها حين كان يتردد الكابتن على زيارتها لرؤيتهم ويجد هربرت خارج المنزل، ويقضى ساعتين أو ثلاث ساعات، صامتًا تقريبًا، جالسًا على مقعد بذراعين. لكن بيتي فلاندرز لم تكن تفكر في شيء من هذا القبيل.

قالت مدام فلاندرز: "أوه، الكابتن"، وهي تهرع إلى غرفة المعيشة، "لقد اضطررت إلى الركض خلف بائع باركر... آمل أن ريبيكا... آمل أن يعقوب..."

كانت تلتقط أنفاسها بصعوبة شديدة، وإن لم تكن تشعر بالضيق على الإطلاق، وبينما تضع فرشاة المدفأة التي اشترتها من بائع الزيت، قالت إن الجو حار، ودفعت النافذة لتفتحها أكثر، وعدلت الستارة، والتقطت كتابًا، مثل امرأة واثقة جدًا، ممتلئة بالمودة للكابتن، والسنوات العديدة التي تصغرها عنه. في الواقع، لم تكن تبدو في مئزرها الأزرق أكثر من خمسة وثلاثين. وكان هو قد تجاوز الخمسين.

حركت يديها ترتب الطاولة؛ حرك الكابتن رأسه من جانب إلى آخر، مُصدرًا بعض الأصوات، ويأتي تواصل حديثها، وهو على راحته تمامًا - بعد عشرين عامًا.

"حسنًا"، قال أخيرًا، تلقيت أخبارًا من السيد بولجيت."

لقد أخبره السيد بولجيت أنه ليس هناك أفضل من إرسال الأولاد لإتمام تعليمهم في الجامعة.

قالت مدام فلاندرز: "السيد فلويد في كامبريدج... لا، في أوكسفورد... حسنًا، إنه في واحدة منها".

نظرت من النافذة. انعكست النوافذ الصغيرة والليلك وخضرة الحديقة على عينيها.

"آرشر يُبلي حسنًا"، قالت. "تلقيت تقريرًا لطيفًا جدًا من الكابتن ماكسويل".

قال الكابتن: "سأترك لك الرسالة لتُريها ليعقوب"، وهو يعيدها إلى الظرف بطريقة خرقاء.

"يعقوب خلف فراشاته كعاداته"، قالت مدام فلاندرز بانفعال، ولكنها بوغتت بفكرة خطرت على بالها، "الكريكييت يبدأ هذا الأسبوع، بالطبع." قال الكابتن بارفوت: "لقد قدم إدوارد جينكينسون استقالته".

صاحت مدام فلاندرز وهي تنظر في وجه الكابتن مباشرةً: "إذن سترأس المجلس؟"

"تمامًا، تقريبًا"، راح الكابتن بارفوت يغوص في كرسيه أكثر. وهكذا ذهب يعقوب فلاندرز، إلى كامبريدج في أكتوبر 1906.

الفصل الثالث

"هذه العربة ليست للتدخين" اعترضت مدام نورمان، بانفعال ولكن بصوتٍ واهنٍ للغاية، لحظة أن فُتح الباب على مصراعيه بغتة ومرق إلى الداخل شاب قوي البنية. بدا أنه لم يسمعها. لم يكن القطار ليتوقف قبل أن يصل إلى كامبريدج، وها هي حبيسة بمفردها، في عربة قطار مع شاب.

تحسست سوستة حقيبة ملابسها، وتأكدت أن زجاجة العطر ورواية من مودي⁽¹⁾ كليهما في متناول يدها (كان الشاب واقفاً يوليها ظهره، يدس حقيبته في رف الأمتعة). ستقذف زجاجة العطر بيدها اليمنى، قررت، وتسحب جبل الإنذار لإيقاف القطار بيدها اليسرى. كانت في الخمسين من عمرها، ولها ابن يدرس في الجامعة. ومع ذلك، فثمة حقيقة في أن الرجال مصدر خطر. قرأت نصف عمود من جرنالها؛ ثم اختلست النظر من فوق حافته لتبتّ في مسألة الأمان عن طريق فحص المظهر الذي نادراً ما يخطئ.... ودت لو قدمت له جرنالها. ولكن هل يقرأ الشباب الـ"مورنينج

(1) تشارلز إدوارد مودي (18 أكتوبر 1818، في تشيلسي - 28 أكتوبر 1890)، ناشر إنجليزي. وكان أيضاً أول ناشر لجيمس راسل لويل، ورالف والدو إمرسون.

بوست" (1)؟ نظرت على ما كان يقرؤه - الـ "دايلي تلجراف" (2).

بعد أن لاحظت جوربيه (فضفضان)، ربطة عنقه (رثة)، تطلعت لتفحص وجهه مرة أخرى. استقرت عيناها على فمه. الشفتان مغلقتان. العينان مسدلتان إلى أسفل، كان يقرأ. كل شيء فيه كان حازماً، مع أنه شاب وغير مبالٍ وشارد الذهن - أما عن مهاجمة شخص ما! كلا كلا! نظرت من النافذة، وهي تبسم ابتسامة خفيفة، ثم التفتت إليه مرة أخرى، غير أنه لم يبدُ عليه أنه لمحها. بجدية، وعدم اكتراث... رفع عينيه عمّا يقرأ، دون أن يراها... بدا على غير راحته على نحو ما، وهو بمفرده مع سيدة مسنة... بعد ذلك ثبتت عيناه - اللتان كانتا زرقاوين - على المناظر الطبيعية. لا يبدو أنه يحس بوجودها، فكرت. ومع ذلك، لم يكن خطوها أن تلك العربية ليست للمدخنين - إذا كان هذا ما يضمّره.

لا أحد يرى الآخر على حقيقته، فما بالك بسيدة مسنة تجلس أمام شاب غريب في عربة قطار. إن ما يرونه هو المجل - ما يرونه هو كافة أنواع الأشياء - ما يرونه هو ذواتهم... قرأت مدام نورمان إلى الآن ثلاث صفحات من إحدى روايات السيد نوريس (3). أكان عليها أن تقول للشباب

Morning Post (1)

Daily Telegraph (2)

(3) بنجامين فرانكلين نوريس جونور Benjamin Franklin Norris (1870 - 25 أكتوبر 1902) كاتب وروائي وصحفي أمريكي تأثرت أفكاره بالعصر التقدمي للولايات المتحدة الأمريكية، نُشرت أولى أعماله في نهاية عقد الثمانينيات من القرن التاسع عشر، أول منشوراته كانت في الترجمة إلى الإنجليزية، ومن ثم بدأ في التأليف، وجزء كبير من أعماله نُشر بعد موته المفاجئ في 1902.

(الذي كان في النهاية في سن ابنها): "إذا كنت ترغب في التدخين، فلا مانع عندي"؟ لا: بدا غير مكترث على الإطلاق بوجودها... وهي لا ترغب في التطفل.

لكن بما أنها لاحظت، حتى في هذه السن، عدم اكترائه، أفلا يفترض أن يكون بطريقة أو بأخرى -وفقاً لها على الأقل - شاباً لطيفاً، وسيماً، مثيراً للاهتمام، متميزاً، قوي البنية، مثل ابنها؟ لا بد للمرء أن يبذل قصارى جهده لفهم انطباعاتها. على أية حال، لقد كان هذا يعقوب فلاندرز، البالغ من العمر تسعة عشر عاماً. لا فائدة تُرجى من محاولة تلخيص البشر. على المرء أن يستدل بالإشارات، دون أدنى اعتبار لما يقال، ولا حتى لما يصدر من أفعال - فمثلاً، عندما دخل القطار المحطة، دفع السيد فلاندرز الباب بقوة، وأخرج للسيدة حقيبة ملابسها، قائلاً: أو بالأحرى مغمغماً: "اسمحي لي" بخجلٍ شديد؛ لم يكن لبقاً بالفعل في أمور كتلك.

"من هذا..." سألت السيدة، وهي تلتقي ابنها؛ ولكن نظراً إلى الزحام الشديد على الرصيف وكان يعقوب قد رحل بالفعل، لم تكمل جملتها. ولأن هذه كامبريدج، ولأنها قضت هناك عطلة الأسبوع، ولأنها لم تر طوال اليوم سوى الشباب، في الشوارع وحول الطاولات، فهذا المشهد لرفيق سفرها سقط تماماً من ذهنها، مثل دبوس مُعَوَّجٌ يدوم قليلاً في الماء حين يلقيه طفل في بئر الأمنيات ثم يختفي إلى الأبد.

يقولون إن السماء هي نفسها في كل مكان. إنها الفكرة التي يستمد منها

المسافرون والغارقون والمنفيون والمحتضرون، الراحة، وإن كنت بالطبع من لديهم نزوع باطني، فإن العزاء، وحتى التفسير، ينهمران عليك من السطح الممتد بلا انقطاع. لكن فوق كامبريدج - في أي مكان على سطح كنيسة كلية الملك - هناك فرق. مدينة ضخمة تتراءى بجانب البحر، توزع أضواءها في الليل. أيعد ضرباً من الخيال لو افترضنا أن السماء، التي تترقق في فجوات كنيسة كلية الملك، أخف وزناً، وأكثر نقاءً، وسطوعاً من السماء في أي مكان آخر؟ هل تتألق كامبريدج لا في الليل فحسب، بل وأيضاً في وضوح النهار؟

راقبهم وهم مندمجون في القداس، كيف تهفّف أرديتهم بانسياب، كما لو أنه لا يوجد شيء ثقيل وجسداني يقبع داخلها. يا لها من وجوه منحوتة، يا لها من ثقة، يا لها من سلطة تجللها التقوى، على الرغم من أن الأحذية الضخمة تتحرك حثيثة أسفل العباءات. يا له من موكب منظم يسرون فيه. الشموع الغليظة تقف منتصبه؛ الشباب ينهضون في أردية بيضاء؛ في حين يحمل النسر التابع الكتاب الأبيض العظيم عاليًا بغرض معاينته. يظهر بدقة مستوى منحدر من الضوء عبر كل نافذة، يبدو أرجوانياً وأصفر حتى في غباره الواسع الانتشار، وحيثما يتكسر على حجر، فإن ذلك الحجر يتخطط بشرائط ناعمة حمراء وصفراء وأرجوانية. لا الثلوج ولا الخضرة، لا الشتاء ولا الصيف، بوسعها التأثير على الزجاج الملون القديم. فجوانب المصباح تحمي اللهب الذي يشتعل بثبات حتى في أكثر الليالي

اضطراباً - يشتعل بنبات وياتزان مضيئاً الأشجار - الجذوع - هكذا داخل الكنيسة كل شيء يبدو منضبطاً. الأصوات تتردد بمهابة. بحكمة يتجاوب معها الأرغن، كما لو أنه يعزز إيمان البشر بقبول القربان. الشخوص في أرديتها البيضاء تمر من جانب إلى جانب؛ خطوات تصعد أحياناً، وتهبط أحياناً، كل هذا يجري بمنتهى الانضباط.

... لو أنك وضعت مصباحاً تحت شجرة، فستزحف كل حشرة في الغابة نحوه - جماعة فضولية، بالرغم من أنها تتدافع وتتأرجح وتخطو رؤوسها في الزجاج، فعلى ما يبدو لا غرض لها - يبدو أن قوة لا معنى لها توجهها. يشعر المرء بالتعب من متابعتها، وهي تتبختر حول المصباح وتنقر على نحو أعمى كما لو كانت تطلب إذناً بالدخول، بدا ضفدع كبير، أكثرها خبلاً، وهو يشق طريقه بكتفه عبر البقية. آه، لكن ما ذاك؟ وابل مروع من بندقية؛ طلقات تدوي - تفرقع بعنف؛ موجاتها تنتشر، الصّمت يطوي الصوت بنعومة. شجرة - سقطت شجرة، ضرب من الموت في الغابة. ومن ثمّ، سرت الرياح في الأشجار حزينة.

لكن هذا القداس في كنيسة كلية الملك - لماذا يُسمح للنساء بالمشاركة فيه؟ بالتأكيد، إذا ما انصرف الذهن (وبدا يعقوب شاردًا جدًا، رأسه ملقاة إلى الوراء، وكتاب تراتيله مفتوح على الصفحة الخطأ)، إذا ما انصرف الذهن فإنها جراء الكثير من متاجر القبعات، وخزانات فوق خزانات من الفساتين الملونة التي يستعرضها الجالسون على كراسي من القش. بالرغم

من تظاهر الهامات والأجساد بالتقوى بدرجة كافية، فالمرء يشعر بهويات منفردة - بعضهم يفضل الأزرق، والآخر البني؛ بعضهم الريش، وبعضهم زهور البنفسج ثلاثية الألوان وزهور لا تنسني.⁽¹⁾ لا يخطر على بال أحد اصطحاب كلب إلى الكنيسة. لأنه على الرغم من أن الكلب يحسن التصرف على ممر مفروش بالحصى، ولا يبدي أي استهتار بالزهور، فالطريقة التي يتجول بها في الممشى، وهو ينظر، ويرفع مخلبه، ويقرب من عمود تجعل الدم يتجمد من الرعب (لا بد أن تكون فردًا في جماعة - بمفردك، الخجل غير وارد)، الكلب يدمر خشوع القداس تمامًا. كما تفعل هؤلاء النساء - على الرغم من أن كل واحدة منهن تبدو ورعة ومتميزة ومعززة باللاهوت والرياضيات واللاتينية واليونانية من زوجها. فالسوء تعرف سبب هذا. إنه لسبب واحد، جال بخاطر يعقوب، إنهن قبيحات كالرذيلة.

الآن سرى هرش ودمدمة. اقتنص يعقوب عين تيمي دورانت. نظرت إليه في عبوس. ثم، بوقار شديد، غمزت له.

"ويفرلي"⁽²⁾، هو اسم الفيلا التي على طريق جيرتون⁽³⁾، وليس هذا لأن

(1) علماء النبات يطلقون على هذه الزهرة تسمية "ميوسوتيس" واسمها في العربية "أذن الفأر"، وهي الترجمة الحرفية للكلمة. أما في الألمانية فيطلق عليها تسمية "لا تنسني" دلالة على الوفاء في الحب. وتعيش هذه الأزهار في مناطق الغابات البرية ومناطق السهول المعتدلة.

(2) ويفرلي هي رواية تاريخية نشرت عام 1814 بقلم السير والتر سكوت. نشرت باسم مجهول في عام 1814 كمشروع سكوت الأول في الخيال الثري، غالبًا ما ينظر إليها بأنها أول رواية تاريخية في الأدب الغربي.

(3) جيرتون (كامبريدجشير) هي قرية وأبرشية مدنية تقع في المملكة المتحدة في كامبريدجشير.

السيد بلومر معجب بسكوت أو أنه كان يميل إلى اختيار أي اسم على الإطلاق، ولكن الأسماء مفيدة حين تكون مضطراً إلى الترفيه عن طلاب الجامعة، وهم يجلسون في انتظار وصول الطالب الرابع ذات يوم أحد في وقت الغداء، ويتحدثون عن الأسماء المدرجة على أبواب المنازل.

"يا له من متعب"، قاطعتهم السيدة بلومر باندفاع. "هل يعرف أحد السيد فلاندرز؟"

كان السيد دورانت يعرفه؛ وبالتالي علت وجهه مسحة من الخجل، وقال، بحرج بالغ، شيئاً ما عن كونه متأكداً - وهو ينظر إلى السيد بلومر ويجذب رجل بنطاله اليمنى أثناء حديثه. نهض السيد بلومر ووقف أمام المستوقد. ضحكت السيدة بلومر ببساطة وعادية مثل رفيق ودود. باختصار، أي شيء أكثر فظاعة من هذا المشهد، هذه الإعدادات، هذا الأفق، وحتى الحديقة التي يضربها الجذب في مايو جراء البرد، والغيمة التي تختار المرور في تلك اللحظة حاجبة الشمس. كانت هناك الحديقة، بالطبع. الجميع تطلع إليها في اللحظة نفسها. بسبب الغيمة، تكدرت الأوراق والعصافير باللون الرمادي - كان هناك عصفوران.

"أعتقد"، قالت مدام بلومر، مستغلة فترة الراحة المؤقتة، حيث كان الشباب يحدقون إلى الحديقة، نظرت إلى زوجها، وهو، دون تحمل المسؤولية الكاملة عن هذا التصرف، مع ذلك جذب الجرس.

لا يبدو أي عذر مستساغاً لهذا الاستياء من أجل ساعة واحدة من حياة الإنسان، لولا تلك الأفكار التي تواردت على خاطر السيد بلومر وهو يُشَرِّح الحروف، ماذا لو لم يدعُ أي أستاذ جامعي طلابه إلى حفل غداء نهائياً، لو مرّ الأحد تلو الأحد، لو تخرج الشباب، وأصبحوا محامين وأطباء وأعضاء برلمان ورجال أعمال، لو لم يدعُ أي أستاذ جامعي طلابه إلى حفل غداء على الإطلاق.

"الآن، هل الحروف هو ما يعطي مذاقاً لصلصة النعناع، أم أن صلصة النعناع هي التي تمنح الحروف هذا المذاق؟" سأل الشاب الجالس جواره، ليكسر الصمت الذي استمر بالفعل لمدة خمس دقائق ونصف.

"لا أدري يا سيدي"، رد الشاب، ووجهه يتورد خجلاً.

في هذه اللحظة وصل السيد فلاندرز. كان قد أخطأ الميعاد.

الآن، مع أنهم انتهوا من تناول طبق اللحم، فقد أخذت مدام بلومر المزيد من الكرنب. قرر يعقوب، بالطبع، أن يأكل طبق لحمه في الوقت الذي ستمضيه هي في أكل الكرنب، وهو ينظر مرة أو مرتين لقيس سرعته - لكنه كان جائعاً بشكل رهيب. وحين لاحظت ذلك، قالت مدام بلومر إنها واثقة بأن السيد فلاندرز لن يانع - وكانت التورطة قد جُهِزت. وهي تومئ بطريقة الغريبة، أشارت إلى الخادمة كي تعطي السيد فلاندرز مزيداً من اللحم. ألقت نظرة إلى لحم الضأن. لن يتبقى الكثير من الفخذ للغداء.

لم يكن أيُّ من هذا خطأها - إذ كيف كان بمقدورها أن تمنع والدها من إنجابها قبل أربعين عامًا في ضواحي مانشستر؟ وبمجرد أن ولدت، كيف كان بمقدورها أن تفعل شيئًا آخر غير أن تشب بخيلة، طموحة، بيقين ثابت غريزي عن درجات السلم وبمثابرة كالنمل في دفع جورج بلومر قُدماً إلى قمة السلم؟ ماذا كان في قمة السلم؟ شعور بأن جميع الدرجات تحت المرء بوضوح تام؛ وبما أن جورج بلومر أصبح بمرور الوقت أستاذًا للفيزياء، أو أيًا ما أصبح، فقد بات بمقدور مدام بلومر التشبث بربوتها، وإلقاء نظرة عاجلة إلى الأرض، ونخس ابنتيها البسيطتين لتسلق درجات السلم.

قالت: "كنت في السباق أمس، مع ابنتي الصغيرتين".

لم يكن خطأهما كذلك. وهما تدخلان إلى قاعة الاستقبال، في ملابس بيضاء وأحزمة زرقاء. توزعان السجائر. ورثت رودا عيني أبيها الرماديتين الباردتين. كان لجورج بلومر عيناان رماديتان باردتان، ولكن فيها لمحة من الضوء المجرد. يمكنه التحدث عن بلاد فارس والرياح التجارية، وبرنامج الإصلاح ودورة المحاصيل. كانت الكتب على رفوفه لويلز وبرنارد شو. على الطاولة؛ مجلات أسبوعية رصينة بستة قروش كتبها رجال شاحبون في أحذية موحلة - الصرير الأسبوعي وصراخ الأدمغة التي تشطف بهاء بارد وتعصر لتجف - صحف بائسة.

"لا أشعر بأنني وقفت على حقيقة أي شيء ما لم أقرأ كليهما!" قالت مدام بلومر باسمه، وهي تنقر على الفهرس بيدها الحمراء العارية، والتي بدا الخاتم فيها شديد التنافر.

"يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي!" هتف يعقوب، والطلاب الأربعة يغادرون المنزل. "يا إلهي!"

"شيء مقزز جدًّا"، قال وهو يمسح الشارع بحثًا عن زهرة ليلك أو دراجة عابرة - أي شيء ليستعيد إحساسه بالحرية.

"شيء مقزز جدًّا" قال لتيمة دورانت، ملخصًا انزعاجه من العالم الذي تراءى له على الغداء، عالم قادر على الوجود - لم يكن هناك أدنى شك في ذلك - ولكن ليس ضروريًا على الإطلاق، أن تصدقه - شو وويلز والمجلات الأسبوعية الرصينة ذات الستة قروش! ماذا كان هؤلاء الكهول بعد الاتهام والنظافة الشديدة؟ ألم يقرؤوا أبدًا هومير وس، شكسبير، الإليزابيثيين؟ لقد قامت تلك الشياطين البائسة بتضخيم هذا الشيء التافه. وهو ما بدا له متناقضًا مع مشاعره التي استمدتها من شبابه وميوله الطبيعية. ولكن شيئًا من الشفقة انتابه حيال هاتين الصبيتين البائستين.

الانزعاج الشديد الذي اعتراه يثبت إلى أي حد كان مهتاجًا بالفعل. أرعن وعديم الخبرة كان هو، لكنه كان على يقين من أن المدن التي بناها كهول الجيل السابق على مرمى البصر، تبدو مثل الضواحي المبنية من الطوب والثكنات ومعسكرات التدريب والانضباط قبالة لهب أحمر وأصفر. كان

سهل الاستشارة؛ وإن كانت الكلمة تتناقض تمامًا مع رباطة جأشه وهو يجوف يده ليحجب عود الثقاب. لقد بدا شابًا كريم الجوهر.

على أية حال، سواء كنت طالبًا جامعيًا أم عاملًا في متجر، رجلًا أم امرأة، فحتمًا سيأتيك مثل صدمة قرب سن العشرين - عالم الكهول - يتم تقيؤها في مثل هذه الخلاصة السوداء على ما نحن عليه؛ على الواقع؛ المستنقعات وبايرون⁽¹⁾؛ البحر والمنارة؛ فك الغنمة بأسنانه الصفراء؛ بناءً على قناعة عنيدة يتعذر كبجها تجعل الشباب سيئو الطباع إلى حد لا يطاق - "أنا ما أنا عليه، وأنتوي أن أكونه"، وبالتالي لن يكون هناك نموذج في العالم ما لم يشكل يعقوب واحدًا بنفسه.

سوف تحاول أسرة بلومر الحيلولة دونه. ويلز وشو والصحف الأسبوعية الرصينة ذات الستة قروش ستجلس على رأس عالمه. في كل مرة يذهب فيها لتناول الغداء يوم الأحد - في حفلات العشاء وحفلات الشاي - ستحدث نفس الصدمة، الفزع، الانزعاج، ثم الرضا والاستمتاع، لأنه في كل خطوة يخطوها على طول النهر يسحب إليه هذا اليقين الثابت، هذا التشجيع من جميع الجهات المحيطة، الأشجار التي تنحني، الأبراج الرمادية تلين في أزرق السماء، الأصوات تدوي وتبدو عالققة في الهواء، نسائم الربيع في مايو، بهوائها المرن مع جزيئاته، براعم الكستناء، غبار

(1) جورج غوردون بايرون أو اللورد بايرون Lord Byron؛ (1788-1824) شاعر بريطاني من رواد الشعر الرومانسي.

الطلع، أيًا كان ما يمنحه هواء مايو عنفوانه، يضرب الأشجار، يُصمِّغ البراعم، ينشر الأخضرار في كل مكان. والنهر أيضًا يجري في مساره، لا يفيض ولا يندفع سرعًا، ولكنه يلتهم المجذاف الذي ينغمس فيه وتسقط من راحته قطرات فضية، وهو يسبح أخضر وعميقًا فوق القصب المنحني، كما لو أنه يمسد على ظهره بمنتهى البذخ.

حيثما أرسوا قاربهم انهمرت أوراق الأشجار، حد أن تجر جرت نصالها في التموجات وظهر الإسفين الأخضر المغروز في الماء مؤلفًا من انعكاسات، تتحرك ورقة ورقة كلما تحركت الأوراق الحقيقية. الآن سرت رعدة في الهواء - وعلى الفور أضاءت حافة السماء؛ وبينما كان دورانت يأكل الكرز وقعت منه كرزة صفراء عبر إسفين الأوراق الأخضر، فتلاأت سيقانها وهي تشق طريقًا متمعجًا داخله وخارجه، وأحيانًا تنزلق كرزة حمراء نصف مقضومة إلى الخضرة. كان المرج في مستوى عيني يعقوب وهو مستلق على ظهره؛ وقد طلاه عشب الخوذان بالذهب، لكن العشب لم يكن ينمو بمثل سرعة الدفق الأخضر الرقيق لعشب المقبرة الذي كان على وشك أن يغمر شواهد القبور، بل وقف غصًا وسميكا. نظر إلى أعلى، إلى الورا، ورأى سيقان الأطفال، وأقدام البقر تغوص في العشب. وسمع صوت مضغ، مضغ. ثم خطو قصير عبر العشب؛ ثم مرة أخرى مضغ، مضغ، مضغ، وهم يقتلعون العشب قريبًا من جذوره. أمامه دارت فراشتان بيضاوان أعلى وأعلى حول شجرة الدردار.

"لقد انفصل يعقوب" جال بخاطر دورانت وهو يرفع عينيه عن روايته. كان قد قرأ بضعة صفحات، ثم رفع عينيه بطريقة فضولية مدروسة، وكلما رفع عينيه، كان يتناول بضع حبات كرز من الكيس ويأكلها بشروء. مرت بهما قوارب أخرى، وهي تعبر المياه الراكدة من جانب إلى آخر لتتفادى بعضها البعض، إذ رسا الكثير منها الآن، وكانت هناك ملابس بيضاء وخلل في عمود الهواء بين شجرتين، حوله تلوى خيط من الدخان - حفل السيدة ميلر في الهواء الطلق. ظلت تتوافد مزيداً من القوارب، ودفع دورانت، دون أن ينهض، قاربها قرب الضفة أكثر.

"أوووه"، تأوه يعقوب، بينما يتمايل القارب، وتتمايل الأشجار، والثياب البيضاء والسراويل البيضاء الخفيفة تمتد على اتساعها وتهفّف على الضفة.

"أوووه"، نهض جالساً، وأحس كما لو أن قطعة من المطاط صفعته على وجهه.

"إنهم أصدقاء قارب أمي". قال دورانت. "حتى ذئب البحر العجوز تحمل متاعب لا نهاية لها مع هذا القارب".

لقد سافر هذا القارب من فالماوث إلى خليج سانت آيفيس، وجاب الساحل بأكمله. ثمة قارب أكبر، يخط يبلغ وزنه عشرة أطنان، في حوالي العشرين من يونيو، يتم تجهيزه بشكل مناسب، قال دورانت...

"هناك صعوبات مادية"، قال يعقوب.

قال دورانت (ابن مصرفي متوفى) "أسرتي ستتولى ذلك".

"أنوى الحفاظ على استقلالي المادي"، قال يعقوب بعناد. (وقد اعتراه انفعال).

"ذكرت والدتي شيئاً ما عن الذهاب إلى هاروجيت"، قال بضيق شديد، متحسناً جيبه حيث يحتفظ برسائله.

سأل تيمي دورانت: "هل أسلم خالك حقاً⁽¹⁾؟"

كان يعقوب قد روى قصة خاله مورتي في غرفة دورانت بالأمس.

"أتوقع أن يطعم أسماك القرش، إذا عُرِفَت الحقيقة". رد يعقوب "أعتقد يا ديورانت، أنك لم تترك ولا واحدة"، صاح وهو يكور كيس الكرز، ويلقي به في النهر. لمح حفلة السيدة ميلر في الجزيرة حين كان يرمي الكيس في النهر. مر نوع من الخجل في عينيه، من الاستياء، من الغم.

قال "ألن نمضي قدماً... هذا الحشد المقرف...". ثم واصلوا طريقهم، مخلفين الجزيرة وراءهم.

(1) وردت في النص becoming a Mohammedan حيث كانت كلمة محمدي تستعمل في أوروبا والولايات المتحدة بمعنى مسلم أو إسلامي، وظلت الكلمة مستخدمة في الكتابات الغربية حتى 1965 تقريباً حيث حلت محلها بعد ذلك كلمة مسلم. وتستخدم اليوم كلمة مسلم بشكل عام، بعد أن أصبحت كلمة محمدي قديمة، وفي بعض الحالات مسيئة. حسب قاموس أكسفورد الإنكليزي المختصر 1973 بدأ استعمال كلمة محمدي قبل 1682 مع الكلمة الأقدم Mahometan التي تعود لسنة 1529.

القمر المكسو بالريش الأبيض لا يترك السماء تُظلم تمامًا؛ بقيت طوال الليل أزهار الكستناء مضيئة في قلب الخضرة. وداكنًا كان بقدونس البقرة⁽¹⁾ في المروج.

لا بد أن جرسونات كلية ترينيتي (الثالوث) كانوا يخلطون الأطباق الصينية مثل الكروت، من صوت القعقة المتناهية من ملعب ترينيتي الكبير. غرفة يعقوب، مع ذلك، في ملعب نيفيل. في الأعلى؛ ومن ثمَّ فإن الوصول إلى باب غرفته يجعل المرء يغص في نوبة من اللهاث؛ غير أن يعقوب لم يكن هناك. من المفترض، أنه يتناول عشاءه في القاعة. الظلام يخيم تمامًا على ملعب نيفيل قبل منتصف الليل بفترة طويلة، باستثناء الأعمدة المقابلة دائمًا ما تكون مضاءة، والنافورات. ثمة تأثير غريب للبوابة، مثل الدانتيل على خلفية خضراء شاحبة. حتى في النافذة فأنت تسمع صوت الصحون؛ الهمهمات كذلك، ممن يتناولون عشاءهم؛ تُضاء القاعة، وتُفتح الأبواب على مصراعيها وتغلق بصوت مكتوم. جاء البعض متأخرًا.

تحتوي غرفة يعقوب على طاولة مستديرة وكرسيين منخفضين. وثمة أعلام صفراء في برطمان على رف المدفأة؛ صورة لأمه؛ بطاقات من جمعيات بأهلة صغيرة مرتفعة، وشعارات النبالة، والأحرف الأولى؛ مفكرات وغلiones؛ على الطاولة، وُضعت ورقة مخططة بهامش أحمر - لا بد أنه مقال - "هل يتألف التاريخ من سير العظماء؟" كان هناك ما يكفي من

(1) cow-parsley

الكتب؛ عدد قليل جداً بالفرنسية؛ ولكن من ناحية أخرى فأني إنسان يعطى أهمية لشيء ما يقرأ ما يستهويه فقط، حسبما يأخذه مزاجه، بحماس أحرق. سير الدوق ولنجتون، مثلاً؛ إسبينوزا؛ أعمال ديكنز؛ ملكة الجنيات؛ قاموس يوناني ببتلات الخشخاش مضغوطة إلى حرير بين الصفحات؛ جميع الشعراء الإليزابيثيين. كان خفه رثاً بشكل لا يصدق، مثل القوارب المحترقة على حافة الماء.

هناك أيضاً صورٌ فوتوغرافية من الإغريقين، ونقش من السير جوشوا - كلها كانت إنجليزية. كتب جين أوستن، أيضاً، مراعاة، ربما، لمعايير بعض الأشخاص. أعمال كارليل التي نالها كجائزة. كان هناك كتب عن الرسامين الإيطاليين في عصر النهضة، ودليل عن أمراض الخيل، وكل الكتب الدراسية المعتادة. فاطر هو الهواء في غرفة خاوية، ينفخ الستارة فحسب؛ يحرك الزهور في الزهرية. يصدر صريراً في إحدى جدائل الكرسي الخيزران، على الرغم من أن لا أحد يجلس عليه.

هبط الرجل العجوز الدرج متخذاً جنباً [كان يعقوب يجلس على حافة النافذة يتحدث إلى دورانت؛ ويدخن، ودورانت ينظر إلى الخريطة]، يدين معقودتين خلف ظهره، وثوبه يهفهف أسود، تمايل جوار الحائط على نحو غير مستقر؛ بعدها، دخل غرفته في الطابق العلوي. ثم شخص آخر، رفع يده وأثنى على الأعمدة والبوابة والسماء؛ آخر، تعثر وتذمر. صعد كل واحد منهم السلم؛ فأضيئت ثلاثة مصابيح في النوافذ المعتمدة.

إذا ما أضيء مصباح فوق كامبريدج، فلا بد أنه من هذه الغرف الثلاث؛ اليونان تضيء هنا؛ العلم هناك؛ الفلسفة في الطابق الأرضي. لم يعد العجوز المسكين هو كستابل يستطيع المشي على نحو معتدل؛ سوبوذ، أيضًا، ظل يمتدح السماء كل ليلة على مدار هذه السنوات العشرين؛ وما زال كوان يضحك مع نفسه على القصص ذاتها. إنه ليس بسيطًا، أو صافيًا، أو ساطعًا تمامًا، مصباح المعرفة. لأننا لو نظرنا إليهم هناك تحت ضوءه (سواء أكانت أعمال روسيتي على الحائط، أو لوحة مستنسخة لفان جوخ، سواء أكان هناك في الزهرية زهور ليلك أو غلايين صدئة)، فكم يبدوون كقساوسة! كم يشبهون ضاحية تذهب إليها لرؤية منظر طبيعي وتناول كعكة فاخرة! "نحن الوحيدون المتعهدون بتقديم هذه الكعكة." فتعاود أدراجك إلى لندن؛ لأن العرض قد انتهى.

بعد أن قام البروفيسور هو كستابل العجوز بتغيير ملابسه، مع الالتزام بمواعيده على مدار الساعة، ترك نفسه يغوص في كرسيه؛ حشا غليونيه؛ انتقى جريدته؛ وضع قدمًا على قدم؛ وأخرج نظارته. فترهل لحم وجهه كله في طيات كما لو أن دعاماته قد أزيلت. مع ذلك اقتلع رؤوس مقاعد مقصورة بأكملها في مترو ورأس هو كستابل العجوز هذه ستحويها كلها. الآن، بينما تقع عيناه على الأحرف المطبوعة، أي موكب يجول عبر دهايز رأسه، منتظمًا، سريع الخطو، ومحصنًا، بينما تتقدم المسيرة، عبر أنفاق جديدة، حتى تزدحم القاعة أو القبة، أيًا ما تسميها، بالأفكار. مثل هذا الحشد

لا يحدث في دماغ شخص آخر. ومع ذلك سيحدث أحياناً أن يجلس لساعات، قابضاً على ذراع الكرسي، كما رجل يتشبث من الغرق، لمجرد أن ثولولاً في أخمص قدمه يوخزه، أو قد يكون النقرس، فيا لها من لعنات، ويا إلهي، لو سمعته يتحدث عن النقود، وهو يخرج محفظته الجلد مقترناً حتى بأصغر عملة فضية، متحفظاً وموسوساً كامرأة ريفية بكل أكاذيبها. شلل غريب وتشنج - ألمعية مدهشة. صفاء فوق كل هذا يسرى في الجبهة الواسعة المليئة بالأفكار، وفي بعض الأحيان يمكنك أن تتخيله نائماً أو في الأماكن الهادئة في الليل يستلقي على وسادة من حجر منتشياً بالنصر.

سوبوذ في تلك الساعة بالذات، وهو يتقدم بخطوات فضولية غريبة من المدفأة، قام بتقطيع كعكة الشوكولاتة إلى شرائح. حتى منتصف الليل أو بعد ذلك، تجد طالباً في غرفته، أحياناً يصل عددهم إلى اثني عشر طالباً، وأحياناً ثلاثة أو أربعة؛ لكن لا أحد ينهض حين يذهبون أو حين يحيئون؛ لأن سوبوذ دائماً ما يكون منشغلاً بالكلام. كلام، كلام، كلام - كما لو كان يمكن التحدث عن كل شيء - الروح ذاتها تنزلق عبر شفثيه على شكل أقراص رقيقة من الفضة تذوب في عقول الشباب مثل الفضة، مثل ضوء القمر. أوه، بعد زمن طويل سوف يتذكرونها، ويستغرقون في نظرة بليدة، سرعان ما يفيقون منها مجدداً.

"عجباً، أنا أبداً. إنه تشاكي العجوز. صديقي العزيز، كيف يتصرف حيالك العالم؟" وبمجيء تشاكي المسكين، القروي الفاشل، اسمه الحقيقي

ستينهاوس، والذي أنعش لقبه في فم سوبوذ كل شيء، كل شيء، "كل ما لن أستطيع أن أكنه" - نعم، على الرغم من أنه في اليوم التالي، وهو يشتري جرناله ويلحق أول قطار، بداله كل شيء صبيانياً وسخيفاً؛ كعكة الشوكولاته، والشباب؛ تقييم سوبوذ للأشياء؛ لا، ليس كل شيء؛ فيلسوف يرسل ابنه هناك. سيوفر كل قرش لإرسال ابنه إلى هناك.

استرسل سوبوذ في الكلام؛ جدل من حديثه الأخرق أليافاً شائكة - أشياء يتفوه بها الشباب دون روية - ضفرها حول إكليله على نحو سلس، صانعاً جانباً مشرقاً من العرض، خضرة مفعمة بالحياة، أشواكاً حادة، رجولة. كان يروقه ذلك. في الواقع، بالنسبة إلى سوبوذ، بوسع الرجل التفوه بأي شيء، ربما إلى أن يتقدم في السن، أو يغرق عميقاً، حيث يصبح رنين الأقراص الفضية أجوف، ويذكر النقش ملخصاً سطحياً جداً، وتبدو الصورة القديمة واضحة إلى حد كبير، والشكل المحفور هو نفسه دائماً - رأس صبي يوناني. غير أن هذا الاحترام سيلازمه. فقط امرأة، تقديس الكاهن، ستشعر، لا إرادياً، بالازدراء.

كوان، إيراسموس كوان، كان يشرب نبيذه وحده، أو مع أحد الشباب متوردي الوجه قليلاً، تحتفظ ذاكرته بدقة بالفترة الزمنية نفسها؛ كان يجرع كأسه، ويروي قصصه، وبدون كتاب أمامه يترنم بأشعار فيرجيل وكتولوس باللاتينية، كما لو أن اللغة خمرٌ على شفثيه. لكن - في بعض الأحيان قد يطرأ على ذهن واحد منهم - ماذا لو قطع الشاعر كل تلك الفراسخ ودخل

علينا؟" أهذه صورتي؟" قد يتساءل مشيرًا إلى الرجل اللحيم؛ الذي يمثل رأسه، بعد كل شيء، فيرجيل بيننا، رغم مظهره الشره، أما عن الأسلحة أو النحل أو حتى المحراث، فإن كوان يمضي رحلاته خارج البلاد مع رواية فرنسية في جيبه، ودثار حول ركبته، ويمتن كثيرًا لعودته إلى بيته في بلده، حاملاً معه في مرآته الصَّغيرة الأنيقة صورة لفيرجيل، وحوها تتألق قصصٌ رائعة عن أساتذة ترينيتي وإشاعات النيذ الحمراء. لكن اللغة خمرٌ على شفتيه. لن يُسمع فيرجيل في أي مكان آخر بنفس الطريقة. على الرغم من أن الأنسة العجوز أمبليبي، وهي تمشي الهويني على طريق الباكس⁽¹⁾، تترنم بكلماته بإيقاع جميل، بدقة أيضًا، غير أن هذا السؤال يباغتها حين تصل إلى جسر كليز: "لكن إذا ما التقيته، فماذا عليّ أن أردي؟" - وبعد ذلك، أثناء سيرها في الطريق المؤدي إلى نيونهام، تترك لخيالها التلاعب بتفاصيل أخرى عن مقابلة الرجال مع النساء والتي لم ترد في كتاب قط. محاضراتها، لذلك، لا تحظى بحضور تام مثل محاضرات كوان، والشيء الذي قد تقوله في تفسير النص يُهمَل إلى الأبد. باختصار، ضع معلمًا في مواجهة متعلم وتشظى المرأة. لكن كوان ارتشف نبيذه، وقد انتهى من مبالغته، لم يعد مُمَثِّلًا لفيرجيل. بل بالأحرى، المؤسس، المقيّم، الخبير؛ يسطر خطوطًا بين الأسماء، يعلق كشوفًا فوق الأبواب. هكذا يكون النسيج الذي لا بد للضوء أن يشع من خلاله، إذا ما كان قادرًا على النفاذ - ضوء كل

(1) الباكس هي منطقة خلافة إلى الشرق من طريق الملكة في مدينة كامبريدج بإنجلترا، حيث يحاذي نهر كام العديد من كليات جامعة كامبريدج.

هذه اللغات، الصينية والروسية والفارسية والعربية، برموزها وأشكالها، بتاريخها، بالأشياء التي عُرِفَت والأشياء التي على شفا أن تُعرف. لذلك إذا ما رأى المرء في الليل، بعيداً في عرض البحر فوق الأمواج المنحسرة، ضباباً على المياه، مدينة مضاءة، التماعاً حتى في السماء، مثل ذلك الكائن الآن فوق قاعة ترينيتي حيث لا يزالون يتناولون عشاءهم، أو يغسلون الصحون، فإن ذلك الضوء المشع هناك - هو ضوء كامبريدج.

"دعنا نذهب إلى غرفة سيمون"، قال يعقوب، ولفوا الخريطة، بعد أن رتبوا كل شيء.

كانت الأضواء كلها تخرج حول الملعب، وتسقط على الحجارة والحصي، تاركة مناطق داكنة من العشب وزهور الربيع الوحيدة. عاد الشبان الآن إلى غرفهم. السماء تعرف ماذا كانوا يفعلون. ما الذي يمكنه أن يُنْقِط هكذا؟ وهو يتكئ على أضيض النافذة المزبد بشيء ما، شخص أوقف آخر يمر في عجلة، صعداً معاً ونزلاً، حتى استقر نوع من الامتلاء على الملعب، عاد النحل إلى خليته مشبعاً بالذهب، نعلان، طنائاً، صدحت فجأة؛ سوناتا ضوء القمر فجاءت بها رقصة الفالس.

ابتعد صوت سوناتا ضوء القمر. انهار الفالس. على الرغم من أن الشباب ما زالوا يدخلون ويخرجون، يسرون كما لو كانوا ملتزمين بارتباطات. بين الحين والآخر كان هناك صوت مكتوم، كما لو أن قطعة أثاث ثقيلة سقطت، بشكل غير متوقع، من تلقاء نفسها، وليس من حركة الجموع بعد العشاء.

يفترض المرء أن الشبان رفعوا أعينهم عن كتبهم عند سقوط قطعة الأثاث. هل كانوا يقرؤون؟ بالتأكيد كان هناك نوع من التركيز في الهواء.

خلف الجدران الرمادية جلس الكثير من الشباب، لا شك أن بعضهم كان يقرأ، مجلات، كتب إثارة بشلن، وربما بلا شك. كانوا يمددون سيقانهم على مساند الكراسي؛ يدخنون؛ يسترخون على الطاولات، يكتبون بينما تدور رؤوسهم في دائرة حينما يتحرك القلم - شباب بسطاء، هؤلاء، هم الذين سيصبحون - لكن لا داعي للتفكير فيهم حين يتقدمون في السن؛ بعضهم كان يتناول حلوى؛ جلسوا هنا محبوسين؛ و، إذن، لا بد أن السيد هو كينز طاش عقله فجأة حتى يفتح نافذته ويصيح بصوت مرتفع: "يو-سف! يو-سف!" ثم يركض بأقصى طاقته عبر الملعب، بينما كان رجل مسن، في مئزر أخضر، يحمل كومة هائلة من أغذية اللعب، يتذبذب، يتوازن، ثم يواصل سيره. ولكن هذا كان تسلية. كان هناك الشباب الذين يقرؤون، مضطجعين على كراسي مسطحة قليلاً، يحملون كتبهم كما لو أنهم يمسون بأيديهم ما سوف ينقذهم في الأوقات العصيبة؛ جميعهم في حالة من القلق، وافدون من مقاطعات المركز، أبناء قساوسة. آخرون يقرؤون كيتس. وتلك التواريخ الطويلة في عدة مجلدات - لا شك أن بعضهم شرع الآن من البداية ليستوعب تاريخ الإمبراطورية الرومانية المقدسة، كما يجب على المرء أن يفعل. كان ذلك جزءاً من التركيز، على الرغم من أنه قد يكون محفوفاً بالمخاطر في ليلة ربيعية حارة - محفوف بالمخاطر، ربما، أن تركز أكثر من اللازم على كتاب بعينه، فصول فعلية، في حين يفتح الباب في أي لحظة،

ينفتح ويظهر يعقوب؛ أو ريتشارد بونامي، فلا تستمر قراءة كيتس، وتشرع في صنع لفائف وردية طويلة من جريدة قديمة، محدودبًا إلى الأمام، ولا تعود متحمسًا ولا قانعًا، بل عنيفًا تقريبًا. ما السبب؟ ربما فقط لأن كيتس مات صغيرًا - يود المرء أن يكتب الشعر أيضًا وأن يحب - أوه، المتوحشون! إنه أمر غاية في الصعوبة. ولكن، بعد كل هذا، ليس صعبًا تمامًا إذا كان على السلم المجاور، في الغرفة الكبيرة، هناك اثنان أو ثلاثة أو خمسة شبان مقتنعون تمامًا بهذا، بتلك الوحشية، والفرق الواضح بين الخير والشر. كانت هناك أريكة، كراسي، طاولة مربعة، ومن خلال النافذة المفتوحة، يمكنك أن ترى كيف يجلسون - هنا سيقان ممددة، هناك أحدهم متكوم في زاوية الأريكة؛ ومن المفترض، حيث لا يمكنك رؤيته، ثمة شخص يقف إلى جانب سياج المدفأة، يتحدث. على كل حال، يعقوب، الذي كان يجلس منفرج الساقين على كرسيه ويتناول التمر من صندوق مستطيل، انفجر في الضحك. انطلق الرد من زاوية الأريكة؛ غليونه الذي كان عالقًا في الهواء، تبدل مكانه. لأن يعقوب استدار فجأة. كان لديه ما يقوله عن ذلك، على الرغم من أن الصبي القوي ذا الشعر الأحمر عند الطاولة بدا أنه لا يقر به، وهو يهز رأسه ببطء من جانب إلى آخر؛ وبعد ذلك، أخرج مديته، حفر سننها مرارًا وتكرارًا في عقدة في الطاولة، كما لو كان يؤكد أن الصوت من سياج المدفأة ينطق بالحقيقة - وهو ما لم يستطع يعقوب إنكاره. ربما، بعد أن قام بترتيب نوى التمر، وجد شيئًا يقوله عنه - انفرجت شفتاه بالفعل - فدوت وقتنذ قهقهات. تلاشت الضحكات في الهواء. يكاد صوتها

بصعوبة أن يصل إلى شخص ما يقف جوار الكنيسة، التي استطالت على الجانب المقابل للملعب. لقد خمدت الضحكات، ولم يعد بالإمكان رؤية سوى تلويحات الأيدي وحركات الأجسام وهي تشكل شيئاً ما في الغرفة. أكان هذا نقاشاً؟ رهاناً على سباق القوارب؟ ألم يكن شيئاً من هذا القبيل؟ ما الذي شكلته الأذرع والأجسام المتحركة في شفق الغرفة؟

عدا خطوة أو خطوتين خارج النافذة لم يكن هناك شيء على الإطلاق، باستثناء المباني المحيطة - المداخل المنتصبة، والسقوف المسطحة؛ والكثير من الآجر ومبنى من أجل ليلة مايو، ربما. ثم قبل أن تصل عينا المرء إلى تلال تركيا العارية - ثمة حدود حادة فاصلة وأرض جافة وأزهار ملونة وأصباغ على أكتاف نساء يقفن عاريات - يضربن الكتان بسيقانهم في الجدول على الأحجار. والتيار يصنع دوائر من المياه حول كواحلهم. لكن لا شيء من هذا يمكن أن يظهر بوضوح من خلال دثارات وبطانيات ليل كامبريدج. حتى دقائق الساعة بدت مكتومة؛ كما لو أن شخصاً مبجلاً يترنم بها من منبر الوعظ؛ كما لو أن أجيالاً ممن تعلموا سمعوا الساعة الأخيرة تتدحرج عبر صفوفهم وتناقلوها، بالفعل مناسبة وعتيقة، مع مباركتهم، حتى ينتفع بها الأحياء.

هل من أجل الحصول على هذه العطية من الماضي ذهب الشاب إلى النافذة ووقف هناك، يتطلع نحو الملعب؟ لقد كان يعقوب واقفاً يدخن غليونه بينما تنساب دقائق الساعة الفائتة حوله برشاقة. ربما نقاش ما انتهى.

كانت تبدو عليه أمارات الرضا؛ الحذق بالفعل؛ ذلك التعبير الذي تبدل بعض الشيء أثناء وقوفه هناك، وصوت الساعة ينقل إليه (ربما) إحساسًا بالأبنية القديمة ومرور الزمن؛ وشخصه الوريث. ثم، الغد؛ والأصدقاء؛ وأفكارهم، بثقة مطلقة وحبور، يبدو أنه تثائب وتمطع.

في الوقت نفسه الذي صنعوا هذا الشكل خلفه، سواء أكان نقاشًا أم لا، الشكل الشبهي، الذي وإن لم يكن من المتعذر زواله سريعًا، كما يحدث للزجاج عند مقارنته بأحجار الكنيسة الداكنة، قد تحطم إلى شظايا، حين نهض الشباب من المقاعد وأركان الأريكة. يصخبون ويتخبطون حول الغرفة، أحدهم دفع الآخر تجاه الباب، ما أفسح مجالًا، لطحهم أرضًا. ثم بقي يعقوب هناك، على كرسيه المسطح قليلًا، وحده مع ماشام؟ أندرسون؟ شمعون؟ أوه، لقد كان شمعون. كان الآخرون رحلوا جميعًا.

"... جوليان الملحد..." من منهم قال ذلك وبقية الكلمات التي غمغت حولها؟ لكن قرب منتصف الليل، تثور أحيانًا، مثل كائن ملثم ينهض فجأة، ريح عاتية؛ وأحيانًا يسرى خفقان عبر ترينيتي يُطير أوراق شجر غير مرئي ويضرب كل شيء. "جوليان الملحد" - ثم تهب الرياح. عاليًا يرتفع غصن شجرة الدردار، بعيدًا تنتفج الأشعة، وتنب المراكب الشراعية القديمة وتغوص في الماء، الأمواج الرمادية في المحيط الهندي الحار ترتفع بقوة، ثم تنطرح جميعها مرة أخرى.

لذلك، إذا ما تحركت الليدي المقنعة عبر ملاعب ترينيتي، فهي الآن

غفت مرة أخرى، وحوّلها درايبات من جميع الجهات، ورأسها تستند على العمود.

"على أية حال يبدو الأمر مهمًا."

كان الصوت الخافت لشمعون.

أجابه صوت أكثر خفوتًا. بددت كلماتها نقرات الغليون الحادة على رف المدفأة. وربما قال يعقوب "إمم" فحسب، أو أنه لم يقل شيئًا على الإطلاق. صحيح، أن الكلمات كانت غير مسموعة. حميمة، نوع من الانسجام الروحي، حين يطبع الذهن على الذهن بشكل لا يُمحى. قال يعقوب وهو ينهض ويقف فوق كرسي شمعون: "تمام، يبدو أنك درست الموضوع". حاول أن يوازن نفسه؛ تأرجح قليلًا. لقد بدا مغتبطًا جدًا، كما لو أن سعادته ستطفح وتنسكب على الجانبيين لو نطق شمعون. لم يقل شمعون شيئًا. ظل يعقوب واقفًا. لكن الحميمية - التي سادت الغرفة، ما زالت، عميقة، مثل حوض سباحة. ودون حاجة إلى حركة أو كلام ارتفعت بهدوء وتدفقت على كل شيء، ملطفة، محمسة، مرصعة العقل ببريق اللآلئ؛ لذلك إذا كنت تتحدث عن ضوء، عن توهج كامبريدج، فإنها ليس اللغات فحسب. بل جوليان الملحد.

لكن يعقوب تحرك. غمغم ليلة سعيدة. خرج إلى الملعب. زرر سترته على صدره. عاد إلى غرفته، ولأنه الوحيد الذي كان يسير في تلك اللحظة عائداً إلى غرفته، رنت خطواته، راسمة هيئة ضخمة. وهو يعود من الكنيسة،

يعود من القاعة، يعود من المكتبة، تعالى صوت خطوه، وكأن الحجارة العتيقة
تردد الصدى بتفخيم مبالغ: "ها هو الشاب - ها هو الشاب - ها هو الشاب
- يعود إلى غرفته."

الفصل الرابع

ما جدوى محاولة قراءة شكسبير، سيما في واحدة من تلك الطبعات الصغيرة رقيقة الورق التي تتكرمش صفحاتها، أو تلتصق ببعضها مع مياه البحر؟ فعلى الرغم من أن مسرحيات شكسبير كثيراً ما أُشيد بها، بل وتم اقتباسها ووضعها على قمة المسرح اليوناني، فلم يتمكن يعقوب من إنهاء واحدة مذ شرع في قراءة أعماله. ولكن يا لها من فرصة!

أما جزر سيللي⁽¹⁾ فقد تراءت لتمي دورانت في المكان المتوقع تماماً، ممتدة كقمم جبلية تكاد تغمرها المياه. نجحت حساباته إذن، ومنظره وهو يجلس هناك، يده على الدفة، متورد الخدين، بلحية نابته، ينظر إلى النجوم بصرامة، ثم إلى بوصلة، يتهجى على نحو دقيق صفحته من كتاب الدرس السرمدي، كان بالفعل ليثير امرأة. ولكن يعقوب بالطبع، ليس امرأة. المنظر الذي يبدو عليه تيمي دورانت لم يكن مرئياً له، لا شيء لوضعه في مقابلة السماء وعبادته؛ الأمر بعيد عن ذلك. لقد تشاجرا للتو. كيف

(1) تقع جزر سيللي Isles of Scilly في المحيط الأطلسي على بعد 40 كم من بريطانيا. وتكون من 150 جزيرة.

يمكن لأفضل طريقة في فتح علبة بيف، مع كتاب لشكسبير على متن القارب، تحت ظروف بتلك الروعة، أن تتسبب في تحويلهما إلى طالبين متجهمين، لا شيء يُقال. صحيح أن البيف المقلب يؤكل باردًا؛ وأن المياه المالحة تتلف البسكويت؛ وأن الأمواج تهرول مضطربة وتثب أكثر ساعة بعد ساعة - تهرول باضطراب وتثب عاليًا في جميع الأنحاء. أحيانًا كانت تطفو كتلة من الطحالب - أحيانًا قطعة من خشب. السفن التي غرقت هنا. باخرة أو اثنتان مرتا بهما، وتابعتا طريقهما. كان تيمي يعرف أين تتجه كل واحدة، ماذا تحمل، وب نظرة في منظاره، تمكن من معرفة اسم الشركة التي تنتمي إليها، وحتى تخمين أرباح المساهمين. وإن لم يكن هذا مبررًا ليعقوب كي يتجههم.

تشبه جزر سيلبي قمم جبال يكاد أن يغمرها الماء... لسوء الحظ، كان يعقوب قد كسر إبرة الوابور.

بوسع دفقة متتابعة من الأمواج أن تطمس جزر سيلبي تمامًا عن الأنظار. ولكن على المرء أن يتمتع بفضيلة الاعتراف بأن الشاين، على الرغم من أن وجبة الإفطار التي تناولاها في ظل هذه الأجواء لا تدعو إلى التفاؤل، فإنها تفتقر إلى النفاق. لا حاجة لتبادل الحديث. ها هما قد أخرجنا غليونهما.

كتب تيمي بعض الملاحظات العلمية؛ و- ما السؤال الذي كسر الصمت - أكان عن الوقت الآن أم عن تاريخ اليوم؟ على أية حال، جرى الحديث

بينهما دون أدنى مشقة؛ بأكثر الطرق عملية في العالم؛ ثم بدأ يعقوب في فك أزراره وجلس عاريًا، عدا قميصه، كان على ما يبدو ينوي الاستحمام.

استحالت جزر سيلبي إلى لون ضارب إلى الزرقة؛ واكتسى البحر فجأة باللون الأزرق والأرجواني والأخضر؛ وخلف الجزر رمادية؛ التمعت رقعة بسرعة وخبث؛ ولكن عندما وضع يعقوب قميصه فوق رأسه، تلون سطح الأمواج كله بالأزرق والأبيض، متموجًا ومتغضنًا، رغم ظهور بقعة أرجوانية واسعة بين الحين والآخر، مثل كدمة؛ أو أحيانًا يكتسي بأكمله بالزمرد المشوب بالذهبي. غطس. ابتلع الماء، بصقه، ضرب بذراعه اليمنى، ضرب بقدمه اليسرى، سُحب بحبل، لهث، بخ رذاذ الماء وتم جذبه إلى متن القارب.

كان المقعد في القارب ساخنًا قطعًا، والشمس تُدفع ظهره فيما يجلس عاريًا بمنشفة في يده، متطلعًا إلى جزر سيلبي التي - اللعنة! اهتزَّ الشراع. تحبط شكسير على ظهر القارب. بوسعك أن تراه هناك طافيًا بعيدًا بمرح، بكل صفحاته التي راحت تتقلب بسرعة دونما ترتيب؛ قبل أن يغوص في الماء.

عجيبٌ حقًا أن تشم رائحة زهور البنفسج، أو إذا ما استحال نمو البنفسج في شهر يوليو، فلا بد أنهم يزرعون شيئًا حريفًا للغاية على البر. ساد البر، الذي لم يكن بعيدًا جدًّا - إذ يمكنك رؤية الشقوق في المنحدرات، والأكواخ البيضاء، والدخان المتصاعد - لمحة استثنائية من الهدوء، من السلام المشمس،

وكان الحكمة والسكينة تنتزلان على المقيمين هناك. الآن ترددت صيحة، كأنها من رجل ينادي على سمك الرنجة في شارع رئيسي. ساد الجو لمحة استثنائية من السكينة والسلام، كما لو أن كبار السن يدخلون عند الباب، والفتيات يقفن وأيديهن على أفخاذهن عند البئر، والخيول منتصبه؛ وكأن نهاية العالم أزفت، وأن حقول الكرنب وحجارة الجدران، ومحطات خفر السواحل، و، فوق هذا كله، رمال الخليجان البيضاء بأعماق تتكسر حيث لا يراها أحد، تصاعد إلى السماء في نوع من النشوة.

لكن الدخان الخارج من الأكواخ راح يتلوى بشكل غير محسوس، متخذًا شكل شعار الحداد، وثمة علم ينشر رفرقاته على قبر. والنوارس، في تحليقاتها الواسعة ثم في عودتها بسلام، تبدو كما لو كانت تحدد مكان القبر بدقة.

لا شك إن كانت هذه هي إيطاليا، أو اليونان، أو حتى شواطئ إسبانيا، فإن الحزن سيتبدد جراء الإحساس بالجدّة والإثارة والذهن النشط بالتعليم الكلاسيكي. لكن التلال الكورنية بها مداخن صلبة تنتصب فوقها. وأيًا ما كان السبب، فالجمال يبدو مثيرًا للحزن المفجع. حقًا، تستدعي المداخن ومحطات خفر السواحل والخليجان الصّغيرة مع انحسار الأمواج التي لا يراها أحد لدى المرء حزنًا طاغيًا. ومما يتولد هذا الشعور بالحزن؟

إنه يتخلق من الأرض نفسها. يخرج من البيوت على الساحل. نبدأ شفافين، ثم تثقل الغيمة. التاريخ بأكمله يحتل خلفية اللوح الزجاجي

الذي ننظر من خلاله. والهروب نوع من العبث.

ولكن إن كان هذا هو التفسير الحقيقي لكآبة يعقوب الجالس عارياً، في الشمس، ينظر إلى الـ"لاندرز إنند"⁽¹⁾، فمن المتعذر قوله؛ إذ لم يتفوه بكلمة واحدة. وكان تيمي يتساءل في بعض الأحيان (فقط لثانية واحدة) عما إذا كان أهله يضايقونه.... لا يهم. هناك أشياء لا يمكن قولها. فلتخلص منها. ونجفف أنفسنا، ونمسك بأول شيء تطاله يدنا... كراسة تيمي دورانت للملاحظات العلمية.

"في هذه الحالة..." قال يعقوب.

بدأ نقاش رهيب.

يستطيع بعض الناس متابعة طريقهم خطوة بخطوة، بل وأن يضيفوا خطوة صغيرة، طولها ست بوصات، بأنفسهم في النهاية؛ والبعض يكتفي فقط بتتبع اللافتات الإرشادية.

تثبت العينان على عصا النار. اليد اليمنى تمسك بالعصا وترفعها؛ تقلبها ببطء، ثم بدقة شديدة، تعيدها إلى مكانها. اليد اليسرى، المستريحة على الركبة، تعزف بوقار موسيقى عسكرية ولكن بشكل متقطع. نفس عميق يؤخذ؛ ولكنه يُترك ليتبخر دون فائدة. القطة تسير على سجادة الموقد. لا أحد ينتبه إليها.

(1) لاندرز إنند هو لسان صخري من اليابسة يقع غربي كورنوال في إنجلترا، وهو بذلك أقصى نقطة غربي إنجلترا. يتميز لاندرز إنند بطبيعته الصخرية.

"يكاد يقترب ذلك تمامًا لما توصلتُ إليه" ختم دورانت كلامه. الدقيقة التالية كانت هادئة مثل القبر.

"بل يترتب عليه..." قال يعقوب.

نصف جملة فحسب أعقبت ذلك؛ لكن أنصاف الجمل تلك تشبه الرايات المرفوعة على أسطح البنايات لشخص يراقب المشاهد من أسفل. ماذا كان ساحل كورنوال، بعقب زهور بنفسجه، وشعارات حداده، وخشوعه المطمئن، غير شاشة تُعرض خلفه مباشرةً بينما تتوارد عليها أفكاره؟

"إنه يترتب عليه..." قال يعقوب.

"نعم"، قال تيمي، بعد تفكير. "أنت على حق".

الآن بدأ يعقوب ينغمس حوله، من جانب ليحرك نفسه، ومن جانب كنوع من الغبطة، بلا شك، لأن أغرب صوت نَدَّ عن شفتيه وهو يلف الشارع، ويدعك الأطباق، -فظ، غير متناغم- نوع من أصوات الأيل، لأنه استحوذ على النقاش، لكونه سيد الموقف، لفحته الشمس، غير حليق، بوسعه فوق ذلك الإبحار حول العالم في نخت يزن عشرة أطنان، والذي، على الأرجح سيفعله في يوم من هذه الأيام بدلًا من أن يقبع متجمدًا في مكتب أحد المحامين، ينتعل أغطية كاحل القدم.

"صديقنا ماشام"، قال تيمي دورانت، يفضل ألا يُرى في صحبتنا كما حالنا الآن. "انفكت أزرار قميصه.

"هل تعرف عمّة ماشام؟"، قال يعقوب.

"لم أعرف أبدًا أن له عمّة"، قال تيمي.

"ماشام له ملايين العمات"، قال يعقوب.

"ورد ماشام في كتاب دوميزدي⁽¹⁾"، قال تيمي.

"كذلك عماته"، قال يعقوب.

"أخته فتاة جميلة جدًّا"، قال تيمي.

"ذلك ما سيحل بك يا تيمي"، قال يعقوب.

"سوف يحل بك قبلي"، قال تيمي.

"لكن هذه المرأة سبق أن حدثتك عنها، عمّة ماشام"

قال تيمي: "أوه، أكمل أرجوك"، فقد تمادى يعقوب في الضحك ولم يقدر على النطق.

"عمّة ماشام..."

ضحك تيمي إلى حد أنه لم يستطع الكلام.

"عمّة ماشام..."

(1) كتاب ونشستر (Winchester) والمعروف أيضًا بكتاب دوميزدي (Domesday) ومعناها كتاب يوم الحساب هو عبارة عن كتاب فيه أول مسح جغرافي للمدن والبلدات في إنجلترا.

"ما الذي يُضحك عن ماشام؟" قال تيمي.

"دعك من كل هذا - رجل يبدو كأنه يتلع دبوس ربطة عنقه"، قال يعقوب.

"سيصبح السيد المستشار قبل أن يبلغ الخمسين"، قال تيمي.

"إنه رجل مذهب"، قال يعقوب.

"كان دوق ولينغتون رجلاً مذهباً، قال تيمي.

"كيتس لم يكن رجلاً مذهباً".

"اللورد سالزبوري كان مذهباً".

"وماذا عن الله؟" قال يعقوب.

بدت جزر سيللي الآن وكأنها تشير بإصبع ذهبي منبثق من سحابة؛ والجميع يعرف كم هو رائع هذا المشهد، وكيف لهذه الأشعة الرحبة، سواء كانت تلقي بضوئها على جزر سيللي أو على مقابر الصليبيين في الكاتدرائيات، أن تزعزع دائماً الشكوك حول أسسها وتُفضي إلى إطلاق نكات عن الله.

"ابقَ معي، سرعان ما يحل المساء، وتعمق الظلال؛ يا إلهي، ابقَ معي"، غنى تيمي دورانت.

في قريتي اعتدنا على نشيد يبدأ بـ:

"إلهي العظيم، ماذا أرى حقاً وأسمع؟" قال يعقوب.

حلقت النوارس برشاقة في مجموعات صغيرة من نورسين أو ثلاثة بالقرب من القارب؛ طائر الغاق⁽¹⁾، كما لو كان يلاحق رقبتة الطويلة المتوترة في مطاردة أبدية، مر بخفة على ارتفاع بوصة واحدة فوق الماء إلى الصخرة المجاورة؛ وتناهدت دندنة المد والجزر في الكهوف، منخفضة، رتيبة، مثل صوت شخص يناجي نفسه.

"يا صخرة الدهر، انشقي لأجلي، دعيني فيك أخبئ نفسي"

غنى يعقوب.

"شقت الصخرة السطح، كما سن لوحش محرز؛ لونها بني؛ تفيض بشلالات لا تتوقف، صخرة الدهر"

غنى يعقوب، ممدداً على ظهره، وهو ينظر إلى سماء منتصف النهار، التي انسحبت منها كل مزقة من الغيوم، فبدت مثل شيء مكشوف إلى الأبد دونها حجاب.

بحلول السادسة هبت نسمة من بعض الكتل الجليدية. بحلول السابعة استحال لون المياه أرجوانياً أكثر منه أزرق. وبحلول السابعة والنصف، أحاطت غلالة صلبة من الذهب بجزر سيللي، وتحول وجه دورانت، بينما يجلس يدير الدفة، إلى لون علبة دهان أحمر مجلوة منذ أجيال. بحلول التاسعة، اختفى اللهب والفوضى من السماء، تاركاً شرائح التفاح الأخضر والأطباق

(1) الغاق هو جنس من الطيور يتبع فصيلة الغاقيات من رتبة البجعيات.

باللون الأصفر الشاحب؛ وبحلول العاشرة، كانت المصاييح على القارب تصنع ألوانًا ملتوية على الأمواج، تتمدد أو تتقلص، بانتشار الأمواج أو بتحدبها إلى أعلى. مرق شعاع من أضواء المنارة عابرًا المياه. تبعثرت ملايين من النجوم على بعد أميال لا تعد ولا تحصى. غير أن الأمواج كانت ترتطم بالقارب، وتتكسر على الصخور، بانتظام ومهابة.

بالرغم من أنك تستطيع الطرق على باب أحد الأكواخ لتطلب كوبًا من الحليب، فالعطش وحده هو ما يضطرك إلى التطفل. ومع ذلك ربما ترحب مدام باسكو بهذا. ربما يكون نهار الصيف ثقيلاً. وهي تغسل الأطباق في مطبخها، قد يتناهى إلى سمعها تكتكات الساعة الرخيصة على رف المدفأة، تك، تك... تك، تك، تك. وهي بمفردها في المنزل. زوجها في الخارج يساعد فارمر هوسكين. ابنتها تزوجت وذهبت إلى أمريكا. ابنها الكبير تزوج أيضاً، لكنها لا تنسجم مع زوجته. جاء قس كنيسة وزليان واصطحب ابنها الصغير. وهي بمفردها في المنزل. مرت باخرة في الأفق، ربما كانت متجهة إلى كارديف، بينما بالقرب منها، يتأرجح جرس من قفاز الثعلب جيئةً وذهاباً بطنانة للسان الجرس. هذه الأكواخ الكورنية⁽¹⁾ البيضاء بنيت على حافة الجرف؛ ينمو في حدائقها نبات الجولق أسرع كثيرًا من الكرنب؛ وأما السّياج، فرجال من عصور قديمة قاموا بتكديس الصخور الجرانيتية. في واحدة منها، تم تجويف حوض لحفظ دماء الضحايا، حسب تخمينات

(1) نسبة إلى منطقة كورنوال في جنوب غرب جزيرة بريطانيا في إنجلترا.

أحد المؤرخين، ولكن في عصرنا الحالي فهو يستخدم بشكل أكثر اعتيادًا كمقعد لهؤلاء السياح الذين يرغبون في رؤية المنظر الكامل لغرنارزهيد⁽¹⁾. وليس معنى هذا أن أي شخص قد يعترض على ثوب أزرق ومئزر أبيض في حديقة كوخ.

"انظروا - إنها مضطرة لسحب ما تحتاجه من الماء من بئر في الحديقة."
"لا بد أنه موحش جدًا في الشتاء، مع الرياح التي تجتاح تلك التلال والأمواج المتلاطمة على الصخور."

حتى في أيام الصيف، فإن صوت خرير الأمواج يتناهى إليك.

بعد أن سحبت ما تحتاجه من الماء، دخلت السيدة باسكو كوخها. انتاب السياح الندم لأنهم لم يجلبوا معهم مناظير، لتمكنوا إذن من قراءة اسم الباخرة المارة. إنه يوم صحو حقًا حتى أنه لن يتعذر على المنظر أن يجعل أي كلمات سهلة القراءة. اثنان من مراكب الصيد ذات الشراع الرباعي، على الأرجح من خليج سانت آيفز، أبحرا الآن في اتجاه معاكس للباخرة، وطفق سطح البحر يشف ويعتم بالتناوب. أما بالنسبة للنحلة، فبعد أن ارتشفت جرعته كاملة من العسل، زارت نبات مشط الراعي، ثم عادت في خط مستقيم إلى مكان مدام باسكو، مرة أخرى توجهت نظرات السياح

(1) Gurnard's Head هي لسان بارز على الساحل الشمالي لشبه جزيرة بنويث في كورنوال، إنجلترا، المملكة المتحدة. من المفترض أن يعكس الاسم حقيقة أن شبه الجزيرة الصخرية تشبه رأس سمكة غرنار.

إلى ثوب المرأة العجوز المنقوش والمئزر الأبيض، إذ خرجت إلى باب الكوخ ووقفت هناك.

هناك وقفت، مظلة عينها تتطلع إلى البحر.

ربما كانت تلك المرة المليون التي تتطلع فيها إلى البحر. فردت فراشة الطاووس جناحيها على نبات مشط الراعي، يانعة ومنبثقة من شرنقتها للتو، كما يشهد اللون الأزرق والبنّي الفاتح أسفل جناحيها.

دخلت السيدة باسكو، وأحضرت مقلاة الكريمة، خرجت، ووقفت تجلوها. بالطبع لم يكن وجهها مائعاً أو حسيّاً أو مغوياً، ولكنه كان بالأحرى صارماً ومتبهاً ورزينا، يمثل لحم الحياة ودمها في غرفة مكتظة بأشخاص راقين. بالرغم من ذلك كان بوسعها الكذب، حالما تقول الحقيقة.

علقت خلفها على الحائط سمكة شفين⁽¹⁾ كبيرة مجففة. وفي ردهتها المغلقة بإحكام، جمعت هداياها من سجاد وأكواب صيني وصور فوتوغرافية، مع أن الغرفة الصّغيرة العظنة لم تنجُ من رذاذ الملح إلا بسبب ارتفاع القرميدة، ومن بين دانتلا الستائر ترى طائر الأطيّش⁽²⁾ يسقط مثل حجر، وفي الأيام

(1) هو نوع من سمك الراي اللاسع، له شوكة واحدة أو عدة أشواك ذيلية لاسعة وخطرة على الإنسان.

(2) من الطيور البحرية المتوسطة الحجم. وسميت "أطيّش" بناءً على الكلمة العاميّة الإسبانية بوبو (bobo)، التي تعني "غبّي" فهذه الطيور من عادتها أن تحط على متن السفن المبحرة، فيسهل الإمساك بها وأكلها.

العاصفة تأتي النوارس مرتجفة عبر الهواء، وأضواء البواخر تضرب عاليًا أحيانًا وفي الأعماق في أحيانٍ أخرى. الكآبة تتردد أصواتها في ليل الشتاء.

وصلت الصحف المصورة يوم الأحد في موعدها، فراحت تتأمل طويلاً حفل زفاف السيدة سينثيا في الدير. هي، أيضًا، كانت تود أن تركب عربة بزُنْبُرَكَات. كثيرًا ما كانت المفردات السلسلة الرشيقة لشخص متعلم تفضح مفرداتها الفجة بعض الشيء. وبعد ذلك طوال الليل أن تسمع تحطم أمواج الأطلنطي على الصخور بدلًا من الحناطير والخدم يصفرون للسيارات. لذلك ربما يكون قد روادها الحلم، وهي تدعك مقلاة الكريمة. لكن الأشخاص الفصحاء، سريعو البديهة، يعودون إلى المدن. لقد كانت مثل شخص بخيل، تدخر مشاعرها داخل صدرها. لم تنفق بنسًا واحدًا كل هذه السنوات، و، حين تنظر إليها بحسد، يبدو كما لو أن كل ما فيها لا بد أن يكون من الذهب الخالص.

المرأة العجوز الرزينة، بعد أن شخّصت إلى البحر، عادت مرة أخرى إلى منزلها. كان السياح قد قرروا أن الوقت حان للتوجه إلى غرنارز هيد.

بعد ثلاث ثوانٍ، طرقت مدام دورانت الباب.

"مدام باسكو؟" نادت.

بترفع نوعًا ما، كانت تتابع السياح وهم يعبرون طريق الميدان. فهي تنحدر من سلالة جبلية، معروفة بشيوخ عشائرها.

ظهرت مدام باسكو.

"أحسدك على هذه الشجيرة يا مدام باسكو"، قالت مدام دورانت، مشيرة إلى المظلة التي طرقت بها الباب عند الأشجار الجميلة لنبته القديس يوحنا⁽¹⁾ النامية جوارها. نظرت مدام باسكو إلى الأجمة باستنكار.

"أتوقع وصول ابني خلال يوم أو يومين"، قالت مدام دورانت. "قادمًا من فالماوث مع صديق في قارب صغير... ألا توجد أية أخبار عن ليزي حتى الآن يا مدام باسكو؟"

وقفت مهوور مدام دورانت بذيوها الطويلة تشد آذانها بقوة على الطريق على بعد عشرين ياردة. وكان الصبي كورنو يهش الذباب عنها بين الحين والآخر. رأى سيدته تدخل الكوخ؛ تخرج مجددًا؛ تتمشى، وهي تتحدث بنشاط كما وضح من حركات يديها، حول رقعة الخضر اوات أمام الكوخ. كانت السيدة باسكو خالته. كلا المرأتين تفحصتا الأجمة. انحنت مدام دورانت وقطفت منها غصين. ثم أشارت (حركاتها كانت حاسمة؛ شدت نفسها لتعتدل) إلى البطاطس. لقد أُصيبت بأفة. أُصيب محصول البطاطس كله في تلك السنة بأفة. أرت مدام دورانت لمدام باسكو مدى سوء الحالة التي آل إليها محصولها. كانت مدام دورانت تتحدث بحماس. ومدام باسكو

(1) عشبة طبية لها فعالية ضد الاكتئاب. ويأتي اسمها من اليوم التقليدي لإزهارها وحصادها في يوم القديس يوحنا المعمدان وتستخدم في درء الشر عن طريق تعليقها فوق رمز ديني في المنزل.

تستمع إليها بإذعان. سمع الصبي كورنو مدام دورانت تقول إن الحل بسيط جداً؛ تخلط المسحوق في جالون من الماء. "لقد خلطته بيدي في حديقتي"، قالت مدام دورانت.

"لا تتركي ولا واحدة من البطاطس - لا تتركي ولا واحدة"، قالت مدام دورانت بصوتها الحاسم وهما يصلان إلى البوابة. غدا الفتى كورنو غير قادر على الحركة مثل حجر.

أمسكت مدام دورانت باللجام واستقرت على مقعد القيادة.

"اعتني بهذه الساق، وإلا أرسل إليك الطبيب"، كررت مجدداً من فوق كتفها؛ ضربت بخفة على ظهور الخيل؛ وبدأت العربة في التحرك إلى الأمام. لم يُتَح للصبي كورنو وقت إلا للصعود متأرجحاً على طرف حذائه. نظر الصبي كورناو، وهو يجلس في منتصف المقعد الخلفي إلى خالته. ومامد باسكو واقفة عند البوابة تتابعهم بعينيها؛ ظلت واقفة عند الباب حتى استدارت العربة عند الناصية؛ وقفت عند الباب، تنظر حيناً إلى اليمين، وحيناً إلى اليسار؛ ثم دخلت كوخها.

سرعان ما اجتاحت الخيول طريق المستنقع المائج بقوائمها الأمامية. أرخت مدام دورانت الأعنة ببطء، وأسندت ظهرها. فارقها حماسها. كان أنفها المعقوف رفيعاً مثل عظمة بيضاء ينفذ من خلالها الضوء. يداها الممسكتان باللجام في حجرها. مشدودتان حتى في وضع الاسترخاء. الشفة

العليا المجزوزة إلى أعلى تكشف عن قواطعها الأمامية في نظرة ساخرة. جال ذهنها على مدى فراسخ بينما ظل عقل السيدة باسكو مقيداً برقعتها المنعزلة. مر عقلها على فراسخ بينما تصعد العربة الطريق الآخذ في الارتفاع. سافرت بعقلها إلى الأمام وإلى الوراء، كما لو كانت الأكواخ الخالية من الأسطح، وأكوام الخبث، وحدائق الأكواخ المكتظة بقفاز الثعلب والعليق تُلقِي بظلالها على أفكارها.

وصلت إلى القمة، أوقفت العربة. والتلال الشاحبة تطوقها من كل جانب، انثر كل تل منها بالحجارة القديمة؛ ومن أسفلها البحر، كان هائجاً مثل البحر الجنوبي؛ جلست هناك تنظر من فوق التل إلى البحر، تعتدل، تنحني، تتأرجح بالتساوي بين الكآبة والسخرية. فجأة ضربت المهور على ظهورها حتى اضطر الفتى كورنو إلى التعلق وهو يتأرجح صاعداً بطرف حذائه.

حطت الغربان؛ طارت الغربان. بدت الأشجار التي لامستها وفق مزاجها لا تكفي لتوطين أعدادها. صدحت قمم الأشجار بثررتها داخلها؛ صرّت الغصون بصوت مسموع وطفقت تُسقط بين الحين والآخر - بالرغم من أنه منتصف الصيف - قشوراً أو غصينات. طارت الغربان وحطت مرة أخرى، وأعدادها تقل في كل تحليقة بينما تتجهز الطيور الراشدة للاستقرار، إذ انقضى من المساء بالفعل ما يكفي ليظلم الجو داخل الأشجار. خلف الطحالب الرخوة، وظلال جذوع الشجرة، تمدد مرج فضي اللون. رفعت

أعشاب السهوب نصالها الريشية من أكوام الخضرة في نهاية المرج. أضاءت قطعة واسعة من المياه بضعف. بالفعل كانت فراشة اللبلاب تدور فوق الزهور. أبو خنجر وفطيرة الكرز، يستحمان في الشفق البرتقالي والأرجواني، ولكن نبتة التبغ وزهرة الرغبة، حيث حامت الفراشة الكبيرة فوقهما، تألقتا كالخزف. صرت الغربان بأجنحتها معاً على قمم الأشجار، وبعد أن استكانت لتنام، اهتز على بعد، صوتٌ مألوفٌ وارتعش -تصاعد- تكرر بإلحاح منتظم في آذانهم -أرجف الأجنحة المستكينة في الهواء مرة أخرى- جرس العشاء في البيت.

بعد ستة أيام من الهواء المشبع بالملح والمطر والشمس، ارتدى يعقوب فلاندرز بدلة السهرة. البدلة السوداء الغامضة كانت تظهر بين الحين والآخر في القارب بين العلب والمخللات واللحوم المحفوظة، وكلما طالت الرحلة أصبح ظهورها غير متنسق شيئاً فشيئاً، يتعذر قبوله. والآن، بعد أن استقر العالم، مناراً بضوء الشموع، وحدها بدلة السهرة هي التي حمته. لم يكن بوسعه الامتنان بما يكفي. فرقبتة ورسغاه ووجهه مكشوفة دون ساتر، وبدنه بأكمله، سواء ما انكشف منه أو تغطى، كان يرتجف قليلاً ويتوهج ما جعل حتى من قطعة القماش السوداء حائلاً غير وافي.

سحب اليد الحمراء المستريحة على مفرش الطاولة. أطبقها خلسة على الكؤوس بزجاجها الرقيق والشوكات الفضية المنقوشة. رُينت عظام الكستلاتة بزخارف وردية، وكان البارحة قد التهم فخذ خنزير من عظامه! أمامه ثمة

أشكال ضبابية شبه شفافة في ملابس صفراء وزرقاء. خلفها تمتد حديقة خضراء رمادية، وبين أوراق الإسكالونيا⁽¹⁾ كمثرية الشكل بدت قوارب الصيد عالقة ومتعطلة. عبرت سفينة ببطء خلف ظهور النساء. حيث هرع شخصان أو ثلاثة في الشرفة في الغسق. انفتح الباب وانغلق. لا شيء استقر أو بقي مستمرًا. مثل المجاذيف حين تجدف تارة على هذا الجانب، ثم على ذلك تارة أخرى، كانت بعض العبارات تأتي من هنا أحيانًا، وأحيانًا من هناك، من كلا جانبي الطاولة.

"أوه، كلارا، كلارا!" صاحت مدام دورانت، وأضاف تيموثي دورانت، "كلارا، كلارا"، خلص يعقوب إلى أن الشخص الموجه إليه الخطاب في الفستان الأصفر الشفاف يدعى كلارا، شقيقة تيموثي. جلست الفتاة وهي تبسم وتتورد خجلًا. كان لها نفس عيني أخيها الداكتين، ولكنها أكثر غموضًا ورقة منه. قالت حين هدأ الضحك: "لكن يا أمي، كان صحيحًا. وأكملت، أليس صحيحًا؟ الآنسة إليوت توافقنا الرأي..."

لكن الآنسة إليوت، الطويلة، برأسها المكمل بالشيب، أفسحت جوارها مكانًا للرجل العجوز الذي دخل من الشرفة. جال بخاطر يعقوب أن العشاء لن ينتهي أبدًا، ولم يكن راغبًا في أن ينتهي، على الرغم من أن السفينة عبرت من إحدى الراويا في إفريز النافذة إلى الزاوية الأخرى،

(1) شجيرات دائمة الخضرة تزهر خلال الفترة بين حزيران وأيلول وتكون أزهارها صغيرة بوقية الشكل ذات لون وردي وأبيض.

وكان هناك ضوء يحدد نهاية الرّصيف. رأى يعقوب مدام دورانت تنظر إلى الضوء. ثم التفتت إليه.

سألته "هل أنت من قدت المركب، أم تيموثي؟" "سأخبرني إن ناديتك بـيعقوب. لقد سمعت الكثير عنك." ثم عاودت التطلع إلى البحر. كانت عينها تلتصع وتلتصع وهي تتطلع إلى المنظر. قالت: "كانت قرية صغيرة يومًا ما، وكبرت الآن...". نهضت وأخذت منديلها معها، ووقفت بجانب النافذة.

"هل تشاجرت مع تيموثي؟" سألت كلارا بخجل. "أنا أيضًا كنت سأتشاجر معه."

عادت السيدة دورانت من النافذة.

"قالت وهي تجلس مشدودة الظهر وتنظر إلى المائدة" إنها تؤكل لاحقًا". "عليكم أن تحجلوا - جميعًا. سيد كلوتربوك، يجب أن تحجل". رفعت صوتها، فالسيد كلوتربوك كان ثقیل السمع.

"نحن نشعر بالخجل"، قالت فتاة. لكن الرجل العجوز ذا اللحية استمر في أكل كعكة البرقوق.

ضحكت السيدة دورانت وأسندت ظهرها على كرسيها، كما لو كانت تتساهل معه.

"ترك الحكم لك يا مدام دورانت"، نطق شاب بنظارة سميكة وشارب أحمر. أقول بما أن الشروط نُفذت. فهي مدينة لي بجنيه ذهب".

قالت شارلوت وايلدنغ: "ليس قبل السمك - بل معه يا مدام دورانت".
 "كان هذا هو الرهان. مع السمك"، قالت كلارا بجدية. "البيجونيا، يا أمي. لنأكلها مع سمكته".

"يا عزيزتي"، قالت السيدة دورانت.

"لن تدفع لك شارلوت"، قال تيموثي.

"كيف تجرؤ... ردت شارلوت.

قال السيد ورتلي المجامل، "سيكون لي شرف البدء"، وهو يسحب كيساً فضياً مكدساً بالجنيهات الذهبية ويُزلق منه عملة على الطاولة. بعدها نهضت مدام دورانت وعبرت الغرفة، محافظة على استقامة جسدها، وتبعها الفتيات في الأردية الشفافة الصفراء والزرقاء والفضية، والآنسة إليوت العجوز في القطيفة؛ وامرأة صغيرة متوردة الخدين، وقفت مترددة عند الباب، نظيفة، دقيقة، ربما تكون مربية. خرج الجميع من الباب المفتوح.

قالت مدام دورانت: "عندما تصبحين في نفس سني يا شارلوت"،
 ساحبة ذراع الفتاة داخل ذراعها بينما يذرعان الشرفة جيئةً وذهاباً.

"لماذا أنت حزينة هكذا؟" سألت شارلوت باندفاع.

"هل أبدو لكِ حزينة؟ سألت مدام دورانت: "لا أتمنى ذلك".

"تمام أنت حتى الآن لست كبيرة في السن."

"كبيرة بما يكفي لأكون والدة تيموثي." توقفتا.

كانت الأنسة إليوت تنظر عبر تلسكوب السيد كلوتر بوك على حافة الشرفة. والرجل العجوز الأصم وقف بجانبها، مداعباً لحيته، وهو يردد أسماء الأبراج: "أندرومدا، بوتس، سيدونيا، كاسيوبيا..."

"أندرومدا"، غمغمت الأنسة إليوت، وهي تحرك التلسكوب قليلاً.

نظرت السيدة دورانت وشارلوت على طول فوهة التلسكوب المتجهة إلى السماء.

"هناك ملايين النجوم"، قالت شارلوت بثقة. استدارت الأنسة إليوت بعيداً عن التلسكوب. ضحك الشاب فجأة في غرفة الطعام.

"دعيني أنظر"، قالت شارلوت بنفاد صبر.

"النجوم تضجرنى" قالت مدام دورانت، وهي تسير في الشرفة مع جوليا إليوت. "قرأت كتاباً ذات مرة عن النجوم... ماذا يقولون؟" توقفت أمام نافذة غرفة الطعام. لاحظت "تيموثي".

"الشاب الصامت"، قالت الأنسة إليوت.

"نعم، يعقوب فلاندرز"، قالت السيدة دورانت.

"يا أمي! لم أميزك!" صرخت كلارا دورانت في قدومها من الاتجاه المعاكس مع إليزابيث. "كم هو لذيذ"، تنهدت، وهي تسحق ورقة لوزة.

استدارت مدام دورانت وسارت بعيداً بمفردها.

"كلارا!" نادى. ذهبت إليها كلارا.

"كم يختلفان عن بعضهما!" قالت الأنسة إليوت.

مر السيد ورتلي بهما، وهو يدخل السيجار.

"كل يوم أحياء أجد نفسي أوافق..." قال وهو يمر.

"التخمين شيء مشوق جداً..." غمغمت جوليا إليوت.

"عندما خرجنا في البداية، كان بوسعنا أن نرى الزهور في ذلك الأصيل". قالت إليزابيث.

"نحن الآن نرى بالكاد". قالت الأنسة إليوت.

"لا بد أنها كانت جميلة جداً، والجميع فتن بها بالطبع"، قالت شارلوت.

"أفترض أن السيد ورتلي..." صمتت.

"كانت وفاة إدوارد مأساة"، قالت الأنسة إليوت بلا تردد.

هنا انضم إليهما السيد إرسكين.

"لا يوجد شيء يشبه الصمت"، قال بثقة. "يمكنني سماع عشرين صوتاً

مختلفاً في ليلة كهذه دون حساب أصواتكما."

"هل تراهن على ذلك؟" قالت شارلوت.

قال السيد إرسكين: "أراهن". "واحد، البحر؛ اثنان، الرِّيح؛ ثلاثة، كلب؛ أربعة..."

واصل العد.

"تيموثي المسكين"، قالت إليزيث.

"ليلة رائعة جداً"، صاحت الآنسة إليوت في أذن السيد كلوتربوك.

قال الرجل العجوز، وهو يُدير التلسكوب نحو إليزيث: "أتحبن التطلع إلى النُّجوم؟"

صاحَت الآنسة إليوت: "ألا يجعلك ذلك تشعرين بالحزن، تأمل النُّجوم؟"

"كلا يا عزيزتي، كلا بالطبع"، ضحك السيد كلوتربوك عندما أدرك مرامها بينه وبين نفسه. "ما السبب الذي يجعلني أكتب؟ ولا للحظة - كلا يا عزيزتي.

"قالت الآنسة إليوت: "شكراً لك يا تيموثي، لكنني قادمة". "إليزيث، ها هو شال."

"أنا قادمة"، غمغمت إليزيث وعيناها في التلسكوب. "كاسيوبيا"

غمغمت. "أين أنتم جميعاً؟" سألت، وأبعدت عينها عن التلسكوب. "لقد أظلمت جداً!"

جلست السيدة دورانت في غرفة الرسم قرب مصباح تلف كرة من الصوف. السيد كلوتربوك كان يقرأ التايمز. وعلى مسافة، كان هناك مصباح ثانٍ، جلست حوله الفتيات، بمقصاتهن الواضحة على أقمشة مرصعة بالفضة من أجل أدوارهن في مسرحية. والسيد وورتلي يقرأ كتاباً.

"نعم فعلاً؛ إنه على حق تماماً" قالت السيدة دورانت، وهي تشد نفسها لتقف وتتوقف عن لف الصوف. وبينما يقرأ السيد كلوتربوك بقية خطاب اللورد لانسداون، جلست في وضع مستقيم، دون أن تلمس بكرة صوفها.

"آه يا سيد فلاندرز"، قالت وهي تتحدث باعتزاز، كما لو تتحدث إلى اللورد لانسداون نفسه. ثم تنهدت وأكملت مجدداً لف الصوف.

"اجلس هناك"، قالت.

خرج يعقوب من ركنه المظلم قرب النافذة حيث كان واقفاً. غمره الضوء، مضيئاً كل ذرة من بشرته؛ ولكن لم تتحرك عضلة واحدة من وجهه وهو يجلس متطلعاً إلى الحديقة.

"احكِ لي عن رحلتك"، قالت السيدة دورانت.

"نعم"، قال.

"منذ عشرين سنة قمنا بالشيء نفسه".

"نعم"، قال. نظرت إليه بحدة.

"إنه أخرج تمامًا"، فكرت، وهي تلحظ كيف يتحسس جوربه بأصابعه. "وإن كان ذا مظهر متميز".

"في تلك الأيام..." استأنفت، وأخبرته كيف أبحرا... "زوجي كان يعرف الكثير عن الإبحار، فقد كان لديه يخت قبل أن نتزوج..." حكى له كيف أنهم تحدوا الصيادين بطيش، "حتى كدنا أن ندفع حياتنا ثمنًا لذلك، لكننا كنا مذهولين جدًا بأنفسنا!"

سأل يعقوب بتكلف: "هل أمسك بكرة الصوف؟"

"أنت تفعل ذلك من أجل أمك"، قالت مدام دورانت، نظرت إليه مرة أخرى بحماس شديد، وهي تنقل لفة الخيط. "نعم، هكذا أفضل." ابتسم؛ لكنه لم يقل شيئًا.

خشخت إيزبيث سيدون خلفهم بشيء فضي على ذراعها.

"إننا نريد". قالت "أنا قادمة..." توقفت.

قالت مدام دورانت، بهدوء، "يعقوب المسكين، كما لو كانت تعرفه طوال حياته." سوف يجعلونك تؤدي دورًا في مسرحيتهم.

قالت إيزبيث وهي تجثو بجانب كرسي السيدة دورانت "كم أحبك!"

"ناولني الصوف"، قالت مدام دورانت.

"وصل، وصل!"، صرخت شارلوت وايلدينج، "فزت بالرهان!"

"هناك عنقود آخر أعلى"، غمغمت كلارا دورانت، وهي تصعد درجة أخرى من السلم. أمسك يعقوب السلم بينما تمد يدها لتصل إلى العنب على الكرمة.

"هناك!" قالت، مخترقة الغصون. كانت تبدو شبه شفافة، شاحبة، جميلة جداً هناك بين أوراق العنب والعناقيد الصفراء والأرجوانية، يغمرها الضوء في جزر ملونة. انتصبت إبرة الراعي ونبات الباجونيا في أصص على طول الألواح؛ تسلقت الطماطم الجدران.

"تحتاج الأوراق إلى تقليم"، فكرت، وورقة خضراء، ممتدة مثل كف اليد، التفت حول رأس يعقوب.

"معني أكثر مما أستطيع تناوله بالفعل" قال وهو ينظر إلى فوق.

"يبدو من العبث..." بدأت كلارا، "الذهاب إلى لندن..."

"أمر مضحك"، قال يعقوب بحزم.

قالت كلارا، "بعد ذلك..."، لا بد أن تأتي في العام المقبل، وأنت مستعد"، انتزعت ورقة أخرى من الكرمة، بشكل عشوائي.

"لو.. لو..."

ركض طفل وراء المشتل وهو يصيح. نزلت كلارا السلم ببطء ومعها سلة العنب.

قالت: "عنقود واحد أبيض، واثنان قرمزيان"، ووضعت ورقتين كبيرتين فوقهما حيث رقدا ملتفين دافئين في السلة.

قال يعقوب وهو ينظر إلى المشتل: "كان يومًا ممتعًا".

"نعم، لقد كان يومًا مبهجًا"، ردت بخفوت.

"يا آنسة دورانت"، قال وهو يأخذ سلة العنب؛ لكنها سارت وراءه نحو باب المشتل.

"أنت رائع أكثر من اللازم - رائع جدًا"، جال بخاطرهما، وهي تفكر في يعقوب، تفكر أنه ليس عليه أن يقول أنه أحبها. كلا كلا كلا.

كان الأطفال يحومون وراء الباب، ويقذفون أشياء في الهواء.

"العفاريت الصغار!" صرخت. "ماذا أخذوا؟" سألت يعقوب.

قال يعقوب: "بصل على ما أعتقد". نظر إليهم دون حراك.

قالت مدام دورانت، وهي تصافحه في الشرفة حيث تدلت شجيرة الفوشيه، مثل حلق قرمزي خلف رأسها، "أغسطس القادم، تذكر يا يعقوب".
برز السيد ورتلي من النافذة مرتديًا نعلًا أصفر، يتابع قراءة التايمز وهو يمد يده بحرارة شديدة.

"مع السلامة"، قال يعقوب. "مع السلامة"، كرر. "مع السلامة"، قالها مرة أخرى.

اندفعت شارلوت وايلدينج من نافذة غرفة نومها وصاحت: "مع السلامة يا سيد يعقوب!"

"سيد فلاندرز!" صاح السيد كلوتربوك، في محاولة لتحرير نفسه من كرسيه الخوص.

"يعقوب فلاندرز!"

"تأخرت جدًا يا يوسف"، قالت السيدة دورانت.

قالت الأنسة إليوت، "لا تجلس من أجلي"، وهي تثبت الحامل فوق العشب.

الفصل الخامس

"أعتقد إلى حد كبير"، قال يعقوب وهو يسحب غليونه من فمه، "إنها في فيرجيل"، دفع كرسيه إلى الوراء، وذهب إلى النافذة.

أكثر السائقين تهورًا في العالم هم بلا شك، سائقو عربات البريد. وهي تتأرجح في شارع كوندويت لامب، استدارت الشاحنة القرمزية عند الناصية قرب صندوق البريد العمودي على نحو سحب الأسفلت وجعل الفتاة الصّغيرة التي كانت تشب على أطراف أصابعها لتضع خطابًا ترفع عينيها، نصف خائفة، ونصف راغبة في الاستطلاع. تسمرت مكانها ويدها في فتحة الصندوق؛ ثم أسقطت خطابها وانصرفت راکضة. يندر أن نرغب طفلة تقف على أطراف أصابعها بنظرة حنو - في الأغلب نشعر بعدم ارتياح، كما هو الحال مع حبة رمل في فردة حذاءنا والتي تستغرق بالكاد لحظة للتخلص منها - تلك هي مشاعرنا، لذا - استدار يعقوب إلى خزانة الكتب.

منذ زمن طويل عاشت هنا شخصيات عظيمة، أثناء عودتهم من البلاط

بعد منتصف الليل كانوا ينتظرون، وهم يللمون أطراف أرديتهم الساتان، تحت عارضة الباب المزخرف - ريثما ينهض الخادم من فراشه على الأرض، ويزرر على عجل أزرار صدرته السفلى، ويدعهم يدخلون. اندفعت أمطار شبه جليدية في القرن الثامن عشر في مجرى النهر. ومع ذلك فإن ما يجعل ساوثهامبتون رو⁽¹⁾، لافتًا للأنظار في الوقت الحاضر حقيقة أنك دائمًا ما تعثر هناك على رجل يحاول أن يبيع سلحفاة إلى مصمم أزياء. "إنه يرفع من قيمة القماش التويدي يا سيدي؛ إن ما ترغبه طبقة النبلاء شيء فريد يلفت الأنظار يا سيدي - إنه نظيف في عاداته يا سيدي!" لذلك فهم يعرضون سلاحهم.

أمام ناصية مودي في شارع أوكسفورد انسابت الخرزات الحمراء والزرقاء متلاحقة على خيطها. سدت الحافلات الطريق. نظر السيد سبالدينج وهو في طريقه إلى المدينة إلى السيد تشارلز بادجون المتجه إلى شبردز بوش⁽²⁾. أتاح قرب الحافلات العامة للمسافرين من خارج النافذة فرصة للتحديق في وجوه بعضهم. وإن كان القليلون من استغلها. فلكل منهم أشغاله التي تستغرق تفكيره. ولكل منهم سجله المتوقع داخله مثل صفحات كتاب يحفظها عن ظهر قلب؛ وليس بوسع أصدقائه سوى قراءة العنوان، ولن يكون بمقدور جيمس سبالدينج، أو تشارلز بادجون، والركاب الذين

(1) ساوثهامبتون رو Southamton Row هو شارع رئيسي يمتد شمال غرب جنوب شرق بلومزبري، وسط لندن، إنجلترا.

(2) شبردز بوش Shepherd's Bush حي يقع في غرب العاصمة البريطانية لندن.

يأخذون الاتجاه المعاكس أن يقرؤوا أي شيء على الإطلاق.

باستثناء "رجل بشارب أحمر"، "شاب في ملابس رمادية يدخن غليوناً"، استقر ضوء الشمس في شهر أكتوبر على كل هؤلاء الرجال والنساء الجالسين بلا حراك؛ واستغل الطفل جوني ستورجيون الفرصة للتسلل بسرعة من أسفل السلام، حاملاً طرده الضخم الغامض، وبتجنبه مساراً متعرجاً بين عجلات السيارات وصل إلى الرصيف، وراح يصفر لحناً وسرعان ما غاب عن الأنظار - إلى الأبد. ارتجت الحافلات مستأنفة طريقها، وشعر كل واحد منهم بالارتياح لأن رحلته أوشكت على الانتهاء، على الرغم من أن بعضهم أغرى نفسه بعد أن ينجز ارتباطاته الحالية بكثير من الترفيه - شرائح لحم بيودنج الكلى أو الشرب أو لعب الدومينو في ركن مضرب بالدخان بمطعم المدينة. أوه نعم، من الممكن احتمال حياة البشر على متن حافلة في هولبورن، عندما يرفع الشرطي ذراعه وتضرب الشمس ظهره، وإذا كان ثمة ما يجتنب فيه المرء مثل قوقعة على قدر مقاسه تماماً، فهنا نجدها، على ضفاف نهر التايمز، عند تقاطع الشوارع الكبرى وكاتدرائية القديس بولس، وقد تخلص منها تماماً مثلما يتخلص الحلزون من قوقعته الملتفة فوقه.

هبط يعقوب من حافلته، متباطئاً على الدرج، وبعد أن استشار ساعته، اتخذ عقله أخيراً قراراً بالدخول... أحتاج هذا إلى بذل جهد؟ نعم فعلاً. هذه التغييرات في المزاج تستنفدنا حتى الشئالة.

خافضة الإضاءة هي، مسكونة بأشباح من الممر الأبيض، لها يصدق

الأرغن إلى الأبد. لو أن فردة حذاء صرّت، فيا له من شيء مزعج؛ يعقبه النظام؛ الانضباط. خادم الكنيسة يروض بصولجانه الحياة أسفله. عذبة وورعة التراتيل الملائكية. ودائماً ما تحيط الأصوات المرتفعة الحادة للبشر والأورغن، بالأكتاف المرمرية، وتتخلل الأصابع المطوية. إلى الأبد موسيقى القداس - راحة الميت.

بعد أن أنهكت من تنظيف سلام مكتب جمعية الإشراف على التبرعات، العمل الذي أدته على مدار الأعوام، جلست مدام ليدج تحت مقبرة الدوق العظيم، طاوية يديها، ومغمضة عينيها نصف إغماضة. مكان مهيب لتنال فيه امرأة عجوز بعض الراحة، إلى جوار عظام الدوق العظيم، التي لا تعني انتصاراته لها شيئاً على الإطلاق، اسمه لا تعرفه، وإن كانت لا تهمل أبداً أن تحيي الملائكة الصغار على جانبيه، وحين تموت، تتمنى مثلها على قبرها، رفرت ستارة القلب الجلدية على مصراعيها، ومنها تسللت الأفكار المريحة على أطراف أصابعها، عذبة متناغمة الأصوات...

لم يفكر أولد سبايسر، تاجر الجوت⁽¹⁾، في شيء من هذا القبيل. الغريب حقاً ألا يدخل كنيسة القديس سانت بولس طوال هذه السنوات الخمسين، رغم أن نوافذ مكتبه تطل على فناء الكنيسة. "أهذا كل شيء؟ حسناً، مكان قديم مقبض..."

(1) القُنْب.

أين قبر نيلسون؟ لا وقت لدي الآن -ربما في مرة أخرى- عملة لوضعها في الصندوق... أتمطر أم أن الجو صحو؟ حسناً، لو أن هذا فقط هو ما يحسم الأمور! دخل الأطفال بتكاسل يتسكعون -ردعهم الخادم - وآخرون... رجل، امرأة، رجل، امرأة، صبي... وهم يوزعون نظراتهم عالياً، زامين شفاههم، مر بخفه الظل نفسه على الوجوه نفسها؛ رفرفت ستارة القلب الجلدية مفتوحة على مصراعها.

من فوق سلام كاتدرائية القديس بولس، لا شيء يبدو أكثر يقيناً من أن كل شخص زُود بأعجوبة بمعطف وتنورة وحذاء برقبة؛ ودخل؛ وهدف. عدا يعقوب، وهو يحمل في يده الإمبراطورية البيزنطية لفينلي⁽¹⁾، الذي اشتراه لتوه من لودجيت هيل، بدا مختلفاً قليلاً؛ لأنه يحمل في يده كتاباً، الكتاب الذي سيفتحه في التاسعة والنصف بالضبط ويشرع في قراءته، قرب مدفأته، بينما لا أحد غيره من بين هذه الجموع قد يفعل ذلك. فليس لهم بيوت. إنهم ينتمون إلى الشوارع. المتاجر؛ الكنائس؛ الطاولات التي لا تعد ولا تحصى. الأضواء الخارجة من المكاتب؛ الشاحنات الصغيرة لهم، والسكة الحديدية التي تمر عالياً فوق الشارع. إذا دقت النظر أكثر، ترى ثلاثة كهول على مسافة قصيرة من بعضهم يتسابقون بعناكب على طول الرصيف كما لو كان الشارع ردهة بيتهم، وهنا، في مقابل الحائط، امرأة تحرق إلى لا شيء، تبسط أمامها أربطة أحذية، ولا تسأل أن تبتاعها.

(1) جورج فينلي George Finlay، مؤرخ إسكتلندي ولد في 1799 وتوفي في 1875.

الملصقات أيضًا لهم؛ والأخبار تدور عنهم. بلدة دُمرت؛ فوز في سباق. أناس بلا مأوى، يترنحون تحت السماء التي حُجبت زرقتها أو بياضها بسقف منسوج من برادة الحديد وروث حصان مبعثرًا في الغبار.

هناك، تحت ظل أخضر، برأسه المنكفئة على ورقة بيضاء، يقوم السيد سييلي بنقل الأرقام إلى السجلات، وفوق كل مكتب تلاحظ، فيما يشبه العلف، حزمة من الورق، قوت اليوم، يستهلكها القلم الكادح رويدًا رويدًا. معاطف لا تعد ولا تحصى بمواصفات معينة عُلفت فارغة طوال اليوم في الممرات، ولكن بمجرد أن تدق الساعة السادسة فكل معطف يتم حشوه بالتمام، وتنشق الأرقام الصَّغيرة إلى سراويل أو تتشكل في كتلة واحدة، تهتز بزاوية في حركة سريعة للمضي قدمًا على طول الرِّصيف؛ ثم تسقط في الظلام. تحت الرِّصيف، غارت في الأرض، مصارف مجوفة مؤطرة بالضوء الأصفر تنقلهم على الدوام إلى هذا الطَّرِيق أو ذاك، والحروف الكبيرة على ألواح الميناء تمثل في العالم السفلي الحداثق والساحات والتقاطعات في العالم الحقيقي أعلاها. "قوس الرخام - أجمة الراعي" - بالنسبة إلى الأغلبية، فإن القوس والأجمة لن يكونا سوى حرفين أبيضين دائمًا على خلفية زرقاء. عند نقطة واحدة فقط - ربما تكون أكتون، هولواي، كينسال رايز، طريق كاليدونين - فإن الاسم يعني المتاجر التي تشتري منها الأشياء والمنازل، التي توجد في واحدة منها، إلى اليمين، حيث غرست جذوع الأشجار في حجارة الرِّصيف، نافذة بستارة مربعة، وغرفة نوم.

بعد الغروب بوقت طويل، تجلس عجوز عمياء على مقعد قابل للطلي وظهرها إلى الجدار الحجري للاتحاد اللندني وبنك سميث، تمسك بيدها كلباً بنياً هجيناً وهي تغني بصوت مرتفع، لا لتربح عملات نحاسية، أبداً، بل من أعماق قلبها الجامح إلى أقصى حد - قلبها المدموغ بالإثم - لأن الطفلة التي جاءت لتأخذها هي ثمرة الخطيئة، وكان ينبغي أن تكون في السرير، محاطة بالستائر، نائمة، بدلاً من أن تستمع في ضوء المصباح إلى أغنية أمها الجامحة، التي تجلس أمام البنك، ولا تغني بغية الحصول على عملات نحاسية، وقلبها يتكئ على صدرها.

إلى بيتها ذهبتا. استقبلتهما قباب الكنيسة الرمادية؛ المدينة الصاخبة، القديمة، والآثمة، والعريقة. واحدة تلو أخرى، مكورة أو مدببة، تشرق السماء أو تتكتل في كومة واحدة، تشبه السفن الشراعية، تشبه المنحدرات الجرانيتية، قباب ومكاتب وأرصعة ومصانع تزحم الضفة؛ دائماً ما يجتازها الحجاج بصعوبة هائلة؛ تستريح السفن الكبيرة في منتصف النهر مثقلة بحمولتها. مثلما يعتقد البعض، فهذه المدينة تحب بغاياها.

لكن على ما يبدو، قلة من يتم التساهل معهم إلى هذا الحد. فمن بين جميع العربات التي تغادر قوس دار الأوبرا، لا واحدة تتجه صوب الشرق⁽¹⁾، وحين يُقبض على اللص الصغير في ساحة السوق الخاوية - لا أحد بشياب السهرة السوداء، و-البيضاء أو الوردية- يعترض الطريق بإيقافه بيد عبر باب

(1) حيث توجد الأحياء الفقيرة.

العربة كي يساعد أو يدين - على الرغم من أن الليدي تشارلز، للإنصاف،
تتهند بحزن وهي تصعد سلمها، وتناول كتاب توما الكمبيسي⁽¹⁾ ولا
تسقط في النوم إلى أن يفقد عقلها دهاليزه في تعقدات الأمور. "لماذا؟
لماذا؟ لماذا؟" تتهند. على العموم، يستحسن الرجوع من دار الأوبرا مشياً.
الإنهاك هو أفضل جرعة منومة.

كان موسم الخريف على قدم وساق. تريستان يسحب دثاره عليه حتى
أسفل إبطيه مرتين في الأسبوع؛ لوح إيزولده⁽²⁾ بوشاحها في انسجام

(1) توما الكمبيسي هو توما هيميركين وقد عُرف بالكمبي لآثته وُلد في (Kempen). سنة 1380 بمنطقة كولونيا في ألمانيا وتوفي في الدير سنة 1471. ترك توما حوالي تسع وثلاثين أثرًا أدبيًا متنوع المواضيع: نسكيات، ورهبانيات، وأعمال تاريخية، وعظات ورسائل. أمّا كتاب الاقتداء بالمسيح المقصود ربما في الفقرة فقد كتب بلغة بسيطة مفتشًا عن إيصال الخلاص للنفوس. وظهر مطبوعًا باللغة العربية سنة 1663 وقد طبع في روما، أمّا مترجمه فهو الأب الكرملّي الحافي سيلستينوس آ. سانتا ليدوينا Coelestinus à S. Liduina. إعداد مكاريوس جبّور وغادة كمال خوري.

(2) تريستان وإيزولده من أكثر أعمال فاجنر تعبيرًا عنه، والأكثر انطلاقًا من ذاته. إذ وضع بنفسه أشعارها وصاغها كما يحلو له، انطلاقًا من الأسطورة الشهيرة التي تعود إلى القرن الثاني عشر الميلادي، وعمل عليها لجعلها مرآة لحياته، وتحديدًا عن حالة الحب المتبادل التي كان يعيشها مع ماتيلدا الحسنة، زوجة صديقه الثري أوتوفون فسندونك. ويصور من خلالها آلام الحب ومآلاته.. وكذا: لعنته. قدمت أوبرا "تريستان وإيزولده" في ميونيخ للمرة الأولى يوم العاشر من حزيران (يونيو) 1865. فاجنر لم يحدث تغييرًا كبيرًا في معنى النص ومجراه، لكنه فسّره كما طاب له الهوى، واختصر الأحداث اختصارًا كبيرًا، مركزًا فقط على العلاقة الغريبة والمتبادلة بين تريستان وإيزولده، وخصوصًا منذ اللحظة التي يجرعان فيها إكسير الحب. والحقيقة أن هذا التفسير، إضافة إلى دلالة أغنيات في الأوبرا مثل "نشيد إلى الليل" و"الموت حبًا"، جعلت "تريستان وإيزولده" تعتبر "صرخة في ثلاثة فصول نابعة من ثمالة الحب".

معجز مع عصا قائد الأوركسترا⁽¹⁾. في جميع أنحاء الأوبرا، بوسعك أن ترى الوجوه المتوردة والصدور المتألثة. في تلك اللحظة انسلت يدٌ ملكية ملتصقة بجسد لم يكن مرئياً وسحبت باقة الورد الحمراء والبيضاء الموضوعة على الإفريز القرمزي، "ملكة إنجلترا" بدا لقباً يستحق الموت لأجله.

الجمال، في صوباته المتنوعة (منزهاً من كل عيب)، أزهز في مقصورة تلو أخرى؛ وعلى الرغم من أنه لم يُقل شيء من الأهمية بمكان، فمن المسلم به أن روح الدعابة فارقت الشفتين الجميلتين منذ أن مات والبول تقريباً - على كل حال عندما نزلت فيكتوريا في منامتها لتلتقي وزراءها، ظلت الشفتان (من خلال زجاج الأوبرا) حمراوين، بديعتين. طفق رجال صلع متميزون بعكاكيز ذهبية الرؤوس يتجولون خلال الفترات الفاصلة في الطرقات الحمراء بين المقاعد، ولم يقطعوا تواصلهم مع المقصورات إلا عندما انطفأت الأضواء، وانحنى قائد الأوركسترا للملكة أولاً، وبعد أن انحنى للرجال برؤوسهم الصلعاء، دار على قدميه ورفع عصاه.

في شبه العتمة ألقا قلب تذكروا، توقعوا، سافروا عبر متاهات مظلمة. وقالت كلارا دورانت ليعقوب فلاندرز وداعاً، وتذوقت حلاوة الموت في المشهد. والسيدة دورانت، وهي تجلس خلفها في عتمة المقصورة، زفرت تنهيدتها الحادة. والسيد وورتلي، وهو يُبدل مكانه خلف زوجة السفير

(1) تشير الإشارة إلى دثار تريستان ووشاح إيزولده إلى أن الراوي يستدعي الفصل الثالث من الأوبرا، عندما يستدير تريستان المحتضر على أريكته بهدوء، في انتظار إيزولده التي تلوح إلى تريستان المنتظر ومرافقه مع اقتراب سفيتها.

الإيطالي، معتقدًا أن صوت برانجين⁽¹⁾ أجش بعض الشيء؛ وأقدام كثيرة في صالة العرض تتدلى فوق رؤوسهم، سلط إدوارد ويتاكر بشكل خفي مصباحًا يدويًا إلى نوتته الموسيقية المصغرة. و... و...

باختصار، لقد غص الراصد بالمشاهد المرصودة. وحتى لا تُغرِقنا الفوضى لا أكثر، قامت الطبيعة والمجتمع بتصنيفهم، بنظام طبقي هو البساطة بعينها؛ أكشاك، مقصورات، مدرج، صالة. القوالب التي تمتلئ ليلاً. لا توجد حاجة إلى تصنيف التفاصيل. وإن ظلت الصعوبة - إن على المرء أن يختار. فمع أي لا أتمنى أن أكون ملكة إنجلترا ولو للحظة واحدة - كنت سأجلس بجانبها عن طيب خاطر حقًا؛ أود لو استمعت لثرثرة رئيس الوزراء؛ همس الكونتيسة ومشاركتها ذكرياتها عن القاعات والحدائق؛ الأسرار المشفرة التي تخفيها الجبهات العريضة بإجلال؛ وإلا لماذا يتعذر اختراقها؟ وبعد ذلك، وشخص ما يخلع قبعته، كم هو غريب أن يفترض للحظة أن يكون واحد منهم - أي واحد - هو الرجل الشجاع الذي يحكم الإمبراطورية؛ كي يعلق بينها تغني برانجين على مقتطفات من سوفوكليس، أو أن تلمح في ضوء خاطف، بينما يصفر الراعي في زمواره، جسورًا وقنواتٍ. لكن لا، علينا أن نختار.

أكانت هناك ضرورة أكثر إلحاحًا! أو من تلك التي قد تفضي إلى مزيد من الألم، أو شيء محتوم أكثر كارثية؛ لأنني أينما أقيم، واثق من موتي في

(1) خادمة إيزولده.

المنفى: ويتاكر في حجرته المستأجرة؛ الليدي تشارلز في قصرها.

شق شاب بأنف ولنجتون، كان يشغل مقعداً بسبعة وستين سنتاً، طريقه هابطاً الدرج الحجري عندما انتهت الأوبرا، كما لو أنه ما يزال يجلس بعيداً عن زملائه جراء تأثير الموسيقى.

في منتصف الليل سمع يعقوب فلاندرز طرقاً على بابه.

"بحق جوييتير⁽¹⁾" هتف. "أنت الشخص الذي أحججه الآن!" وبدون المزيد من التردد، عثرا على السطور التي كان يبحث عنها طوال اليوم؛ لم تكن في فيرجيل، بل في لوكريتيوس.

"نعم فعلاً؛ ينبغي أن يجعله هذا ينتصب في جلسته" قال بونامي. كان يعقوب متحمساً. هذه هي المرة الأولى التي يقرأ فيها مقالة بصوت عالٍ. "خنزير ملعون!" قال، بمبالغة شديدة بالأحرى؛ لأن مديح بونامي جعله ينفخ أوداجه.

كان البروفيسور بولتيل من جامعة ليدز قد قام بنشر نسخة من ويتشلي⁽²⁾

(1) في إنجلترا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، اعتُبر القسم بالله جريمة كبرى. بدلا من ذلك، كان الرجال يقولون "BY Jove" وجوف هو اسم بديل للإله الروماني جوييتير. بقولهم "بحق جوييتير"، فهم يقصدون والله أو بحق الله! دون ارتكاب جريمة اجتماعية.

(2) وليم ويتشلي (1640-1716م)، كاتب مسرحي إنجليزي، ولد في مقاطعة شرويشاير، له مكانة مع السير جورج أترج ووليم كونجريف كمؤلف رائد للهجاء الساخر الذي يطلق عليه التمثيل الهزلي للسلوك خلال فترة التجديد في الأدب الإنجليزي. الكثير من مسرحيات ويتشلي قاسية في هجائها الهزلي، وكانت مواقف تجاه الناس في أحيان كثيرة ممتلئة ضغينة وتهكماً.

دون أن يشير إلى أنه حذف، أو فرغ النص من مضمونه، أو استبدل فحسب بعلامات نجمية، عدد من الكلمات والمقاطع غير اللائقة. غضبٌ على النص، قال يعقوب؛ تدليس؛ تطرف في الحشمة. رمز لفكر فاسد وطبيعة مثيرة للاشمئزاز. تم الاستشهاد بأريستوفان وشكسبير. التنكر للحدائث. صياغة المسرحية الرائعة بعنوان احترافي، والسخرية من جامعة ليدز كمرکز للتعليم إلى درجة الاستهزاء. والشيء الاستثنائي هو أن هؤلاء الشباب كانوا على حق تمامًا - على حق، لأنه، حتى عندما عكف يعقوب على كتابة مقاله، كان يعلم أن لا أحد سيوافق على نشره؛ وعلى ثقة تمامًا من أن الفورتناتيلي⁽¹⁾ والكونتمبورري⁽²⁾ والناتينث سينشري⁽³⁾ ستعيدها إليه⁽⁴⁾ - حيث ألقى بها يعقوب في الصندوق الخشبي الأسود الذي يحتفظ فيه برسائل والدته، وسراويله القديمة، ورسالة أو اثنتين بختم كورنوال. موصلًا الغطاء على الحقيقة.

هذا الصندوق الخشبي الأسود، الذي ما زال اسمه واضحًا عليه باللون الأبيض، ينتصب بين النوافذ الطويلة لغرفة الجلوس. والشارع يمر من تحتها. لا شك أن غرفة النوم في الجزء الخلفي.

Fortnightly (1)

Contemporary (2)

Nineteenth Century (3)

(4) أسماء صحف.

جاء الأثاث - ثلاثة كراسي خوص وطاولة ذات أرجل قابلة للطّي - من كامبريدج. بُنيت هذه المنازل (مدام وايتهورن، ابنة مدام جارفيت، هي صاحبة هذا المنزل)، كما يقال، قبل مئة وخمسين عامًا. غرفها جميلة، سقوفها عالية؛ فوق المدخل نحتت وردة أو جمجمة كبش في الخشب. للقرن الثامن عشر لمسته المميزة. حتى للوحات المطلية بلون التوت، لمساتها المميزة....

"التميز" - قالت مدام دورانت إن يعقوب فلاندرز "مظهره مميز". "أحرق جدًا"، قالت "لكن مظهره مميز للغاية". حين رآته أول مرة فلا شك أن تلك الكلمات كانت عنه. وهو يسترخي على كرسيه، سحب غليونه من بين شفتيه، وقال لبونامي: "قل لي، ما رأيك في هذه الأوبرا..". (لأنهم توقفوا عن تعليقاتهم البذيئة). "هذا الزميل فاجنر"... التميز كانت إحدى المفردات التي تستخدم بشكل طبيعي، على الرغم من أنه حين ننظر إليه عن كثب، يتعذر على المرء أن يحدد في أي مقعد في دار الأوبرا كان يجلس، في المقصورات، أم صالة العرض، أم البلكون. أكايب هو؟ إنه يفتر إلى وحي خاص. رسام؟ ثمة شيء في شكل يديه (كان ينحدر من ناحية والدته من عائلة من أعرق عائلات العصور القديمة وأكثرهم مجهولية) يدل على الذوق. ثم إن فمه - ولكن بالتأكيد، من بين جميع المهام غير المجدية، فهرسة الملامح هذه هي الأسوأ. تكفي كلمة واحدة. ولكن ماذا إن تعذر العثور عليها؟

"يروقني يعقوب فلاندرز"، كتبت كلارا دورانت في دفتر يومياتها. إنه

لا يهتم بالمظاهر. إنسان غير متكلف، ويمكن للمرء أن يبوح له بما يريد، على الرغم من أنه خفيف بسبب... "لكن السيد ليتس لا يتيح سوى مساحة صغيرة في دفتره الذي يباع بشلن⁽¹⁾. لم تكن كلارا الشخص الذي ينتهك حرمة الأربعاء⁽²⁾. متواضعة، أكثر إخلاصًا من النساء! "كلا، كلا، كلا"، تنهدت وهي واقفة عند باب المشتل، "لا تحطم - لا تدنس" ماذا؟ شيء رائع إلى أبعد الحدود.

ولكن بعد ذلك، هذه ليست سوى مفردات امرأة شابة، امرأة، أيضًا، تحب، أو تحاول الإحجام عن الحب. تمت أن تدوم اللحظة إلى الأبد كما حدث في صباح يوليو. ولكن اللحظات لا تدوم. ففي تلك اللحظة، مثلاً، كان يعقوب يروي قصة عن نزهة قام بها مشيًا، أطلق على الحانة اسم "الإناء الفوار"، نسبة إلى اسم صاحبه... ضجوا بالضحك. كانت المزحة بذيفة.

ثم قالت جوليا إليوت "الشاب الصامت"، وهي تتناول الطعام مع رئيس الوزراء، لا شك أنها كانت تقصد: "إذا كان سيستمر في العالم، فعليه أن يجد لسانه".

تيموثي دورانت لم يُعلق على الإطلاق.

(1) مفكرة صغيرة تسمى مفكرة ليتس نسبة إلى توماس ليتس (1803-1873) بائع أقلام وأوراق كتابة ومطبعي، وهو من قام بطبع المفكرات الصغيرة وتعميمها.
(2) أول أيام الصوم.

وجدت الخادمة أنها كوفئت بسخاء.

كان رأي السيد سوبوذ عاطفياً مثل رأي كلارا، على الرغم من أنها عبرت عنه بمهارة أرقى بكثير.

كانت بيتي فلاندرز عاطفية مع آرثر وحنونة مع جون؛ ومستاءة إلى أقصى حد من حماقة يعقوب في البيت.

الكابتن بارفوت كان يحبه أكثر من كل الأولاد؛ ولكن عند الإتيان على ذكر السبب...

يبدو أن الرجال والنساء عرضة للخطأ على قدم المساواة. يبدو أن الرأي الثاقب والموضوعي والحيادي لأندادنا المخلوقات يتعذر معرفته على الإطلاق. فنحن إما رجال، أو نساء. إما باردون، أو عاطفيون. إما شباب أو كهول. في كل الأحوال، الحياة ليست سوى موكب من الظلال، ويعلم الله بما أنها ظلال، لماذا نعانقها بتوق شديد، ونراها ترحل بمثل هذا الكرب. ولماذا، إن كان هذا صحيحاً - بل وأكثر جدّاً من صحيح، ما زلنا نتفاجأ في زاوية النافذة برؤية مباغته مفادها أن الشاب الجالس على الكرسي أكثر واقعية من كل الأشياء في العالم، أكثر وجوداً ملموساً، وأكثر شيء نعرفه، لماذا حقاً؟ في اللحظة التالية لا نكاد نعرف شيئاً عنه.

بمثل هذه الطريقة نرى. بمثل هذه التقلبات في مشاعرنا.

("أنا في الثانية والعشرين من عمري. سأتمها في نهاية شهر أكتوبر. الحياة

ممتعة جدًا، على الرغم من وجود عدد كبير من الحمقى للأسف. على المرء أن يركز على شيء أو آخر - الله يعلم ما هو. كل شيء رائع حقًا. - باستثناء الاستيقاظ في الصباح وارتداء السترة الخطافية⁽¹⁾).

"قل لي يا بونامي، ما رأيك في بيتهوفن؟"

("بونامي زميل مدهش. إنه يعرف كل شيء تقريبًا - ليس أكثر مما أعرفه عن الأدب الإنجليزي - ولكنه يقرأ كل هؤلاء الفرنسيين.")

"أشك أنك تهزل يا بونامي. على الرغم مما تقوله عن المسكين تينيسون⁽²⁾ العجوز...".

("الحقيقة كان على المرء أن يتعلم الفرنسية. الآن، أفترض، أن العجوز بارفوت يتحدث إلى والدتي. أمر غريب أن أكون متيقنًا منه. لكن لا يمكنني رؤية بونامي هناك. تبًا للندن!") أما عربات السوق فكانت تتحرك بتناقل في الشارع.

"ماذا عن تمشية يوم السبت؟"

("ماذا عندي يوم السبت؟")

(1) A tailcoat هو معطف بطول الركبة بجزء أمامي مستدير، بحيث يبقى الجزء الخلفي منها طويلًا، والمعروف بالذيل.

(2) شاعر إنجليزي من أبرز شعراء القرن التاسع عشر، عين شاعرًا للبلاط 1850 ومن أشهر أعماله قصيدة "الذكرى" وديوانه الشعري "الأميرة" نظم عدة قصائد في المناسبات مثل "أناشيد الملك" ويعد تينيسون أستاذًا للشعر الغنائي كما يعد الشاعر الذي يمثل عصره.

ثم، بعد أن أخرج دفتر ملاحظاته، تحقق من أن حفل أسرة دورانت سيكون الأسبوع المقبل.

ولكن على الرغم من أن كل هذا قد يكون صحيحًا تمامًا - فكر يعقوب وتحدث - شبك ساقيه - حشا غليونه - رشف كأسه، وبمجرد أن نظر إلى مفكرته، وهو يهوش شعره أثناء ذلك، كان ما يزال هناك شيء لا يمكن نقله إلى شخص ثانٍ إلا عن طريق يعقوب نفسه. علاوة على أن جزءًا منه لا يخص يعقوب بل ريتشارد بونامي - الغرفة؛ عربات السوق؛ ساعة من الزمن؛ اللحظة التاريخية تحديدًا. ثم فكر في تأثير الجنس - كيف تتردد أمواجه بين الرجل والمرأة، مرتعشة، هكذا يوجد هنا وادٍ، هناك قمة، بينما في الحقيقة، قد يكون كل شيء مسطحًا مثل ظاهر يدي. حتى الكلمات الدقيقة تتخللها نبرة خاطئة. ولكن هناك شيئًا ما يجبرك دائمًا على التذبذب، مثل فراشة الصقر، على باب كهف الغموض، وتزويد يعقوب فلاندرز بكل الصفات التي لم يملكها على الإطلاق - لأنه بالتأكيد، بالرغم من أنه جلس يتحدث إلى بونامي، فإن نصف ما قاله كان مملاً جدًا بحيث تتعذر إعادته؛ يتعذر فهمه (عن أشخاص مجهولين والبرلمان)؛ وأما الباقي فكان في معظمه مجرد تخمين. مع ذلك نقعي فوقه مذبذبين.

"نعم"، قال الكابتن بارفوت، وهو ينفض غليونه على نتوء جانب موقد بيتي فلاندرز، ويزرر معطفه. "إن ذلك يضاعف العمل، لكنني لا أمانع." لقد أصبح الآن رئيس مجلس المدينة. تطلعا إلى الليل، الذي كان مثل

ليل لندن، إلا أنه أكثر شفافية على نحو رائع. أجراس الكنيسة في المدينة دقت الحادية عشرة. توقف هبوب الرياح من البحر. وأظلمت نوافذ غرف النوم جميعها - نام آل بادج. نام آل جارفيت؛ نام آل كرانش، بينما في لندن في هذه الساعة كانوا يحرقون جاي فوكس⁽¹⁾ على قبة البرلمان.

(1) جاي فوكس Guy Fawkes: (13 إبريل 1570 - 31 يناير 1606) كان عضواً في مجموعة الكاثوليك الإنجليزية الإقليمية والتي خططت لمؤامرة البارود الفاشلة عام 1605. لاغتيال الملك جيمس الأول واستعادة الملك الكاثوليكي للعرش. قام مخططو مؤامرة البارود بتأجير غرفة مُقْبَاة أسفل مجلس اللوردات، وعين جاي مسؤولاً عن البارود المخزن هناك، وفيما بعد استلمت السلطات رسالة من مجهولٍ حفزتها على تفتيش قصر وستمنستر خلال الساعات الخمس الأولى من يوم 5 نوفمبر، حيث وجدت جاي يحرس المتفجرات، وفي الأيام القليلة التالية، استُجوب جاي وعُذب حتى اعترف بكل شيء في النهاية. مباشرة قبل إعدامه في 31 يناير، سقط جاي عن السقالة التي كان يُفترض أن يُشنق عليها ويكسر عنقه، مما جنبه ألم الشنق المُفترض. أصبح اسم جاي مرادفاً لمؤامرة البارود وفشلها الذي يحتفل به في بريطانيا منذ 5 نوفمبر 1605، حيث تُحرق صور جاي بشكل تقليدي في مشعلة نار كبيرة، ويرافقها عرض للألعاب النارية. واستخدم قناعه على شكل دُمى في ليلة البون فاير أو كما تسمى أيضاً ليلة جاي فوكس.

الفصل السادس

اشتعلت النيران إلى حد ما.

"ها هي كنيسة القديس بولس!" هتف شخص ما.

حين اشتعل الحطب، أضاءت مدينة لندن للحظة؛ على الجوانب الأخرى للنار تراءت الأشجار. من بين الوجوه التي ظهرت متوهجة وزاهية ومصطبغة بالأصفر والأحمر، كان أكثرها وضوحًا وجه فتاة. بمرواحة ضوء اللهب ظهرت بلا جسد. علق الشكل البضاوي للوجه والشعر بجوار النار مع فراغ أسود في الخلفية. كما لو أن الوهج قد بهرها، شخّصت عينها بلونها الأخضر المزرق إلى النار. توترت كل عضلة في وجهها. شيء مأساوي بدا في تحديقها تلك - يتراوح عمرها بين العشرين والخامسة والعشرين.

يدامتدت من الظلام المتقلب حشرت في رأسها قبعة المهرج المخروطية البيضاء. ظلت تحديق وهي تهز رأسها. ظهر وجه بشارب فوقها.. ألقوا برجلي طاوله في النار وحفنة من الأغصان والأوراق. اشتعلت كلها بالنيران وأظهرت مرة أخرى وجوهًا بعيدة، مستديرة، شاحبة، ملساء،

مشعرة، بعضها يرتدي قبعات لِبَّادِيَّة مستديرة؛ في كامل الانتباه؛ أظهرت كذلك كنيسة القديس بولس طافية على الضباب الأبيض المتفرق، وبرجين أو ثلاثة تنسحب بضيق على شكل طفاية حريق فارغة كورقة بيضاء.

كانت النيران تشق طريقها عبر الأخشاب وتتلظى عندما، يعلم الله وحده من أين، قذفت دلاء من المياه بأشكال مجوفة براقة، مثل ظهر سلحفاة لامع؛ قذفت مرارًا وتكرارًا؛ إلى أن أصبح الهسيس مثل سرب من النحل؛ واختفت الوجوه كلها.

"يعقوب"، قالت الفتاة، وهم يقطعون التل في الظلام، "أنا تعيسة جدًا!" انطلقت انفجارات من الضحك من الآخرين - عالية، منخفضة؛ بعضها سبق بعض، والبعض الآخر تلاها. كانت صالة الطعام بالفندق ساطعة الإضاءة. ورأس ظبي في الجص عند نهاية الطاولة؛ في الجانب الآخر، وثمة تمثال نصفي روماني بالأسود والأحمر يمثل جاي فوكس، الذي كانت هذه ليلته.

رُبط من يتناولون العشاء بشرائط طويلة من الورد الورقي، لذا حين شرعوا في غناء "نشيد الوداع" بأيديهم اشتبك شريط الورد الوردية مع الصفراء ووقعوا جميعًا على الطاولة.

نقرات مدوية من كؤوس النبيذ الخضراء. وقف شاب، تناولت فلورندا،

كرة من الكرات الأرجوانية الموضوعة على الطاولة، وقذفتها في رأسه مباشرةً. فتهشمت إلى مسحوق.

"أنا تعيسة جداً!" قالت وهي تستدير إلى يعقوب الجالس جانبها. انزلقت الطاولة، كما لو كانت على أرجل غير مرئية، إلى جانب الغرفة، واهتز الأرغن اليدوي المزين بقطعة قماش حمراء وأصيصين بهما زهور ورقية بتأثير موسيقى الفالس.

لم يستطع يعقوب الرقص. وقف مستنداً إلى الحائط يدخن غليونه. "نعتقد" قال اثنان يرقصان، انفصلا عن البقية، وهما ينحنيان أمامه بشدة، "إنك أجمل رجل رأيناه على الإطلاق".

طففا يكللان رأسه بورد ورقي. وجلب واحد منهما كرسيّاً أبيض ومذهباً وأجلسه عليه. وفي مرورهم، علق بعض الأشخاص عناقيد زجاجية على كتفيه، حتى بدا مثل تمثال في مقدمة سفينة غارقة. ثم جلست فلورندا على ركبته وخبأت وجهها في صدريته. بيدٍ واحدة أمسكها؛ وبالأخرى، غليونه.

"والآن فلتحدث"، قال يعقوب وهو يصعد تل هافرستوك هيل بين الساعة الرابعة والخامسة صباح السادس من نوفمبر متأبطاً ذراع تيمي دورانت، "في شيء جاد".

الإغريق - نعم، هذا ما تحدثنا عنه - كيف بعد كل ما حدث وقيل،

وبعد أن تذوق المرء آداب العالم كلها، بما في ذلك الأدب الصيني والأدب الروسي (لكن هؤلاء السلاف⁽¹⁾ ليسوا متحضرين)، فإن نكهة الإغريق هي ما تبقى. استشهد دورانت بأشيلوس - يعقوب بسوفوكليس. صحيح أنه لا إغريقي أمكن فهمه أو أستاذ جامعي تولى عن إبرازه - لا يهم. ما جدوى الأدب اليوناني إن لم يكن الصياح به من فوق تل هافرستوك فجراً؟ فضلاً عن أن دورانت لم يستمع إلى سوفوكليس، ولا يعقوب أصغى إلى أشيلوس.

كانا مزهوين بذاتيهما، منتشيين بالنصر؛ بدا لكل منهما أنه قرأ كل كتاب في العالم؛ عرف كل خطيئة، وعاطفة، وبهجة. انتصبت الحضارات حولهما مثل زهور جاهزة للقطاف. انسابت الأزمنة عند أقدامهما مثل أمواج ملائمة للإبحار. وباستقصاء كل هذا، لاح في الأفق عبر الضباب، والأضواء، وظلال لندن، انحياز الشابين للأدب اليوناني.

"أظن" قال يعقوب: "إننا الشعب الوحيد في العالم الذي يقدر الفكر اليوناني".

شربا القهوة السوداء في كشك كانت الأقداح فيه ملمعة وثمة مصابيح صغيرة مضاءة على طول المنضدة.

في حديث يعقوب إلى رجل عسكري مهذب، حارس الكشك الذي

(1) السلاف أو الصقالية هم مجموعة إثنية لغوية هندو أوروبية يتحدثون باللغات السلافية المتنوعة للمجموعة اللغوية البلطيقية السلافية الأكبر.

حكى له عن ابنه في جبل طارق، أدان يعقوب الجيش البريطاني وأشاد بالدوق ولنجتون. وواصل مرة أخرى وهما يهبطان التل حديثهما عن الإغريق. أمر غريب -عندما تفكر فيه- هذا الشغف بالأدب اليوناني، الذي يزدهر في مثل هذه الظلمة، التحريف، التشييط، ما يزال يقفز فجأة، وبخاصة حين تغادر القاعات المكتظة، أو عقب فورة في طباعة الكتب، أو حين يحلق القمر بين أمواج التلال، أو في أيام لندن الخاوية، الشاحبة، المجدبة، مثل شيء مميز؛ مثل شفرة خالية من الشوائب، يقفز دومًا مثل معجزة.

لم يكن يعقوب يعرف من اللغة اليونانية أكثر مما ينقذه من التعثر في قراءة مسرحية. ومن التاريخ القديم لم يكن يعرف شيئًا. ومع ذلك، بينما كان يتسكع في لندن، بدا له أنها جعلت الحجارة على الطريق المؤدي إلى الأكروبوليس⁽¹⁾ تصدر رنينًا، ولو أن سقراط كان قد لمحهما قادمين لأسرع وقال: "زميلاي العزيزان"، فرقة مشاعر أثينا تتماهى مع مشاعره؛ طليقة، مغامرة، مبهجة... لقد نادته بـيعقوب دونما تكلف. جلست على ركبته. هذا ما فعلته كل الجميلات في زمن الإغريق.

(1) أكروبوليس أو أكروبول هي هضبة صخرية عالية وسط أثينا. يأتي مصطلح "أكرو" من صفة (العلو والارتفاع) واسم "بوليس" من (مدينة أو بلدة)، وهذا يعني أن "أكروبوليس" معناها "المدينة المرتفعة". وهو معبد يوناني قديم يقع في العاصمة اليونانية أثينا على قمة تل، يعد من أشهر المعابد اليونانية القديمة وكلمة أكروبوليس Acropolis كلمة يونانية قديمة تعني المدينة العالية، وقد اعتاد اليونانيون القدماء لبناء أكروبوليس لكل مدينة ذات أهمية، وكان الأكروبوليس في أثينا له الشأن الأعظم من بين جميع المعابد في المدن اليونانية القديمة، وفي حالة الغزو الخارجي كان اليونانيون يتخذون الأكروبوليس قاعدة حصينة يقاومون القوات الغازية حتى النهاية. أضيف الموقع عام 1987 إلى قائمة اليونسكو للتراث العالمي.

في هذه اللحظة، انتشر في الهواء عويل متهدج مرتعش حزين، بدا أنه يفتقر إلى القوة ليأخذ مداه، ومع ذلك امتد وقتاً؛ لدى سماعه انفتحت أبواب في شوارع خلفية على مصراعيها فجأة؛ جرجر العمال سيقانهم منصرفين إلى أعمالهم.

كانت فلورندا مريضة.

دونت مدام دورانت، في أرقها المعتاد، علامة بجانب بعض السطور في جحيم دانتي⁽¹⁾.

نامت كلارا ورأسها مدفونة في وسائدها؛ على تسريحتها - ورد مبعر وزوج من القفازات البيضاء الطويلة.

وهي ما زالت ترتدي قبعة المهرج البيضاء المخروطية، كانت فلورندا مريضة.

بدت غرفة النوم مصممة لمثل هذه الكوارث - زهيدة، بلون الخردل، نصف سندرة، نصف إستوديو، مزخرفة بنجوم من الورق الفضي بشكل غريب، وقبعات الرأس الويلزية⁽²⁾، ومساح متدلّية من حامل الغاز. أما

(1) الجحيم (بالإيطالية: Inferno) هي الجزء الأول من القصيدة الملحمية الكوميديا الإلهية التي ألفها دانتي أليغييري في القرن الرابع عشر.

(2) قبعة ويلز أو ويلش ترتديها النساء كجزء من الزي الوطني الويلزي وهي قبعة طويلة على طراز المدخنة، لا يزال يرتديها النساء، وخاصة تلميذات المدارس في ويلز في عيد القديس ديفيد.

عن قصة فلورندا، فرسام هو من منحها اسمها، أراد أن يشير إلى أن زهرة عذريتها لم تُقطف بعد. وحتى وإن صح ذلك، فقد كانت بلا لقب، ولم يتبق من والديها سوى صورة على شاهد قبر، قالت، إن والدها مدفون أسفله. كانت في بعض الأحيان تتحدث عن حجمه، والشائعة التي تقول إن والد فلورندا مات من نمو في عظامه الذي لم يستطع أي شيء أن يوقفه؛ كما حظيت أمها بثقة سيد من الأسرة المالكة، وبين الحين والآخر، كانت فلورندا أميرة، ولكن بشكل أساسي عندما تشمل. وهكذا كانت مهملة، جميلة فوق كل ذلك، بعينين حزينتين وشفتي طفل، تتحدث عن العذرية أكثر مما تفعل معظم النساء؛ ولم تفقدها إلا ليلة أمس، أو تكتمها وراء القلب في صدرها، وفقاً للرجل الذي تتحدث إليه. لكن أكانت تتحدث دائماً مع الرجال؟ لا، كان لها صديقة مقربة: الأم ستيوارت. ستيوارت، كما أوضحت السيدة، هو اسم منزل ملكي؛ لكن ماذا يعني، وماذا كان عملها، لا أحد كان يعلم؛ ليس إلا أن السيدة ستيوارت تستقبل حوالات بريدية صباح كل اثنين، ولديها بغاء، وتؤمن بتناسخ الأرواح، وتستطيع أن تقرأ الطالع بأوراق الشاي. كانت مثل ورق حائط قذر في منزل مستأجر خلف عفة فلورندا.

ها هي فلورندا تبكي وتمضي النهار تتجول في الشوارع؛ وقفت في تشيلسي تراقب النهر الذي يمر سريعاً؛ مشت متثاقلة على طول شوارع التسوق؛ فتحت حقيبتها ومكيجت خديها في الحافلات؛ قرأت رسائل غرامية، سندها إلى وعاء الحليب في متجر إيه. بي. سي؛ اكتشفت قطعة

زجاج في السكرية؛ اتهمت النادلة برغبتها في تسميمها؛ تحققت بأن الشباب يحملون إليها؛ ووجدت نفسها قرب المساء تتسكع في شارع يعقوب، حينها أدركت فجأة أنها أحبت ذلك الشاب يعقوب أكثر من اليهود القذرين، وجلست إلى طاولته (كان ينسخ مقالته عن أخلاقيات الفحش)، شدت قفازها من يديها لتخلعه وحكت له كيف أن الأم ستوارت ضربتها على رأسها بغطاء إبريق الشاي.

صدق يعقوب حديثها عن طهارتها. كانت تثرثر، وهي تجلس قرب المدفأة، عن رسامين مشهورين. ذكر قبر والدها. برية وهشة وجميلة كانت تبدو، كما كانت نساء الإغريق، جال بخاطر يعقوب؛ وهذه كانت الحياة؛ وهو نفسه رجل وفلورندا طاهرة.

غادرت بديوان قصائد شيلي تحت ذراعها. السيدة ستوارت، قالت، كثيرًا ما تحدثت عنه.

يدهشنا البريء. أن يصدق أن الفتاة ترفعت عن كل كذب (لأن يعقوب لم يكن أحق كي يصدق الأشياء على إطلاقها)، أن يتعجب من الحياة غير المستقرة بحسرة - فحياته تبدو جيدة وحتى آمنة بالمقارنة - أن يحمل في كفه أدواء لكل اضطرابات روح أدونيس ومسرحيات شكسبير؛ أن يكتشف صحبة مفعمة بالحياة من جانبها، حامية من جانبه، وإن تساوت من كلا الجانبين، لأن النساء، فكر يعقوب، على قدم المساواة مع

الرجال - براءة من هذا القبيل مدهشة بما فيه الكفاية، وربما ليست حقًا على الإطلاق.

بمجرد أن وصلت فلورندا إلى بيتها في تلك الليلة، غسلت رأسها أولاً؛ ثم أكلت شوكولاتة بالكريمة؛ ثم فتحت شيلي. صحيح أنها شعرت بملل فظيع. عن أي شيء على وجه الأرض يتحدث هذا؟ كان عليها أن تراهن نفسها أنها ستقلب الصفحة قبل أن تأكل أخرى. في الحقيقة لقد سقطت في النوم. ولكن بعد أن قضت يومًا طويلاً، وقذفتها الأم ستيوارت بغطاء إبريق الشاي؛ - هناك مشاهد صعبة في الشوارع، وعلى الرغم من أن فلورندا كانت جاهلة مثل بومة، ولن تتعلم أبدًا قراءة رسائلها الغرامية بشكل صحيح، فلم تزل لها مشاعر، تحب شخصًا أكثر من غيره، وهي بكاملها رهن إشارة من الحياة. أما ما إذا كان مهمًا أن تكون عذراء أم لا، أم أنه غير مهم بتاتًا. إلا إذا كان هذا بالفعل الشيء الوحيد الذي له أي أهمية على الإطلاق.

كان يعقوب مضطربًا عندما تركته.

طوال الليل يحتاج الرجال والنساء صعودًا وهبوطًا بالخفقان المعروف. يمكن للعائدين إلى بيوتهم في وقت متأخر أن يروا ظلالًا على الستائر حتى في أكثر الضواحي احتشامًا. لا زاوية في الثلج أو في الضباب تخلو من شهوة عاشقين. المسرحيات جميعها تثير الموضوع نفسه. الرصاص يخرق الرؤوس في غرف النوم كل ليلة تقريبًا لذلك السبب. وحين ينجو الجسد

من التشويه، فنادرًا ما يذهب القلب إلى الضريح دونما ندبة. وبالكاد تتناوله المسارح والروايات الرائجة. ومع ذلك نقول إنه أمر ليس من الأهمية بمكان.

ما الأمر مع شكسبير وأدونيس وموزارت والأسقف بيركلي⁽¹⁾ - اختر من يروق لك - الحقيقة مستورة، والأمسيات تمضي بالنسبة إلى معظمنا باحتشام، أو فقط مع نوع من الرجفة التي يسببها انزلاق ثعبان عبر العشب. لكن التعمية في حد ذاتها تصرف الذهن عما يُكتب أو يُقال.

إن كان لدى فلورندا عقل، لقرأت بعيون أكثر وضوحًا مما نستطيع. إذ قامت هي ومن هن على شاكلتها بحل المعضلة من خلال تحويلها إلى شيء تافه من قبيل غسل اليدين ليلاً قبل الذهاب إلى الفراش، الصعوبة الوحيدة تكمن فيم إذا كنت تفضل أن يكون مأوك ساخنًا أو باردًا، والتي يتم حلها، بوسع العقل أن يباشر مهامه دون أن يداهمه أمر مفاجئ. لكن هذا طرأ ليعقوب، أثناء تناول العشاء، متسائلًا عما إذا كان لديها عقل يفكر.

جلسوا على طاولة صغيرة في المطعم.

أسندت فلوريدا مرفقيها إلى الطاولة وأمسكت قوس ذقنها بيديها.

(1) جورج بيركلي كان فيلسوفًا بريطانيًا-أيرلنديًا وأسقفًا أنجليكانيًا يعتبر من أهم مساندي الرؤية الجوهرية في القرن الثامن عشر الميلادي، ادعى بيركلي أنه لا يوجد شيء اسمه مادة على الإطلاق وما يراه البشر ويعتبرونه عالمهم المادي لا يعدو أن يكون مجرد فكرة في العقل بفعل الإدراك وبغياب الإدراك تغيب المادة.

انزلق معطفها خلفها. بدا مذهباً وأبيض بالخرز المتلألئ فوقه، تفتح وجهها من جسدها كزهرة، بريئاً، مخضباً على نحو طفيف، وعينان تنظران حولها بجرأة، أو تستقران ببطء على يعقوب وتتوقفان هناك. تكلمت:

"هل تعلم أن الصندوق الأسود الكبير تركه الأسترالي في غرفتي منذ زمن بعيد؟... أظن الفرو يجعل المرأة تبدو من زمن عتيق... ذاك هو بيتش ستين الذي يدخل الآن... أتساءل كيف كنت تبدو عندما كنت صغيراً يا يعقوب." قضمت من لفتها ونظرت إليه.

"يعقوب. إنك تشبه واحداً من تلك التماثيل... أعتقد أن هناك أشياء جميلة في المتحف البريطاني، أليس كذلك؟ الكثير من الأشياء الجميلة..." تحدثت بطريقة حاملة. كانت القاعة تزدهم بالناس؛ ارتفعت سخونة الجو. يشبه حديث المطاعم حديث مترنحين يسرون نياماً، كثير من الأشياء تراها -كثير من الضجيج- آخرون يتحدثون. أيمن لأحد أن يسمعنا؟ أوه، لكن لا ينبغي لأحد أن يسمعنا.

"تلك تشبه إلين ناجل، تلك الفتاة..."، واستمرت في الثثرة.

"أنا سعيدة جداً منذ أن عرفتك يا يعقوب. أنت إنسان رائع."

اكتظت القاعة أكثر فأكثر؛ ارتفعت الأصوات؛ تعالى اصطكاك السكاكين.

"تمام، أنت تعرف أن الذي يجعلها تقول أشياء كهذه هو..."

تسمرت. وكذلك فعل كل واحد.

"غ...دَا...الأحد...حقير... أنت تقول لي... اذهب إذن!" صوت تهشم! إلى الخارج اندفعت بقوة.

على الطاولة جوارهم كان ذاك الحوار الدائر يتصاعد أكثر فأكثر. فجأة هشمت المرأة الأطباق على الأرض. وبقي الرجل. حلق إليه الجميع. ثم - "حسنًا، شاب مسكين، لا ينبغي علينا أن ننظر إليه. كيف ترحل هكذا! هل سمعت ما قالت؟ بحق الله، يبدو أحق! لم يصل الأمر إلى الخمس، أظن. المستردة كلها على مفروش المائدة. الجرسونات يضحكون".

راقب يعقوب فلورندا. بدا له أن في وجهها شيئًا بليدًا جدًّا، وهي جالسة تحملق.

إلى الخارج اندفعت بقوة، المرأة السوداء بريشة ترقص في قبعتها. ومع ذلك فلا بد أن تكون ذهبت إلى مكان ما. الليل ليس محيطًا مظلمًا هائجًا لتغرق فيه، أو تبحر على مياهه كنجمة. كانت ليلة في الواقع من ليالي نوفمبر الممطرة. المصابيح المعلقة أحدثت رقعة واسعة لامعة من الضوء على الرصيف. الشوارع الجانبية مظلمة بما يكفي لإيواء رجل أو امرأة متكئة على مدخل بيت. انتحت واحدة عن الحائط مع اقتراب يعقوب وفلورندا.

"لقد وقع قفازها". قالت فلورندا

أسرع يعقوب من خطوه، وناولها.

شكرته بمبالغة؛ رجعت إلى حيث كانت تقف؛ أوقعت قفازها مرة

أخرى. لكن لماذا؟ من أجل من؟ خلال هذا الوقت، إلى أين وصلت المرأة الأخرى؟ والرجل؟

لا ينتقل ضوء مصابيح الشوارع بعيداً بما يكفي لتتلمصص. الأصوات، المغتظة، الشبهة، اليائسة، المنفعلة، ليست أكثر من أصوات حيوانات حبيسة في الليل. وإن كانوا ليسوا حبيسين، وليسوا عجماء.

أوقف رجلاً؛ سلّه عن الطريق؛ سيصفه لك؛ ولكن المرء يخشى أن يسأل عن الطريق. مم يخشى الإنسان؟ - عين البشر. يضيق الرّصيف في الحال، تتعمق الهوة. هناك! وتبتلعهما - الرجل والمرأة معاً. على مسافة أبعد، بإعلان صاحب عن مدى جدارته، خلف نوافذ بدون ستائر يعرض فندق دليله على سلامة لندن. هناك يجلسون، في إضاءة ساطعة، يرتدون ملابس تشبه ملابس السيدات والسادة، على كراسي من الخيزران. تبرهن أرامل رجال الأعمال على قرابتهن من قضاة. ترد زوجات تجار الفحم على الفور بأن آباءهم كان لديهم عربات بحوذيين. خادم يجلب القهوة، ولا مفر من تحريك سلة الكروشييه. ثم يخيم الظلام مرة أخرى، بعد أن مربفتاة هنا لبيع سلعة، أو بامرأة عجوز هناك تعرض علب ثقاب فحسب، بعد أن مربحشود من محطة مترو الأنفاق، بالنساء المحجبات، بعد أن مر على مساحة ممتدة لا يوجد فيها أحد باستثناء الأبواب المغلقة، بعوارضها المزخرفة، وشرطي منزو، وصل يعقوب، مع فلورندا التي تتأبط ذراعه، إلى غرفته، مضيئاً المصباح، دون أن يصدر عنه بنت شفه.

"لا تعجبني عندما تبدو هكذا". قالت فلورندا.

المشكلة تستعصي على الحل. الجسم يُسخر للرأس. الجمال يسير مع الغباء متشابكي الأيدي. جلست هناك تحديق إلى النار مثلما كانت تحديق إلى وعاء المستردة المهشم. وعلى الرغم من دفاعه عن الفحش، فقد راوده الشك إذا ما كان يروقه في الجهل. اعترته ارتكاسة عنيفة تجاه المجتمع الذكوري، والغرف المنعزلة، والأعمال الكلاسيكية؛ وكل منها كان جاهزاً للانقضاض على من يُمدِّين الحياة على هذا النحو أياً من كان هو.

بعد ذلك وضعت فلورندا يدها على ركبته.

مع كل هذا، لم يكن خطأها. لكن التفكير أغمه. ليست الكوارث، أو جرائم القتل، أو الأموات، أو الأمراض، هي ما تُهرمنا وتُهْلِكُنَا؛ إنما الطَّريقة التي ينظر بها الناس ويضحكون، وهم يصعدون سلاسل الحافلات.

أي عذر، مع ذلك، قد ينطلي على امرأة غبية. لقد أخبرها أنه يعاني من صدام.

لكنها حين نظرت إليه، ببلاهة، بشبه تخمين، بشبه استيعاب، باعتذار ربها، أياً ما كان كما قال هو، "ليس خطئي"، وقفت معتدلة وجميلة بجسمها، وجهها أشبه بصدفة في محارتها، فأدرك أن الأديرة والكلاسيكيات لا جدوى منها. المشكلة تستعصي على الحل.

الفصل السابع

في هذا الوقت تقريباً، قامت شركة تجارية، تتعامل مع الشرق الأقصى بطرح الزُّهور الورقية الصَّغيرة التي تتفتح بملامستها الماء في السوق. ولأنه كان من المعتاد دائماً استخدام أواني شطف الأصابع في نهاية وجبة العشاء⁽¹⁾، فقد اعتبر هذا الابتكار خدمة رائعة. في هذه البحيرات المحمية، كانت الزُّهور الصَّغيرة الملونة تسبح وتنساب بنعومة؛ متغلبة على الأمواج الزلقة الملساء، وفي بعض الأحيان كانت تغوص وتنطرح مثل الحصى على الأرضية الزجاجية. وثمة عيون يقظة وجميلة تتابع مصيرها. إنه بالتأكيد اكتشاف عظيم يؤدي إلى تألف القلوب وتأسيس المنازل الجديدة. لم تفعل الزُّهور الورقية أقل من هذا.

لا ينبغي الاعتقاد، مع ذلك، أنها حلت محل زهور الطبيعة. لقد أطلت الورود والزنابق والقرنفل على وجه الخصوص، من فوق حواف الزَّهريات واستطلعت الحيوانات البراقة والأفولات الوشيكة لقريبتها الاصطناعية.

(1) وعاء الإصبع هو وعاء من الماء يستخدم لشطف أصابع الشخص بعد آخر وجبة رسمية.

بهذه الملاحظة القوية صرح السيد ستيوارت أورموند؛ ولروعة فكرته وقوتها تزوجته كيتي كراستر بعد ستة أشهر. لكن الزهور الحقيقية لا يمكن الاستعاضة بها. إن تمكنوا من ذلك، فستختلف الحياة البشرية برمتها. لأن الزهور تذبل. وأسوأها الأقحوان؛ فهو رائع في الليل. أصفر ومعتل في الصباح التالي - لا يصلح للنظر إليه. عامة، برغم ثمنه الباهظ، فما يزال الأكثر اقتصاداً؛ - ثمة سؤال يطرح نفسه، عما إذا كان من الأفضل شراؤه مدعماً بأسلاك. بعض بائعي الزهور ينصحون بذلك. إنها بالتأكيد الطريقة الوحيدة ليظل صامداً طوال حفل راقص؛ ولكن عما إذا كان ضرورياً في حفلات العشاء، إن لم تكن الغرف شديدة الحرارة، فما يزال موضع خلاف. دائماً ما توصي مدام تيمبل العجوز بوضع ورقة لبلاب - واحدة فقط - في الزهرية. تقول إنها تضمن الحفاظ على الماء نقياً لأيام وأيام. وإن كان لدينا بعض الأسباب للاعتقاد بأن السيدة تيمبل العجوز مخطئة.

ولكن المشكلة الأكثر خطورة من الزهور بكثير، هي تلك الكروت الصغيرة التي ينقشون أسماءهم عليها. لقد أنهكت من أرجل الخيول، واستهلكت من حياة الخوذيين، وأهدرت من ساعات راحة بعد الظهر أكثر مما استلزمه فوزنا في معركة واترلو، ودفعت العواقب في السوق. تلك الشياطين الصغيرة هي مصدر الكثير من المماثلة والكوارث والقلق كما كانت المعركة نفسها. في بعض الأحيان تكون مدام بونهام قد خرجت لتوها؛ في أوقات أخرى تكون في المنزل. ولكن، حتى لو توجب إلغاء الكروت، وهو أمر غير مرجح على ما يبدو، فهناك قوى جامحة تلقي بالحياة

في مهب الريح، وتشوش كد الصباحات، وتقتلع سكيئة فترة ما بعد الظهر من جذورها- إنهم صانعو الملابس، وطهاة الحلوى. ست ياردات من الحرير تكفي لتغطية جسد بأكمله؛ ولكن ماذا لو كان عليك أن تختار من بين ست مئة تصميم منها، وعدد مضاعف من الألوان؟ - ووسط كل هذا يلح عليك سؤال عن حلوى البودينج المزخرفة بباقة من كريمة الفستق ومحاطة بحبات اللوز. لماذا لم تصل بعد.

طيور الفلامنجو⁽¹⁾ ترفرف بلطف لساعات في السماء. لكنها تغمس أجنحتها في القار الأسود بانتظام؛ في نوتينغ هيل⁽²⁾، على سبيل المثال، أو ضواحي كليركينويل⁽³⁾. لا عجب أن الفن الإيطالي ظل متوارياً، وأن البيانو دائماً ما يعزف نفس السوناتة. فقط من أجل شراء زوج واحد من الجوارب المرنة للسيدة بايج، الأرملة، التي تبلغ من العمر 63 عاماً، تتلقى إغاثة خارجية بخمسة شلنات، ومساعدة من ابنها الوحيد الموظف في أعمال السادة ماكي للأصباغ. ويعاني من صدره في فصل الشتاء، وعليها

(1) النحام الأكبر، هو طائر ينتمي إلى نحام وردي، طائر وردي اللون وله أسماء عديدة منها: النحام الكبير، البشاروش، الفلامينجو، فنتير.

(2) نوتينغ هيل (Notting Hill) منطقة في لندن، على مقربة من الزاوية الشمالية الغربية من حدائق كنسينغتون في حي كينسينجتون وتشلسي الملكية، وهو حي عالمي معروف كموقع لكرنفال نوتينغ هيل السنوي، وفيه سوق شارع بورتوبيلو.

(3) كليركينويل (Clerkenwell) هي منطقة في مركز لندن في إنجلترا، وكانت أبرشية مدنية وفي الفترة ما بين 1900 حتى 1965 شكلت جزءاً من ضواحي العاصمة فينسبري، وفي عام 1924 تم اكتشاف بئر فيها وأعيد تسميتها، كما اشتهرت هذه المنطقة بصناعة الساعات وإصلاح الساعات.

أن تكتب الرسائل، وتملأ الخانات بنفس الخط البسيط المدور الذي كتبت به في دفتر يوميات السيد ليتس عن الطقس الجيد، والأطفال الملاحين، ويعقوب فلاندرز البريء. تدبرت كلارا دورانت أمر الجوارب، وعزفت السوناتا، وملأت الزهريات بالورد، وجلبت الحلوى، وتركت الكروت، وعندما اكتُشف اختراع الزهور الورقية العظيمة التي توضع في أواني شطف الأصابع، كانت واحدة من أولئك الذين دهشوا من قصر حيواتها.

لم يعوزنا أيضًا من الشعراء من يحتفي بالموضوع. إدوين ماليت، على سبيل المثال، كتب في ختام قصيدته:

"وتقرأ مصائرها في عيون كلو"

ما جعل كلارا تتورد خجلًا في القراءة الأولى، وتضحك في الثانية، قائلة إن هذا كان شبيهًا به وهو يناديها كلو في حين أن اسمها كلارا. يا له من شاب سخيف! ولكن عندما، بين الساعة العاشرة والحادية عشرة في صباح ممطر، وضع إدوين ماليت حياته عند قدميها هربت من الغرفة واختبأت في غرفة نومها، ولم يستطع تيموثي بالأسفل مواصلة عمله طوال ذلك الصباح بسبب نشيجها في البكاء.

"إلى تلك النتيجة يقودك هوك"، قالت السيدة دورانت بصرامة، وهي تتفحص برنامج الرقص الذي سجل بالأحرف الأولى، أو بالأحرى بحروف مختلفة في هذه المرة - ر. ب. بدلًا من إ. م؛ كان ريتشارد بونامي

هو من يتمتع بشعبية الآن، الشاب ذو أنف ويلنجتون.

قالت كلارا: "لكنني لا أستطيع مطلقاً الزواج برجل بأنف كهذا".
"هذه تفاهة"، قالت السيدة دورانت.

"لكنني قاسية جداً"، فكرت مع نفسها. لأن كلارا، بعد أن فقدت كل مرحها، هشمت برنامج الرقص الخاص بها ورمته في المدفأة.

كانت هذه هي العواقب الوخيمة لاختراع الورد الورقي الذي يوضع في الأواني.

"أستسمحك"، قالت جوليا إليوت، وهي تتخذ مكاناً جانب الستارة المواجهة للبواب، "ألا تقلق عليّ. أفضل المراقبة. ومضت تقول: "الشيء الممتع"، موجهة كلامها إلى السيد سالفين، الذي زوّد بكرسي جراء عرجه، "الشيء الممتع في أي حفلة هو متابعة الناس - يأتون ويذهبون، يأتون ويذهبون".

قال السيد سالفين: "آخر مرة التقينا فيها، كانت في فاركوهارز. سيدتي المسكينة! لديها الكثير لتتابعه."

"ألا تبدو ساحرة؟" صاحت الآنسة إليوت، بينما تمر بهما كلارا دورانت.

"وأي منهن...؟" سأل السيد سالفين، وهو يخفض صوته ويتحدث بنبرة ساخرة.

"هناك الكثيرات..." أجابت الأنسة إليوت. وقف ثلاثة شبان عند المدخل بحثاً عن مضيعة المنزل.

"أنت لا تتذكرين إليزابيث كما أتذكرها." قال السيد سالفين، "وهي ترقص تدويمات هايلاند⁽¹⁾ في بانشوري. كلارا تفتقر إلى روح والدتها. كلارا باهتة قليلاً."

"كم هم مختلفون الناس الذين يراهم المرء هنا؟" قالت الأنسة إليوت. "لحسن الحظ، لسنا أسرى للصحف المسائية"، قال السيد سالفين. "لا أقرؤها أبداً"، قالت الأنسة إليوت، "لا أعرف شيئاً عن السياسة"، أضافت.

قالت كلارا في مرورها على البيانو: "البيانو مدوزن، لكن ربما يتعين علينا أن نطلب من أحد تشغيله".

"هل سيرقصون؟"، سأل السيد سالفين.

"لا يجوز لأحد أن يزعجك"، قالت مدام دورانت بحسم وهي تمر.

"جوليا إليوت. إنها جوليا إليوت" قالت السيدة العجوز هيرت، وهي تمسك بيديها الاثنتين. "يا سيد سالفين. ماذا سيحدث لنا يا سيد سالفين؟"

(1) رقصة هايلاند أو رقص المرتفعات Highland dance أو Highland dancing هو أسلوب للرقص الفردي التنافسي تم تطويره في المرتفعات الإسكتلندية في القرنين التاسع عشر والعشرين في سياق المسابقات في الأحداث العامة.

بكل خبرتي في السياسة الإنجليزية - عزيزي، كنت أفكر في والدك الليلة الماضية - أحد أصدقائي القدامى يا سيد سالفين. لا تخبرني أبدًا أن الفتيات في الأغلب غير قادرات على الحب! لقد حفظت شكسبير عن ظهر قلب قبل أن أصل إلى سن المراهقة يا سيد سالفين!"

"لا تقولي ذلك"، قال السيد سالفين.

"لكنني فعلته"، قالت السيدة هيرت.

"أوه، يا سيد سالفين، أنا آسفة جدًا..."

"سأحرك نفسي إذا تفضلت بمساعدتي"، قال السيد سالفين.

"عليك أن تجلس بجانب والدتي"، قالت كلارا. "يبدو أن الجميع يتوافدون إلى هنا... السيد كالثورب، اسمح أن أعرفك بالآنسة إدواردز."

"هل تسافرين في عيد الميلاد؟"، قال السيد كالثورب.

"إذا أخذ أخي إجازة"، قالت الآنسة إدواردز.

"في أي فوج هو؟"، قال السيد كالثورب.

"الفرسان العشرون"، قالت الآنسة إدواردز.

"ربما يعرف أخي؟" قال السيد كالثورب.

"أخشى أنني لم أنتبه للاسم"، قالت الآنسة إدواردز.

"كالثورب"، قال السيد كالثورب.

"لكن ما الدليل على أن مراسم الزواج تمت بالفعل؟" قال السيد كروسي.
"لا يوجد داع للشك في أن تشارلز جيمس فوكس..." بدأ السيد
بورلي؛ ولكن هنا أخبرته السيدة ستريتون أنها تعرف أخته جيداً؛ فقد
مكثت معها منذ أقل من ستة أسابيع؛ وتعتقد أن المنزل ساحر ولكنه بارد
جداً في الشتاء.

قالت السيدة فورستر: "إنها المغامرة كما تفعل الفتيات في أيامنا هذه".
نظر السيد باولي حوله، ولمح روز شو تتجه إليها، فطوح يديه، وهتف:
"حسناً!"

"لا شيء!" أجابت. "لا شيء أبداً - على الرغم من أنني تركتهما وحدهما
طوال فترة ما بعد الظهر عن عمد".

"يا إلهي، يا إلهي"، قال السيد باولي، "سأطلب من جيمي طعام الإفطار".
"لكن من يستطيع أن يقاومها؟" صاحت روز شو. "كلارا العزيزة -
أعلم أننا لا يجب أن نحاول منعك..."

قالت كلارا: "أنت والسيد باولي تثرثران بأشياء مروعة، وأنا أعرف".
صاحت روز شو: "الحياة شريرة، الحياة مقرفة!"

"ليس هناك ما يقال عن شيء من هذا القبيل، أهنأك ما يقال؟"، قال
تيموثي دورانت ليعقوب. "النساء تحبه".

"تحب ماذا؟"، قالت شارلوت وايلدنغ، في قدومها إليهما.

"من أين جئت؟"، قال تيموثي، "على ما أظن كنت تتناولين الطعام في مكان ما".

قالت شارلوت: "ولم لا".

"لينزل الجميع إلى الطابق السفلي"، قالت كلارا، وهي تمر. "خذ معك شارلوت يا تيموثي. مرحبًا سيد فلاندرز".

"أهلاً سيد فلاندرز"، قالت جوليا إليوت، وهي تمد يدها. "ما أحوالك؟"
"من تكون سيلفيا؟ من تكون؟ التي يتغنى بها كل عشاقنا؟" غنت إليزابيث سيدونس.

كان كل واحد يقف مكانه، أو يجلس إن وجد كرسيًا شاغرًا.

"آه"، تنهدت كلارا، التي كانت تقف وقتئذ جوار يعقوب.

"إذن فلنغني لسيلفيا، فسيلفيا رائعة؛ إنها أروع بشري يسكن تلك الأرض الكئيبة. فهلموا نجلب لها الأكاليل"، غنت إليزابيث سيدونس.

"آه!" صاحت كلارا بصوت عالٍ وصفقت بيديها داخل القفازين؛ وصفق يعقوب بيديه العاريتين؛ ثم تحركت إلى الأمام ووجهت الناس للدخول من الرواق.

"هل تعيش في لندن؟" سألت الأنسة جوليا إليوت.

"نعم"، قال يعقوب.

"في شقة مؤجرة؟"

"نعم."

"ها هو السيد كلوتربوك. دائماً ما تجد السيد كلوتربوك هنا. أخشى ألا يكون سعيداً في بيته. يقولون إن السيدة كلوتربوك..." أخفضت صوتها. "هذا هو السبب في بقاءه مع أسرة دورانت. هل كنت هناك عندما أدوا مسرحية السيد وورتل؟ أوه، لا، بالطبع لا - في اللحظة الأخيرة، سمعت - كان عليك الذهاب إلى والدتك، أتذكر، في هاروجيت - في اللحظة الأخيرة، حين كنت أقول، حين كان كل شيء جاهزاً تماماً، الملابس وكل شيء - الآن شرعت إليزيث في الغناء مرة أخرى. كلارا تعزف الموسيقى المصاحبة أو تقلب الصفحة للسيد كارتر، على ما أعتقد. لا، السيد كارتر يعزف بمفرده - إنه باخ"، همست، بينما يداعب السيد كارتر أول الأزرار.

"هل تحب الموسيقى؟" قال السيد دورانت.

"نعم فعلاً. قال يعقوب: "أحب سماعها". "لا أعرف أن أعزفها."

قالت السيدة دورانت: "قلة نادرة من تفعل ذلك". "أتجراً أن أقول إنك لم تتعلمها أبداً. لماذا هذا يا سيد جاسبر؟ السيد جاسبر بيجام، السيد فلاندرز. لماذا لا يتعلم أي شخص أي شيء يحتاج معرفته، يا سيد جاسبر؟" تركتهم واقفين مستندين إلى الحائط.

لم يقل أي من السادة أي شيء لمدة ثلاث دقائق، على الرغم من أن يعقوب قد تحرك خمس بوصات إلى اليسار، ثم بعد ذلك عدة بوصات إلى اليمين. ثم إن يعقوب نخر، وعبر الغرفة فجأة.

قال لكلا را دورانت: "ألا تأتين وتأكلين شيئاً؟"

"نعم، آيس كريم. هيا الآن بسرعة،" قالت.

هبطا إلى الطابق السفلي.

لكن في منتصف الطريق التقيا بالسيد جريشام وزوجته، وهربتا تيرنر، وسيلفيا راشليج، وصديق، غامروا بإحضاره من أمريكا، "تعلم أن السيدة دورانت - ترغب أن تري السيد بيلشر. - السيد بيلشر من نيويورك - أقدم لك الأنسة دورانت."

"سمعت عنها الكثير"، قال السيد بيلشر، وهو ينحني.

هكذا تركته كلا را.

الفصل الثامن

حوالي التاسعة والنصف كان يعقوب يغادر منزله، خابطاً الباب خلفه بعنف، وخابطاً أبواباً أخرى، يشتري جريدته، يركب حافلته، أو، إذا ما سمح الطقس، يقطعها مشياً مثلما يفعل الآخرون. ينحني رأسه على مكتب، هاتف، كتب مغلقة بجلدة خضراء، مصباح كهربى... "أحتاج إلى فحم جديد يا سيدي؟" ... "كوب شايك يا سيدي". ... حديث عن كرة القدم، والهوتسبير⁽¹⁾، والهارليكينز⁽²⁾. في السادسة والنصف يجلب له عامل المكتب صحيفة ستار؛ تحلق الغربان من غرايس إن⁽³⁾ فوق الرؤوس؛ غصينات رفيعة وهشة في الضباب. وعبر هدير حركة المرور بين الحين والآخر تنطلق صيحة: "النتيجة - النتيجة - الرابع - الرابع"، فيما تتراكم الرسائل في سلة، يوقعها يعقوب، وفي كل مساء تجده، وهو ينزع معطفه المعلق ليرتديه، بعضلة جديدة في دماغه قد تمددت.

-
- (1) توتنهام هوتسبير هو نادي كرة قدم إنجليزي، تأسس في 5 سبتمبر 1882 تحت مسمى نادي هوتسبر، ويقع مقره في شمال العاصمة الإنجليزية لندن.
- (2) نادي هارليكين لكرة القدم Harlequins أو Quins باختصار هو فريق اتحاد الرجبي الإنجليزي.
- (3) نقابة مهنية للمحامين والقضاة في لندن.

ثم، في بعض الأحيان يلعب الشطرنج؛ أو يشاهد فيلمًا في بوند ستريت⁽¹⁾، أو يتمشى طويلًا إلى البيت يتنسم الهواء مع بونامي الذي يتأبط ذراعه، متأملًا، ورأسه ملقاة إلى الوراء، العالم مسرحية، والقمر يبرز قبل مواعده فوق المنحدرات بغية الإطراء، ونوارس البحر التي تحلق عاليًا، ونيلسون على عموده يُمحّص الأفق، والكون سفيتتنا المبحرة.

في الأثناء، تكون رسالة بيتي فلاندرز البائسة، لحقت بالبريد الثاني، وبقيت على طاولة الردهة - وعليها كتبت بيتي فلاندرز اسم ابنها، السيد يعقوب آلان فلاندرز، كما تفعل الأمهات، دفع من الخبر الشاحب، ينم عن طريقة جلوسهن في سكاربورو قرب ضوء اللهب وأقدامهن على حافة المدفأة، حين تُزال أكواب الشاي، ولا يكون بوسعهن قول ما يدور في خلدن، مهما كان، والذي قد يكون على الأرجح - لا تمش مع نساء سيئات، كن ولدا طيبًا؛ ارتد قمصانك الثقيلة؛ وعد إليّ، عد إليّ، عد إليّ.

لكنها لم تذكر شيئًا من هذا القبيل. كتبت: "هل تتذكر الصديقة القديمة الآنسة وارجريف، التي كانت حنونة معك حين أصبت بالسعال الديكي؟" لقد وافتها المنية مؤخرًا، خبر سيئ. سيروقهم أن تكتب إليهم. زارتنى إيلين وقضينا يومًا رائعًا في التسوق. العجوز ماوس أصبح متيبسًا للغاية، وعلينا

(1) بوند ستريت من الشوارع الشهيرة في الوسط إند في لندن. يمتد ما بين أكسفورد ستريت ومنطقة الـ"بيكاديلي". يعرف القسم الشمالي الأقرب إلى "أكسفورد ستريت" باسم "نيو بوند ستريت"، أما القسم الجنوبي فيُشار إليه باسم "أولد بوند ستريت"، يشتهر الشارع عمومًا بمحلاته الراقية جدًا.

أن نساعد في صعود أصغر تل. ربيكا، أخيراً، بعد وقت لا أعرف مدته، ذهبت إلى السيد آدمسون. ثلاثة أسنان، يقول، لا بد من خلعها. الطقس معتدل في هذا الوقت من العام، البراعم الصغيرة تفتحت على أشجار الكمثرى. والسيدة جارفيس أخبرني - "لقد أحببت مدام فلاندرز مدام جارفيس، وكانت دائماً تخبرها أن هذا المكان الهادئ ملائم جداً لها، وعلى الرغم من أنها لم تستمع أبداً إلى شكواها وتقول بعد أن تنتهي من حديثها (وهي تنظر إلى أعلى أو تبلبل خيطها بريقها أو تلحج نظارتها) إن القليل من الخث⁽¹⁾ يلتف حول جذور أزهار السوسن ليحميها من الصقيع، ومزاد باروت الخيري سيقام يوم الثلاثاء المقبل، "لا تنسي"، - كانت مدام فلاندرز تفهم جداً مشاعر السيدة جارفيس؛ كم كانت رسائلها ممتعة، عن مدام جارفيس، بوسع المرء أن يقرأها عاماً بعد عام - الأعمال غير المنشورة للنساء، التي كتبت جوار المدفأة بدفق من الخبر الشاحب، حيث جففه اللهب، بعد اهتراء ورقة النشاف إلى ثقوب وثلوم من سن القلم والخبر المتخثر. ثم الكابتن بارفوت. كانت تسميه بـ "الكابتن"، وتحدث عنه صراحة ولكن بتحفظ. استفسر الكابتن لها عن أرض جارفيت؛ نصحتها بتربية الدجاج؛ يمكنه أن يدر ربحاً مضموناً؛ أو عن إصابته بعرق النساء؛ أو مكوث مدام بارفوت في المنزل لأسابيع؛ أو يتحدث الكابتن عن تدهور الأحوال، فالسياسة، كما كان يعرف يعقوب، يتحدث فيها الكابتن في بعض

(1) الخث ويسميه البعض البيتموس أو البطموس، إلا أن الكلمة العربية المرادفة له هي الخث، وهي نباتات متفحمة توجد بالأراضي الغدقة في المناطق المعتدلة.

الأحيان، مع أفول المساء، عن أيرلندا أو الهند؛ ثم تستغرق مدام فلاندرز في تساؤلاتها عن مورتي، شقيقها، المفقود كل هذه السنوات - هل قبض عليه أهل البلد الذي فيه، هل غرقت سفينته - هل ستخبرها محاكم البحرية؟

ينفض الكابتن غليون، كما يعرف يعقوب، ينفض استعدادًا للرحيل، ينحني بصعوبة ليلتقط بكرة صوف مدام فلاندرز التي تدحرجت أسفل الكرسي. الحديث عن مزرعة الدجاج يظهر مرارًا وتكرارًا، المرأة، حتى وهي في الخمسين، تندفع من أعماق قلبها، مخططة على خلفية المستقبل المضيق أفواجًا من دجاج الليجهورن⁽¹⁾، ودجاج الكوشين الصيني⁽²⁾، ودجاج الأوربنجتون⁽³⁾؛ تشبه يعقوب في ضبابية تخطيطها؛ غير أنها قوية كما كان؛ مرحة ومفعمة بالنشاط، تتحرك بسرعة في أنحاء المنزل، موبخة ربيكا.

بقيت الرسالة موضوعة على طاولة الردهة؛ لأن فلورندا جاءت في تلك الليلة وحملتها إليه، ووضعتها على الطاولة وهي تقبل يعقوب، تعرّف يعقوب على الخط، وتركها هناك تحت المصباح، بين علبة البسكويت وعلبة التبغ. أغلقا باب غرفة النوم خلفها.

(1) دجاج الليجهورن أو "الليغورن" هي سلالة دجاج من سلالات البحر الأبيض المتوسط، تعرف غالبًا باللون الأبيض وعُرفها المائل، وهي سلالة جيدة في إنتاج البيض.

(2) دجاج الكوشين يعتبر من أكثر سلالات دجاج الزينة هدوءًا، لا يسمع له صوت إلا في أثناء وضع البيض ويعتبر من أفضل الدجاج الحاضن للبيض ولون بيضه بني.

(3) دجاج أوربنجتون سلالة مهجنة من سلالة ديوك مينوركا مع دجاج بلايموث روك الأسود، له عرف واحد، وأقدامه خالية من الريش، وهو هادئ وودود.

غرفة الجلوس لا تعي شيئاً ولا تكثرث. الباب مغلق؛ ولكي نفترض أن هذا الخشب، حين يصير، قد ينقل أي شيء باستثناء عبث الفئران وجفاف الأخشاب، فهو افتراض طفولي. هذه المنازل القديمة ليست إلا طوباً وخشباً، مثقلة بعرق الناس، ومجزعة بقذارة البشر.

ولكن لو أن الظرف الأزرق الفاتح الموضوع على علبة البسكويت يحمل مشاعر أم، لتمزق القلب من هذه الطقطقة الخافتة، والحركة المفاجئة. خلف الباب كان الفعل الماجن، بحضوره المرعب، والهلع الذي يعترها عند الموت، أو ولادة طفل. ربما من الأفضل، اقتحام الغرفة والمواجهة، بدلاً من الجلوس في غرفة الانتظار لسماع الصرير الخافت، والحركة المفاجئة، فقلبها تورم، وتحلله الألم. ابني، ابني - هكذا ستكون صرختها، تلفظها لتجنب رؤيته ممدداً مع فلورندا، تلك الرؤية غير المحتملة، المجانية للصواب، بالنسبة إلى امرأة لها ثلاثة أطفال تعيش في سكاربورو. والخطأ يقع على فلورندا. في الواقع، عندما فتح الباب وخرج الاثنان، كانت مدام فلاندرز ستتنقض عليها - لولا أن يعقوب هو الذي خرج أولاً، في رداء نومه، منتعشاً، واثقاً، في تمام الصحة، مثل طفل بعد نزهة في الهواء الطلق، بعين صافية كنعج جارٍ. تبعته فلورندا، وهي تتمطع بكسل؛ تتشاءب قليلاً، تسوي شعرها في المرأة، بينما يقرأ يعقوب رسالة أمه.

دعونا نفكر في ماهية الرسائل، كيف تصل أثناء الإفطار، وفي الليل، بطوابعها الصفراء وطوابعها الخضراء، المخدلة بختم البريد، حين ترى مغلفاً

يخص شخصًا ما على طاولته تدرك مدى السرعة التي تنشطر عنا أعمالنا وتصبح غريبة علينا. ثم تظهر في النهاية قدرة العقل على مغادرة الجسد، وربما نخشى أو نكره أو نرغب في تدمير شبح ذاتنا هذا، المستلقي على الطاولة. ما تزال، هناك رسائل تقول فقط ما رأيك في العشاء في السابعة؛ أخرى تطلب الفحم؛ تضرب موعدًا. الخط المكتوب بالكاد يكون محسوسًا، ناهيك عن الصوت أو التجهم. آه، ولكن عندما يطرق ساعي البريد الباب ويصل الخطاب تبدو المعجزة التي تتكرر على الدوام - محاولة تبادل الكلام. مهيبة هي الرسائل، جريئة بلا حدود، مهجورة، يُساء فهمها.

دونها تتمزق الحياة إربًا. "تعال لتناول الشاي، تعال لتناول العشاء، ما حقيقة هذه القصة؟ أعرفت الأخبار؟ الحياة في العاصمة غاية في المتعة؛ البالية الروسي...". إنها دعامتنا وعكاكيننا. تُشبك أيامنا في بعضها وتجعل من الحياة عالمًا مثاليًا. وإلى الآن، وبعد... عندما نذهب لتناول العشاء، وعندما نضغط على أطراف الأصابع مُعربين عن أملنا أن نلتقي قريبًا في مكان ما، فثمة شك يتسلل على أطراف أصابعه؛ هل هذه هي الطريقة المثلى لملء حياتنا؟ النادرة، المحدودة، التي سرعان ما نمررها بيننا في شرب الشاي؟ تناول الطعام خارج المنزل؟ وتراكم الرسائل الموجزة. وترن الهواتف. وفي كل مكان نذهب إليه تحيطنا الأسلاك والأنفاق لتنقل الأصوات التي تحاول النفاذ قبل أن يتم توزيع البطاقة الأخيرة وينقضي العمر.

"تحاول النفاذ" لأننا حين نرفع الفنجان ونسلم باليد ونعبر عن الأمل،

شيء ما يوسوس، أهذا كل شيء؟ ألن أعرف أبدًا، أشارك، أصل إلى يقين؟ أمصيري طوال أيامي أن أكتب الرسائل، أطلق أصواتًا، تترنح على طاولة الشاي، وتتلاشى في الممر، وتحدد مواعيد، بينما تتناقص أيامنا شيئًا فشيئًا في المجيء وتناول العشاء؟

ما تزال الرسائل جديرة بالاحترام؛ والهاتف جريء، لأن رحلتنا فردية، وإذا تواصلنا معًا بالرسائل الموجزة والهواتف أصبحنا في رفقة، ربما - من يدري؟ - قد يكون بإمكاننا التحدث معًا بالمناسبة.

حسنًا، لقد جربها الناس. كتب بايرون الرسائل. وكاوبر أيضًا. لعدة قرون احتوت طاولة الكتابة، على أوراق مصممة خصيصًا من أجل التواصل مع الأصدقاء. تحول أساتذة اللغة، الشعراء المعمرين، من الورقة التي تصمد إلى الورقة التي تبلى وتهلك، وهم يزيحون صينية الشاي جانبًا، مقتربين من اللهب (من أجل كتابة الرسائل حين يسود الظلام مطوقًا كهفًا مضيئًا بالوهج الأحمر)، يستهدفون الوصول إلى قلب الإنسان ولمسه واختراقه. أذلك ممكن! لكن الكلمات استخدمت مرارًا وتكرارًا؛ ابتذلت، وتركت عرضة لغبار الطريق. إننا نسعى خلف تلك الكلمات العالقة في غصن الشجرة. نأتي عند الفجر ونكتشفها أسفل الورقة، طازجة عذبة المذاق.

كتبت مدام فلاندرز رسائل. كتبتها مدام جارفيس؛ السيدة دورانت أيضًا؛ قامت الأم ستوارت بتعطير صفحاتها بالفعل، ما أضفى عليها نكهة أخفقت اللغة الإنجليزية في توفيرها؛ كتب يعقوب في رسائله المطولة عن

الفن والأخلاق والسياسة إلى الشباب في الكلية. خطابات كلارا دورانت أشبه برسائل طفل. فلورندا - كان الحائل بين فلورندا وقلمها شيئاً لا يمكن اجتيازه. تخيل فراشة، أو بعوضة، أو أياً من الحشرات المجنحة، ملتصقة بغصين، مثقل بالطين، وتتدحرج على طول الصفحة. تهجيتها ركيكة. مشاعرها طفولية. ولسبب ما كانت عندما تكتب تعلن عن إيمانها بالله. ثم كان هناك صلبان - بقع من الدموع؛ واليد نفسها ترتعش ولا تجد خلاصها إلا في الحقيقة - التي كانت دائماً تحرر فلورندا - حقيقة أنها تكثرث. نعم، سواء كان اكتراثها بشوكولاتة الكريمة، والحمامات الدافئة، شكل وجهها في المرأة، فلم يكن بإمكان فلورندا التظاهر بعد الآن بشعور أكثر من تجرع الويسكي. رفضها لعجزها عن ضبط نفسها. الرجال العظماء صادقون، وهؤلاء المومسات الصغيرات، اللاتي يحدقن إلى النار، ويخرجن المكياج، يزينن شفاههن على بعد شبر من المرأة، يمتلكن (هكذا فكر يعقوب) إخلاصاً لا يمكن انتهاكه.

ثم رآها تنعطف في الشارع اليوناني تتأبط ذراع رجل آخر.

غمره ضوء المصباح من رأسه حتى أخمص قدميه. وقف تحته لمدة دقيقة بلا حراك. تلون الشارع بالظلال. توافدت ظلال أخرى، لشخوص بمفردها ومجموعة، ارتعشت عبر الشارع، وطمست فلورندا والرجل.

غمر الضوء يعقوب من رأسه حتى أخمص قدميه. بوسعك أن ترى

رسم الظلال على سرواله؛ الشوك القديم على عكازه؛ رباط حذائه؛ يديه الخاويتين؛ ووجهه.

كان كما لو حجر سقط أرضاً وتشظى إلى غبار؛ كما لو شرر أبيض يتطاير من حجر شحذ رصاصي اللون، الذي كان عموده الفقري؛ كما لو قطار كان يصعد طريقاً متعرجاً، انحرف إلى الأعماق، هاوياً، هاوياً، هاوياً. تراءى هذا في وجهه.

أما ما إذا كنا نعرف ما يدور في ذهنه فتلك مسألة أخرى. بالنظر إلى عشر سنوات تزيد عنه في العمر واختلاف في الجنس، يأتي الخوف منه في البداية؛ نبتله برغبتنا في المساعدة - بالرغم من شعورنا الغامر والمنطق ووقت الليل؛ فالغضب سيتبعه عن كثب - من فلورندا، من القدر؛ ثم ترتفع فقاعة من التفاؤل غير المبرر. "بالتأكيد يوجد ما يكفي من الضوء في الشارع في هذه اللحظة ليحول كل همومنا إلى ذهب!" آه، ما الفائدة من قول ذلك؟ حتى عندما نتحدث وتنظر من فوق كتفك نحو جادة شافتبيري، فإن القدر يغرس فيه ناباً. استدار ليذهب. أما عن مرافقته في عودته إلى غرفته، لا، لن نفعل ذلك.

لكن هذا بالطبع هو بالضبط ما قد يفعله المرء. يدع نفسه تدلف ويغلق الباب، رغم أنها كانت تدق العاشرة فحسب في إحدى ساعات المدينة. لا أحد يستطيع الذهاب إلى الفراش في العاشرة. لا أحد يفكر في الذهاب إلى الفراش. إنه يناير ووقت مقبض، لكن السيدة واغ كانت تقف على

عتبة بابها، كما لو أنها تتوقع حدوث شيء ما. والأرغن اليدوي يعزف مثل عندليب داعر تحت أوراق رطبة. أطفال يركضون في الطريق. هنا وهناك يمكن للمرأة أن يرى تريشة من الخشب البني داخل الرواق... غريبة بما يكفي تلك الطرق التي يواصل الذهن قطعها تحت نوافذ الآخرين. ها هو يتشتت انتباهه برؤية تعريشة من خشب بنية اللون. الآن بسرخص في قدر؛ هنا يرتجل بعض العبارات للرقص مع الأرغن؛ مرة أخرى يخطفه نوع من السعادة بالانفصال عن العالم من رجل مخمور؛ ثم تبتلعها تمامًا الكلمات التي يصيح بها بعض الفقراء عبر الشارع على بعضهم (صريحة جدًا، طازجة جدًا)، لكن خلال كل ذلك، ما يزال يحتفظ بمركز الجذب، شابٌ وحيدٌ في غرفته.

"الحياة بشعة، الحياة مقرفة". صرخت روز شو.

الأمر الغريب في الحياة هو أنه بالرغم من أن طبيعتها اتضحت تمامًا لكل شخص منذ مئات السنين، فلم يترك أحد تفسيرًا مقبولًا لها. لشوارع لندن خريطتها؛ غير أن رغباتنا لم تسجل عليها. ما الذي ستقابله إذا انعطفت حول هذه الزاوية؟

"هولبورن أمامك مباشرة"، يقول الشرطي. آه، لكن إلى أين تتجه لو أنك بدلاً من أن تجاوز الرجل العجوز ذا اللحية البيضاء والميدالية الفضية والكمان الرخيص بهذه السرعة، سمحت له أن يروي قصته، التي تنتهي بدعوة إلى الانتقال إلى مكان ما، إلى غرفته، على الأرجح، قبالة

ميدان كوينز، وهناك يُريك مجموعة من بيض الطيور ورسالة من سكرتير أمير ويلز، وهذا (عليك بتخطي المراحل الوسطى) يقودك إلى ساحل إسيكس في يوم شتوي، حيث يتجه القارب الصغير إلى السفينة، وتبحر السفينة وتترأى أمامك جزر الأزور على مرمى البصر؛ وطيور الفلامنجو تحلق عاليًا؛ وهناك تجلس على حافة المستنقع تشرب كأس روم بانش، منبؤًا من الحضارة، لأنك ارتكبت جرمًا، واحتمالات إصابتك بالحمى الصفراء تتساوى مع عدمها، ثم - املًا السيناريو بما يحلو لك. متكررة مثل نواصي الشوارع في هولبورن تلك الفجوات على طول طرقنا. ومع ذلك نواصل السير أمامنا مباشرةً.

قالت روز شو، التي كانت تتحدث نوعًا ما بطريقة عاطفية مع السيد باولي في حفلة مدام دورانت منذ عدة ليالٍ، إن الحياة شريرة لأن رجلاً يدعى جيمي رفض الزواج بامرأة تدعى (إذا ما أسعفتنا الذاكرة) هيلين آيتكن.

كلاهما كان جميلًا. كلاهما كان شاردًا. تفصل بينهما طاولة الشاي البيضاء بنبات، وطبق البسكويت هو كل ما قدمه إليها. انحنى؛ أمالت رأسها. رقصا. رقص هو على نحو مثالي. جلسا في ركن سري مظلل في الحديقة؛ لا كلمة واحدة قيلت. تبللت وسادتها بالدموع. السيد باولي العطوف والعزيرة روز شو تعجبا وتأسفا. كان لباولي شقة في ألباني. كانت روز تولد من جديد كل مساء حين تدق الساعة الثامنة تمامًا. كان الأربعة بمثابة انتصارات للحضارة، وإن كنت مُصرًّا على أن إجادة الإنجليزية هي جزء

من ميراثنا، فليس بوسع المرء سوى أن يرد بأن الجمال دائماً ما يكون أخرس. إن جمال الذكر حين يقترن بجمال الأنثى يولّد لدى الرائي شعوراً بالرهبة. غالباً ما رأيتهما - هيلين وجيمي - وشبهتهما بالسفن التي تبخر بلا هدف، وخشيت على مركبي الصغير. أو مرة أخرى، هل سبق لك أن شاهدت كلاب الكولي الجميلة تربض على بعد 20 ياردة؟ بينما تناوله كأسه كانت هناك مثل تلك الرجة في خاضرتها. أدرك باولي مغزى دعوة جيمي له لتناول الإفطار. لا بد أن هيلين أفضت بشيء إلى روز. من جهتي، أجد أنه من الصعب جداً تفسير الأغاني بدون كلمات.

والآن جيمي يطعم الغربان في فلاندرز وهيلين تزور المستشفيات. أوه، الحياة شريرة، الحياة مقرفة، كما قالت روز شو.

مصايح لندن ترفع الظلام كما على رؤوس حراب مشتعلة. تتموج الناموسية الصفراء وتنتفخ فوق السرير بعمدانه الأربعة. الركاب في حفلات البريد التي كانت تصل لندن في القرن الثامن عشر كانوا يتطلعون عبر الفروع الجرداء ويرونها تتوهج أسفل منهم. يشتعل الضوء خلف الستائر الصفراء والستائر الوردية وفوق الشراعات وإلى الأسفل في نوافذ البدروم. السوق في الشارع في سوهو⁽¹⁾ شرس بأضوائه. تتألق فيه لحوم نيئة، أكواب

(1) سوهو Soho أحد أحياء لندن، وهو جزء من منطقة تلقب بالطرف الغربي. ويعتبر حياً سياحياً كونه يقع في وسط العاصمة، وبها الكثير من المطاعم إضافة إلى عدد كبير من الشركات لا سيما إستديوهات التسجيل والمؤسسات الإعلامية. يعرف الحي أيضاً بأنه مكان تجمع اللواط والمخشئين إضافة إلى العاهرات - خصوصاً في الليل. ويعد الحي الصيني اللندني أحياناً جزءاً من سوهو.

خزفية، وجوارب حريرية. تلتف الأصوات الأجشة حول مصابيح الغاز المشتعلة. وقفا على الرصيف يزعلان وأذرعهما على خصورهما - السيدان كيتل وويلكنسون؛ جلست زوجتهما في المحل، والفراء يلتف حول رقبتيهما، طاويتين أذرعهما، وعيونهما تفيض بالازدراء. هذه هي الوجوه كما يراها المرء. لا بد أن الرجل الضئيل الذي يشرح اللحم قد قرصص أمام النار في مساكن لا تعد ولا تحصى، وسمع ونظر وعرف الكثير جدًا حتى أنها تبدو منطوقة وحتى بفصاحة من العينين الداكنتين، والشفتين المتدليتين، وهو يشرح اللحم بصمت، ووجهه حزين كشاعر، لم يتغنَ بأغنية قط. نساء متوشحات يحملن أطفالاً بجفون حمراء؛ أولاد يقفون عند زوايا الشارع؛ فتيات ينظرن عبر الطريق - رسوم توضيحية فظة وصور في كتاب نقلب صفحاته مرارًا وتكرارًا كما لو أننا في آخر الأمر ينبغي علينا العثور على ما نبحث عنه. كل وجه، كل متجر، كل نافذة غرفة نوم، كل مسكن عام، وكل ساحة مظلمة هي جزء من فيلم تم تصويره بتلاحق محموم - بحثًا عن ماذا؟ إنه الشيء نفسه مع الكتب. ما الذي نسعى إليه من خلال ملايين الصفحات؟ ما زالت الصفحات تتقلب بأمل - أوه، هنا غرفة يعقوب.

جلس إلى الطاولة يتصفح صحيفة "جلوب". انفردت الورقة الوردية أمامه. أراح وجهه في يده، حتى تجعد جلد وجنته في طيات عميقة. بدا حادًا بشكل رهيب، متأهبًا، وجريئًا. (يا لها من طرق يجتازها الناس في نصف ساعة! ولكن لا شيء بوسعه أن يسعفه. هذه الأحداث هي ملامح مشهدنا الطبيعي. نادرًا ما يفوت الأجنبي الذي يأتي إلى لندن زيارة كنيسة

القديس بولس.) كان يحاكم الحياة. تلك الصحف الوردية والخضراء ما هي إلا صفحات رقيقة من الجيلتين تضغط ليلاً على دماغ العالم وقلبه. تأخذ الانطباع الإجمالي. ألقى يعقوب نظرة عليها. إضراب، قتل، كرة قدم، عثور على جثث؛ صياح من جميع أنحاء إنجلترا في وقت واحد. كم هو بائس أن صحيفة جلوب لا تقدم شيئاً أفضل ليعقوب فلاندرز! عندما يبدأ الطفل بقراءة التاريخ، يتعجب المرء، بحزن شديد، لأن يسمعه يتهجى بصوته الغض الطازج تلك الكلمات القديمة قدم العالم.

ورد خطاب رئيس الوزراء في أكثر من خمسة أعمدة. بعد أن تحسس جيبه، أخرج يعقوب غليونه وراح يحشوه. خمس دقائق، عشر دقائق، خمس عشرة دقيقة مرت. اقترب يعقوب بجريدته من اللهب. رئيس الوزراء يقترح منح أيرلندا حكماً ذاتياً. نفّض يعقوب غليونه. لقد كان يفكر بالتأكيد في الحكم الذاتي في أيرلندا - مسألة معقدة للغاية. وليلة باردة جداً.

الثلج الذي ظل يتساقط طوال الليل، ما يزال يغطي الحقول والتل عند الساعة الثالثة بعد الظهر. برزت جزر من العشب الذابل على قمة التل؛ شجيرات الفرو باتت عبارة عن بقع سوداء، ومن حين لآخر تتخلل رجفة سوداء الثلج حين تسوق الرياح أمامها رشقات نارية من جزئيات متجمدة. كان الصوت كصوت مكنسة تكتسح كل ما أمامها دونها توقف.

تسلل الدفق على جانب الطريق حيث لا يراه أحد. التصقت العصي والأوراق بالعشب المتجمد. كانت السماء رمادية مغبرة والأشجار في

سواد الحديد. عنيدة هي قسوة الريف. في الساعة الرابعة راح الثلج يهطل مرة أخرى. كان اليوم قد مضى بالفعل.

ثمة نافذة مدهونة بالأصفر على بعد قدمين تقريباً في الجهة المقابلة وقفت وحدها تقاوم الحقول البيضاء والأشجار السوداء... عند الساعة السادسة عبر الحقل كان هناك ظل رجل يحمل فانوساً في يده... بقيت كومة من غصينات على حجر، وانفصلت عنه فجأة، وطففت نحو المجرى... انزلقت دفقة من الثلج وسقطت من فرع شجرة التنوب... بعدها كان هناك صرخة ملتاعة... وسيارة تسرع على قارعة الطريق تشق الظلام أمامها. وتسجنه خلفها...

مساحات من الجمود التام فصلت بين كل هذه التحركات. بدت الأرض مستلقية كجثة هامدة... ثم عاد الراعي العجوز متخشباً عبر الحقل. على نحو متصلب ومؤلم كان يسحق الأرض المتجمدة والأرض تنصاع تحت الضغط مثل مطحنة تدار بالأقدام. أصوات الساعات البالية ظلت طوال الليل تعلن عن حقيقة الوقت.

يعقوب، أيضاً، سمعها، وأطفأ اللهب. نهض. تمطع. ذهب إلى فراشه.

الفصل التاسع

جلست كونيسة روكسير على رأس الطاولة وحدها مع يعقوب. كانت الكونيسة لوسي تبدو وهي تتناول الشمبانيا والتوابل على مدى قرنين على الأقل (أربعة، إذا وضعت في اعتبارك معضلة الأنثى)، مفعمة بالعافية. لها أنف مميز للروائح، ممتد، كما لو أنه يستشعرها عن بعد؛ شكلت له الشفة السفلي حافة حمراء ضيقة؛ عيناها صغيرتان، بشعيرات صفراء في حاجبيها، وفك ممتلئ. خلفها (النافذة تطل على ميدان غروسفينور⁽¹⁾) وقفت مول برات على الرصيف، تعرض البنفسج للبيع؛ ومدام هيلدا توماس، تلملم تنورتها، استعدادا لعبور الطريق. إحداهما من والورث⁽²⁾؛ والأخرى من بوتني⁽³⁾. كلاهما ترتدى جوارب سوداء، لكن مدام توماس كانت ملتفة في الفرو. المقارنة بينهم تميل بدرجة كبيرة لصالح الليدي روكسير. مول كانت أكثرهم طرافة، ولكنها عنيفة؛ غبية أيضًا. هيلدا توماس مجاملة معسولة الكلام، وكل إطاراتها الفضية معلقة بشكل مائل؛ أكواب البيض في غرفة

(1) Grosvenor Square هو ميدان في لندن، في حي Mayfair الفاخر.

(2) Walworth هي منطقة في وسط لندن.

(3) بوتني (Putney) منطقة تقع جنوب غرب لندن.

المعيشة؛ والنوافذ مغطاة بستائر سميقة. ليدي روكسبير، مهما كانت عيوب شخصيتها، فهي متسابقة عظيمة في الصيد. استخدمت سكينها بنفوذ، ومزقت عظام دجاجتها بيديها، معتذرة من يعقوب.

"من يمر في تلك العربية؟" سألت بوكسال كبير الخدم.

"إنها عربية الليدي فرتليمير يا سيدي"، ذكرها ذلك بإرسال بطاقة للاطمئنان على صحة صاحب السعادة. عجوز وقحة، فكر يعقوب. كان النبيذ ممتازًا. لقد وصفت نفسها بأنها "امرأة عجوز" - "لطف منك للغاية أن تتناول غداءك مع امرأة عجوز" - وهو ما تملقه. تحدثت عن يوسف تشامبرلين، الذي كانت تعرفه. قالت إن يعقوب لا بد أن يأتي ويلتقيه - إنه أحد مشاهيرنا. ودخلت الليدي أليس مع ثلاثة كلاب في طوق، وركض جاكبي، لتقيل جدته، في حين أحضر بوكسال برقية، وقُدِّم ليعقوب سيجارًا فاخرًا.

قبل لحظة القفز من فوق الحاجز، يتباطأ الحصان بضع ثوانٍ، ينحرف جانبياً قليلاً، يحشد كل طاقته، ويندفع إلى أعلى مثل موجة هائلة، ويهبط بعيداً على الجانب الآخر. تنقوس الأسبجة والسماء في شبه دائرة. ثم كما لو أن جسدك تداخل مع جسد الحصان وكما لو أن قائميك الأماميين قد استطالا مع وثبته تلك، تنطلق مندفعاً في الهواء، ويبدو أن الأرض مرنة، وأجسادنا ليست أكثر من حزمة من العضلات، وإن كنت ممن يجيدون التحكم في أنفسهم أيضاً، فأنت تنتصب بثبات، عينك تقدر النتيجة بدقة. ثم تنتهي التقوسات، تتحول إلى ضربات مطرقة قوية، ترتج بشكل

مفاجئ؛ وأنت تسحب أنفاسك بارتعاش. ملقيًا بظهرك إلى الوراء قليلاً، العيون ملتزمة، الأذان مشرّبة، الشرايين تحقق بقوة تحت طبقة من الجليد، مع انبهار الجميع: "آه! هوه! هاه!" يتصاعد البخار من الخيول وهي تندفع معاً إلى المفترق، حيث توجد لافتة إرشاد، وامرأة تقف في "مريلتها" شاخصة إلى المدخل. والرجل ينهض من حقل الكرنب ليحرق بدوره.

هكذا اندفع يعقوب عبر حقول إسيكس، متخطياً في الوحل، وقد فقد مسار المطاردة، واستمر مع نفسه يتناول السندويتشات، وينظر إلى الأسيجة، وبينما يلحظ من لون الآثار كما لو أنها كُشِطت للتو، لعن حظه.

تناول الشاي في الحانة؛ حيث كانوا جميعهم هناك، يتمازحون، يضربون الأرض بأقدامهم، وهم يقولون: "بعدك"، متحلقين، فظين، مرحين، حمر مثل ألغاد الديوك الرومية، يتفوهون بألفاظ جريئة حتى ظهرت السيدة هورسفيلد وصديقتها الأنسة دودنج عند المدخل بتنويرتيهما المعقودتين عالياً، وشعر مربوط بأنشوطة. ثم قرع توم دودنج النافذة بسوطه. ارتجت سيارة في الفناء. تحرك السادة المولوعون بالمباراة إلى الخارج، ودخل يعقوب البار مع براندي جونز ليدخن مع القرويين. كان هناك جيفونس العجوز الذي فقد عيناً، وكانت ملابسه بلون الطين، وحقيته على ظهره، وأفكاره النيرة مدفونة على بعد أقدام في الأرض بين جذور البنفسج وجذور القراص؛ ماري ساندروز بصندوقها الخشب. وتوم، الابن الغرلسيكستون، أرسل في طلب البيرة، كل هذا على بعد ثلاثين ميلاً من لندن.

سمعت مدام بابوورث، من شارع إندل، بكوفنت جاردن، التي تعمل لدى السيد بونامي في نيو سكوير، في جمعية لنكولن، وهي تغسل أواني العشاء في المطبخ، السيدين الشابين يتحدثان في الغرفة المجاورة. إنه صوت السيد ساندرز مرة أخرى؛ كانت تقصد فلاندرز؛ وحينما يتعذر على امرأة عبوز فضولية أن تسمع الاسم صحيحًا، فما هي الفرصة المتاحة كي تروي النقاش الدائر بأمانة؟ بينما تغمر الأطباق تحت الماء ثم توزعها على كومة أسفل هسهسة الغاز، وتسترق السمع: سمعت ساندرز يتحدث بصوت مرتفع إلى حد ما: "جيد"، قال، و"مطلق" و"عدالة" و"عقاب"، و"إرادة الأغلبية". ثم تكلم سيدها بصوت عالٍ؛ أيدت حجته ضد ساندرز. ومع ذلك، فساندرز شاب وسيم (في تلك اللحظة كانت تدوم جميع فضلات الطعام حول الحوض، وهي تزيلها بيديها الأرجوانيتين الخاليتين من الأظافر تقريبًا). "النساء" - فكرت، وتساءلت كيف يتعامل ساندرز وسيدها مع تلك المعضلة، جفن واحد غاص بشكل ملحوظ وهي مستغرقة في التفكير، فهي أم لتسعة - ثلاثة ولدوا أمواتًا، واحد أصم وأبكم منذ الولادة. أثناء وضع الأطباق في الرف، تناهى إليها صوت ساندرز مرة أخرى ("لم يعط بونامي فرصة كافية للرد"، فكرت). "شيء موضوعي"، قال بونامي؛ و"أرضية مشتركة" و"شيء آخر - كل الكلمات الكبيرة جدًّا، لاحظتها. فكرت في نفسها "قراءة الكتب تفعل ذلك"، وبينما تحشر ذراعيها في سترتها، سمعت شيئًا ما - قد تكون المائدة الصَّغيرة بجوار المدفأة - سقطت؛ ثم صوت ضربات أقدام على الأرض، ضربات، ضربات - كما لو كانا يتصارعان - في

نواحي الغرفة، ما جعل الأطباق تتراقص.

"فطور الغد يا سيدي"، قالتها وهي تفتح الباب؛ وهناك كان ساندرز وبونامي مثل ثورين من الباشان يدفعان بعضهما جيئةً وذهابًا، صانعان ما يشبه مضرًا، وجميع الكراسي ملقاة على الأرض. لم يلحظاها. شعرت بعطف تجاههما. "فطورك يا سيدي"، قالت بينما يقتربان. وشعر بونامي قد نكش بأكمله، وطارت ربطة عنقه، مفكوكة، دفع ساندرز إلى الكرسي، وقال إن السيد ساندرز حطم إبريق القهوة، وكان يلقنه درسًا جيدًا -

كان إبريق القهوة بلا ريب مستلقيًا مكسورًا على بساط المدفأة.

"في أي يوم من هذا الأسبوع عدا الخميس"، كتبت الأنسة بيرى، ولم تكن هذه هي الدعوة الأولى على أية حال. هل كانت كل أيام أسبوع الأنسة بيرى شاغرة عدا يوم الخميس، وهل كانت رغبته الوحيدة هي أن ترى ابن صديقها القديم⁽¹⁾؟ يمتد الوقت مع العوانس الثريات في شرائط بيضاء طويلة. تلك التي يلفنها حولهن لفة، بعد لفة، بعد لفة، بمساعدة خمس خودام، وصيفة، ببغاء مكسيكي جيد، وجبات منتظمة، مكتبة مودي، وزيارات أصدقاء السريعة. لقد تأذت قليلًا بالفعل لأن يعقوب لم يتصل بها.

"والدتك"، قالت "واحدة من أصدقائي القدامى."

(1) تقصد فلاندرز والد يعقوب.

الآنسة روسيتير، التي كانت تجلس جوار المدفأة، تمسك بصحيفة المتفرج⁽¹⁾ بين وجهها واللهب، رفضت أن تأخذ حاجز شبكي للنار، لكنها قبلت أخيراً واحداً. ثم تحدثوا عن الطقس، مراعاة لباركس، المنشغل بترتيب طاوولات صغيرة، تم تأجيل الموضوعات الخطيرة. لفتت الآنسة روسيتير انتباه يعقوب إلى جمال الخزانة.

"ماهرة جداً في انتقاء الأشياء"، قال. لقد عثرت عليها الآنسة بيرى في يوركشاير. تحدثوا عن شمال إنجلترا. حين تكلم يعقوب استمعت كلتاهما إليه. كانت الآنسة بيرى تبحث عن رد مناسب يرضي الرجل لتقوله عندما يفتح الباب وأعلن عن وصول السيد بنسون. الآن أصبح هناك أربعة أشخاص يجلسون في تلك الغرفة. الآنسة بيرى البالغة من العمر 66 عامًا؛ الآنسة روسيتير 42؛ السيد بنسون 38؛ ويعقوب 25.

"تبدو صديقتي القديمة في خير حال كالمعتاد"، قال السيد بنسون، وهو ينقر على قضبان قفص الببغاء؛ في الوقت نفسه امتدحت الآنسة روسيتير مذاق الشاي. ويعقوب يناولهم أطباق مغلوطة. وألمحت الآنسة إلى رغبتها في حديث أكثر حميمية. "أخواك"، استهلت كلامها بصوت هامس.

"آرشر وجون"، أسعفها يعقوب بالاسمين. ثم اغتبطت لتذكرها اسم ريبيكا. وكيف يوماً ما "حين كنتم أطفالاً، كنتم تلعبون في ردهة الصالون"، "لكن ماسك الحرارة مع الآنسة بيرى"، قالت الآنسة روسيتير، وفي الواقع

كانت الأنسة تحتضنه في صدرها. (أكانت، إذن، تحب والد يعقوب؟) "كانت متميزة جدًا" - "ليست جيدة كالمعتاد" - "أعتقد أنها لا تلتزم الحياد تمامًا" قال السيد بينسون والأنسة روسيتر، وهما يتناقشان حول جريدة الـ "ساترداي وستمنستر"⁽¹⁾: ألم يشاركوا بانتظام في المسابقات؟ ألم يربح السيد بنسون ثلاث مرات جنيهاً بريطانيًا، والأنسة روسيتر ربحت في مرة عشرة وستة بنسات؟ كان واضحًا أن إيفرارد بينسون يعاني من ضعف في القلب، ولكنه ما يزال، يحصد الجوائز، يولي اهتمامًا بالبيغوات، يجامل الأنسة بيرى، يستخف بالأنسة روسيتر، وقيم حفلات شاي في غرفته (التي كانت على طراز ويسلر⁽²⁾)، مع كتب جميلة على الطاولات)، كل هذا، أحس يعقوب دون أن يعرفه، جعل منه حميرًا وضيعًا. أما بالنسبة إلى الأنسة روسيتر، فقد كانت تعني وهي شابة بمرضى السرطان والآن ترسم لوحات بالألوان المائية.

"هل ستذهب بهذه السرعة؟" قالت الأنسة بيرى بهمس. "في المنزل بعد ظهر كل يوم، إذا لم يكن لديك شيء مهم، باستثناء الخميس".

"لم أكن أعرف أنك ستترك سيدتك العجوز بهذه السرعة"، قالت الأنسة روسيتر، والسيد بينسون يميل على قفص البيغاء، والأنسة بيرى تتحرك نحو الجرس...

Saturday Westminster (1)

(2) ويسلر هي مدينة كندية تقع في مقاطعة كولومبيا البريطانية.

اشتعلت النيران ساطعة بين عمودين من الرخام الأخضر، وعلى رف الموقد كانت هناك ساعة خضراء تحرسها بريتانيا مستندة إلى رمحها. وفقاً للشكل - فهي عذراء معتمرة قبعة كبيرة تقدم الورد من فوق بوابة الحديقة إلى رجل نبيل يرتدي زيّاً من القرن الثامن عشر. وكلب حراسة يربض ممدداً أمام الباب المتهدم. كانت الألواح السفلية من النوافذ من البلور، والستائر ذات الحلقات الدقيقة من نسيج البلش وخضراء أيضاً.

جلست لوريت ويعقوب وأصابع أقدامهما جوار بعضها في سياج المدفأة، على كرسيين كبيرين مغطيين بنسيج البلش الأخضر. كانت تنورة لوريت قصيرة وساقاها الطويلان الرفيعان مغطيان بجوارب شفافة. داعبت كاحليها بأصابعها.

"ليس بالضبط أنني لا أفهمها"، كانت تقول بكثير من التفكير. "سأذهب وأجرب مرة أخرى."

قال يعقوب: "في أي وقت ستكونين هناك؟"

هزت كتفيها.

"غداً؟"

كلا، ليس غداً.

"هذا الطقس يجعلني أتوق إلى الريف"، قالت وهي تنظر من فوق كتفها إلى المشهد الخلفي للمنازل الشاهقة عبر النافذة.

"تمنيت لو كنت معي يوم السبت"، قال يعقوب.

"اعتدت على التنزه"، قالت. نهضت برشاقة وتروّ. نهض يعقوب. ابتسمت له.

وبينما تغلق الباب وضع هو الكثير من الشلنات على رف المدفأة.

حوار معقول جدًّا بكل ما في الكلمة من معنى؛ غرفة محترمة جدًّا؛ فتاة ذكية. فقط الآنسة نفسها التي قادته إلى الخارج غمزت له، تلك الخلاعة، ذلك الزلزال (الظاهر في العينين في المقام الأول)، الذي يهدد بسكب كيس القمامة بأكمله على الرّصيف، مع صعوبة إحكامه. باختصار، كان ثمة شيء خطأ.

منذ وقت ليس ببعيد، قام العمال بطلاء حرف الـ"ياء" الأخير في اسم اللورد ماكولاي بالذهب، وامتدت الأسماء في صف متصل حول قبة المتحف البريطاني. في الأسفل على عمق كبير، جلس مئات من الأحياء إلى عجلات خشبية ينسخون من الكتب المطبوعة إلى الكتب المخطوطة؛ بين الحين والآخر كانوا ينهضون لمراجعة الكتالوج؛ ثم يعودون إلى أماكنهم في تكتم، بينما من وقت لآخر يقوم رجل صامت بتزويدهم مجددًا بلوازمهم في مقصوراتهم.

وقعت كارثة ضئيلة. اختل توازن كومة الآنسة مارشيمونت وسقطت في مقصورة يعقوب. مثل هذه الأشياء تحدث للآنسة مارشيمونت. ما الذي

كانت تبحث عنه عبر ملايين الصفحات، في ثوبها العتيق المخملي، وشعرها المستعار بلونه الأحمر، بجواهرها وتقرحات يديها؟ في بعض الأحيان، شيء واحد، وأحياناً آخر، لتحقيق من فلسفتها أن اللون صوتاً - أو ربما له علاقة بالموسيقى. لم يكن بمقدورها قول ذلك تماماً، وإن لم يكن بسبب افتقارها للتجربة. كما لن يكون في مقدورها أن تطلب منك العودة إلى غرفتها، لأنها "يؤسفني أنها ليست نظيفة تماماً"، لذلك يجب أن تلحق بك في الممر، أو أن تتخذ مقعداً في هايد بارك لتشرح لك فلسفتها. إن إيقاع الروح يقوم عليها - ("ياللا وقاحة الأولاد الصغار!" ستقول)، والسياسة الأيرلندية للسيد آسكيث، ويدخل شكسبير، "وذات مرة قبلت الملكة ألكسندرا بسماحة نسخة من كتيبي، تقول، وهي تلوح للأولاد الصغار بمهابة ليتعدوا. لكنها تحتاج إلى أموال لنشر كتابها، لأن "الناشرين رأسماليون - الناشرون جبناء". وهكذا، وهي تدفع كوعها في كومة من الكتب انهارت.

بقي يعقوب دون حراك.

لكن فريزر، الملحد، على الجانب الآخر، كان يكره المخمل، أكثر من مرة اقترب منها بمنشوراته، وغادر منزعجاً. كان يكره الغموض - الدين المسيحي، على سبيل المثال، ومزاعم دين باركر العجوز. كتب دين باركر هذا كتباً وقوضها فريزر ك्लीة بقوة المنطق وترك أبناءه دون تعמיד - عمدتهم زوجته سراً في حوض الغسيل - لكن فريزر تجاهلها، واستمر في مناصرة المجدفين، وتوزيع المنشورات، وتوثيق حقائقه في المتحف البريطاني، دائماً

في نفس البدلة ذات المربعات وربطة العنق الحمراء، ولكنه شاحب، ومبقع، وسريع الانفعال. في الواقع، يا لها من مهمة - أن تقوض الدين! كتب يعقوب مقطعاً كاملاً من مارلو.

الآنسة جوليا هيدج، النسوية، انتظرت كتبها. لم تأت. بللت قلمها. نظرت حولها. لفت انتباهها الحرف الأخير في اسم اللورد ماكولاي. وقرأتها كلها حول القبة - أسماء الرجال العظماء الذين يذكروننا - "يا لها من لعنة"، قالت جوليا هيدج، "لماذا لم يتركوا مكاناً لآليوت أو برونتي؟" مؤسف يا جوليا! وهي تبلل ريشة قلمها بمرارة وتترك رباط حذائها مفكوكاً.

عندما وصلت كتبها، انكبت عليها بجهدٍ جبار، لكنها أدركت عبر عصب من أعصاب وعيها الغاضب كيف انكب القراء الذكور على قراءتها بهدوء، وقصور، ومنتهى الجدية. ذلك الشاب على سبيل المثال. ماذا يفعل باستثناء نسخ الشعر؟ وكان عليها أن تراجع الإحصاءات. هناك نساء أكثر من الرجال. نعم؛ ولكن إذا تركت النساء يعملن كما يعمل الرجال، فلسوف توافيهن المنية أسرع. سوف ينقرضن. كانت هذه حجتها. الموت والغبار والمرارة على طرف قلمها؛ ومع تقدم فترة ما بعد الظهر، اختلط اللون الأحمر بعظام خديها، وأشرق ضوء في عينيها.

لكن ما الذي أتى بـ يعقوب فلاندرز ليقراً مارلو في المتحف البريطاني؟

الشباب، الشباب - شيء همجي - شيء متحذلق. على سبيل المثال، هناك السيد ماسيفيلد، هناك السيد بينيت. ألقمهما لنيران مارلو وأحرقهما في محمرة. لا تترك منهما ولا مزقة واحدة. لا تتهاون مع الفئة الثانية. أمقت عصرك. شيد واحدًا أفضل. وكي تشرع في تنفيذ ذلك، اقرأ مقالات مملة بشكل لا يصدق عن مارلو لأصدقائك. من أجل هذا الغرض، على المرء فحص الكتب في المتحف البريطاني. على المرء أن يفعل الشيء بنفسه. من غير المجدي أن نثق في الفيكثوريين، الذين فحسب يتنكرون للحياة أو يروجون لها. إن لحم المستقبل ودمه يعتمد كلية على ستة شبان. وبما أن يعقوب واحد منهم، فقد بدا بلا شك عظيمًا وبهيًا وهو يقلب صفحته، ولم يكن ليروق لجوليا هيدج بالطبع.

ولكن بعد ذلك، دفع رجل ذو وجه ضخم لحيم بورقة نحو يعقوب، وبدأ يعقوب، مستندًا بظهره إلى كرسيه، في حوار هامس مرتبك، وانطلقا معًا (شاهدتهما جوليا هيدج)، وضحكا بصوت عالٍ "كما اعتقدت" وفي الحال كانا قد دخلا القاعة.

لا أحد يضحك في غرفة القراءة. كانت هناك قمصان، همسات، وعطسات مصحوبة باعتذار، وسعال مباغت فج ممت. انتهت ساعة التحصيل تقريبًا. كان المرشدون يجمعون التدريبات. أراد الأطفال الكسولون تمديد الوقت. الجيدون منهم كتبوا باجتهاد - آه، يوم آخر انتهى ولم ينجز فيه إلا القليل! وبين الحين والآخر كان يمكن سماع من بين مجموعة كاملة من البشر تنهيدة

ثقيلة، وبعدها سعل الرجل العجوز البائس بلا تحفظ، وصهلت الأنسة مارشيمونت مثل حصان.

عاد يعقوب في الوقت المحدد لإعادة كتبه. الآن تم استبدال الكتب. انتشرت بعض الحروف الأبجدية حول القبة. ارتص حول القبة قرب بعضهم في حلقة، كل من أفلاطون، أرسطو، سوفوكليس، وشكسبير؛ أدب روما واليونان والصين والهند وبلاد فارس. ضُغِطت ورقة بها قصيدة شعر فوق ورقة أخرى، وُضِع حرف مصقول ناعم فوق حرف آخر بتكثيف في الدلالة، وخليط من السحر.

"يرغب المرء في تناول كوب شايه" قالت الأنسة مارشيمونت. لقد كانت الأنسة مارشمونت بحاجة إلى شايبها، لكنها لم تستطع أن تقاوم إغراء إلقاء نظرة أخيرة على مجموعة "الجين" الرخامية⁽¹⁾. نظرت إليها في مرورها، وهي تلوح بيدها وتغمغم بكلمة تحية أو اثنتين ما جعل يعقوب والرجل الآخر يستديران. فابتسمت لهما بود. لقد تحققت من فلسفتها - أن اللون صوت، أو ربما له علاقة بالموسيقى. وبعد أن انتهت من طقوسها، مشت بعرج لتشرب الشاي. حان وقت الإغلاق. تجمع الجمهور في البهو لاسترداد مظلاتهم.

كان معظمهم طلاب ينتظرون دورهم بنفاد صبر. الوقوف والانتظار بينما يتحقق العامل من الأقراص البيضاء معناه أن تركز للراحة. سيتم

(1) مجموعة كلاسيكية يونانية من التماثيل المصنوعة من الرخام.

العثور لا بد على المظلة. ولكن الحقيقة تسوقك طوال اليوم عبر ماكولي⁽¹⁾، وهوبز⁽²⁾، وجييون⁽³⁾؛ عبر صفحات مقاس ثمن وربيع وفوليو؛ تغرق أعمق وأعمق عبر صفحات من العاج وأغلفة من جلد الماعز في هذه الكثافة من الأفكار، هذا المزيج من المعرفة. كان عكاز يعقوب يشبه عكاكيز الآخرين؛ ربما تبدلت أماكنها لا أكثر.

يوجد في المتحف البريطاني فكر جماعي هائل. تذكر أن أفلاطون يقف لصق أرسطو؛ وشكسبير حذاء مارلو. هذا الكنز الروحي الهائل أبعد من أن يحوزه أي عقل بمفرده. ومع ذلك حين نفكر في الأمر (نظرًا لأن العثور على عكاز يستغرق وقتًا طويلاً) كيف لا يستطيع المرء أن يجلب معه مفكرة، ويجلس إلى مكتب، ويقرأها. إن الرجل المثقف هو الأكثر تبجيلًا - رجل مثل هوكسبيل من كلية ترينتي، يكتب جميع خطاباتة باليونانية، على ما يقال، وبوسعه أن يهزم بنتلي في لعبة الشطرنج. ثم هناك العلم والرسم والهندسة المعمارية - فكر جماعي هائل.

دفعوا العكاز عبر الكونتر. وقف يعقوب تحت شرفة المتحف البريطاني. كانت تمطر. كان شارع روسيل العظيم لامعًا ومضيئًا - هنا بوهج أصفر،

(1) توماس بابنجتون ماكولي المعروف باللورد ماكولي (1800-1859)م، هو سياسي ومؤرخ وشاعر بريطاني.

(2) توماس هوبز (1588-1679) كان عالم رياضيات وفيلسوف إنجليزي.

(3) إدوارد جييون (1737-1794) مؤرخ إنجليزي، صاحب كتاب اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها) الذي يعد من أهم وأعظم المراجع في موضوعه.

هنا، خارج الصيدلية، بوهج أحمر وأزرق فاتح. انطلق الناس مهرولين جانب الحائط؛ قعقت العربات في هرج ومرج إلى حدٍّ ما على أسفلت الشوارع. حسنًا، لكن القليل من المطر لا يضر أحدًا. واصل يعقوب سيره كما لو كان في الريف؛ وفي وقت متأخر من تلك الليلة كان هناك جالسًا على طاولته مع غليونه وكتابه.

هطل المطر بشدة. وقف المتحف البريطاني كرابية صلبة ضخمة، شديد الشحوب، أملس في المطر، لا يبعد عنه بمقدار ربع ميل. كانت العقول النيرة مغطاة بالحجارة؛ وكل مقصورة في أعماقها آمنة وجافة. لم يرَ حراس الليل، وهم يسلطون فوانيسهم على ظهري أفلاطون وشكسبير، في الثاني والعشرين من فبراير أي هب أو جرد أو لص ينتهك حرمة هذه الكنوز - رجال فقراء ومهذبون للغاية، زوجاتهم وعائلاتهم يقطنون في كنتيش تاون⁽¹⁾، لقد بذلوا قصارى جهدهم على مدى عشرين عامًا كي يحموا أفلاطون وشكسبير، وينتهي بهم المطاف بأن يدفنوا في مقابر هاييجيت.

تموضع الحجارة صلبة فوق المتحف البريطاني، كما تتموضع عظام الجمجمة الباردة فوق تخيلات وحمى الدماغ. الدماغ هنا فقط هي دماغ أفلاطون ودماغ شكسبير؛ الدماغ التي صنعت الأواني والتماثيل والثيران العملاقة والمجوهرات الدقيقة، واجتازت نهر الموت من جهة إلى أخرى

(1) كنتيش تاون هي منطقة تقع في شمال غرب لندن، إنجلترا في حي كامدن في لندن، شمال مدينة كامدن مباشرة.

بدأ ببحثاً عن مرسى، هي التي تنطوي أحياناً في نسيج الجسم لتروح في نوم طويل؛ وتضع أحياناً على العينين قطعة من النقود؛ وتوجه أحياناً أصابع القدم بدقة نحو الشرق.

في الوقت نفسه الذي يواصل أفلاطون حوارهِ؛ رغم المطر؛ رغم صفارات عربات الأجرة؛ رغم المرأة في الشوارع الخلفية وراء جريت أورموند التي عادت إلى المنزل ثملة وطفقت طوال الليل تصرخ، "دعوني أدخل! دعوني أدخل!"

في الشارع أسفل نافذة غرفة يعقوب ارتفعت الأصوات.

لكنه واصل القراءة. فبعد كل شيء ما يزال أفلاطون مستمراً في حوارهِ. وهاملت يناجي نفسه. وهناك تبقى مجموعة إالجين المرمية، طوال الليل. وفانوس جونز العجوز يعيد الحياة أحياناً إلى يوليسيس، أو في أحيان أخرى ينير رأس حصان؛ بومضة ذهبية اللون، أو وجنة مومياء صفراء غائرة. استمر أفلاطون وشكسبير؛ ويعقوب، الذي كان يقرأ محاوره فايدروس، وسمع أشخاصاً يصخبون حول عمود المصباح، والمرأة تحبب على الباب بعنف وتبكي، "دعوني أدخل!" كما لو قطعة من الفحم سقطت من المدفأة، أو ذبابة، وقعت من السقف، مستلقية على ظهرها، أضعف جداً من أن تعتدل.

إن محاوره فايدروس⁽¹⁾ مجهدة للغاية. ولكن حين يمضي المرء قدماً

(1) The Phaedrus كتبها أفلاطون بعد الجمهورية.

في قراءتها، يستطيع متابعتها، يواصل التقدم، يصبح (هكذا يبدو) لوهلة جزءاً من هذه الطاقة المناسبة بهدوء، والتي تدفع الظلام أمامها منذ أن مشى أفلاطون على الأكروبوليس، أصبح من المستحيل أن تنظر إلى النار. الحوار يقترب من نهايته. اكتملت حجة أفلاطون. تجولت حججه في ذهن يعقوب، ولمدة خمس دقائق استمر ذهن يعقوب بمفرده في الظلام. ثم، نهض، أزاح الستائر، ورأى بوضوح مذهل، كيف ذهب عمال السبرينجتس في المبنى المقابل له إلى الفراش؛ كيف أمطرت؛ كيف وقف اليهود والمرأة الأجنبية، في نهاية الشارع، بجانب صندوق البريد، يتجادلون.

كلما فُتح الباب ودخل أشخاص جدد، تحرك الموجودون بالفعل في الغرفة قليلاً؛ هؤلاء الواقفون ينظرون من فوق أكتافهم؛ هؤلاء الجالسون يتوقفون في منتصف الجمل. ماذا يحدث مع الضوء، النيذ، عزف الجيتار، شيء مثير يحدث في كل مرة يُفتح فيها الباب. من يكون القادم؟

"إنه جيبسون".

"الرسام؟"

"لكن تابع ما كنت تقوله."

كانوا يتحدثون من مسافة بعيدة جداً، أبعد من أن تُسمع بوضوح. لكن ضجيج الأصوات قرع كجرس في عقل السيدة ويذرز الصغيرة،

فتبعثرت أفكارها في الهواء مثل سرب من الطيور المذعورة، ما لبثت أن استقرت، حتى انتابها الخوف، فوضعت إحدى يديها على شعرها، واحتضنت ركبتها، ونظرت إلى أوليفر سكيلتون بانفعال، وقالت:

"عدي، عدي، أنك لن تخبر أحداً..." بدا متفهماً ولطيفاً جداً. حدثته عن شخصية زوجها؛ اهتمته بالبرود.

ظهرت مجدالين الرائعة، سمراء، دافئة، وافرة، تلمس العشب بنعلي قدميها بخفة بالغة. تطاير شعرها؛ بدت الدبابيس ممسكة بالحرير المتطاير بالكاد.

ممثلة بالطبع، خط من الضوء يتحرك أسفل منها على نحو متواصل. "عزيزي" هذا فقط ما قالت، لكن صوتها راح يشدو بين ممرات جبال الألب. وتركت نفسها تسقط على الأرض، وشرعت في الغناء، دون كلام، فلم يكن لديها ما تقوله، سوى آهات وتأوهات. صعد إليها مانجين، الشاعر، وقف ينظر إليها وهو ينفخ في مزماره. حيث بدأ الرقص.

طلبت مدام كيملر الشمطاء من ديك جريفز أن يخبرها من يكون مانجين هذا، وقالت إنها شاهدت أشياء كثيرة من هذا القبيل في باريس، صعقتها (جلست مجدالين على ركبتها؛ والآن وضعت مزماره في فمها). "من يكون؟" قالت وهي تثبت نظارتها عندما رصدت يعقوب، لأنه في الحقيقة بدا هادئاً، ليس على نحو غير مبال، ولكن مثل شخص على الشاطئ، يراقب.

"أوه يا عزيزي، دعني أستند إليك"، هتفت هيلين أسكيو، وهي تجل على قدم واحدة، لأن الرباط الفضي المحيط بكاحلها تراخى. استدارت السيدة كيمر ونظرت إلى الصورة على الحائط.

"انظر إلى يعقوب"، قالت هيلين (كانوا يربطون عينيه ليلعبوا).

أخبرها ديك جريفز، وهو ثمل قليلاً، مخلصاً جداً، بسيط التفكير جداً، أنه يعتقد أن يعقوب أعظم رجل عرفه على الإطلاق. وجلسا القرفصاء على الوسائد يتحدثان عن يعقوب، وارتجف صوت هيلين، فقد ظهر لها كبطلين، والصدقة بينهما أجمل كثيراً من صداقات النساء. طلب منها الآن أتوني بوليت الرقص، وبينما كانت ترقص نظرت إليهما، من فوق كتفها، وهما يقفان على الطاولة، يشربان معاً.

العالم الرائع - العالم الحي والعاقل والقوي... هذه الكلمات تشير إلى امتداد الرّصيف الخشبي بين هامرسميث وهولبورن في يناير بين الساعة الثانية والثالثة صباحاً. تلك كانت الأرض التي تحت قدمي يعقوب. إنها رائعة ومفعمة بالحياة لأن غرفة واحدة، فوق الإسطبلات، في مكان ما بالقرب من النهر، حوت خمسين شخصاً متحمساً، ثثاراً، ودوداً. ومن ثم، فإن السير بخطوات واسعة فوق الرّصيف (حيث يندر أن تلمح سيارة أجرة أو شرطي في الأفق) أمر مبهج في حد ذاته. تبدو حلقة بيكاديلي الطويلة، المطرزة بالماس، في أفضل أحوالها حين تكون خاوية. ليس لدى الشاب ما يخشاه. بل على العكس، على الرغم من أنه ربما لم يقل شيئاً المعبى،

فهو يشعر بالثقة في قدرته على التحدي. كان سعيداً بلقائه بمانجين؛ أعجبه الشابة الجالسة على الأرض؛ لقد أحبهم جميعاً؛ كان يحب هذا النوع من الأشياء. باختصار، راحت كل الطبول والأبواق تقرع. كان جامعو القمامة وحدهم الموجودين في تلك اللحظة. ليس من الضروري أن نذكر كيف شعر يعقوب بمودة تجاههم؛ كيف أسعده أن يدخل غرفته مديراً مفتاح القفل في بابه؛ كيف بدا أنه عاد إلى غرفته الفارغة بعشرة أو أحد عشر شخصاً لم يكن يعرفهم حين غادرها؛ كيف ظل يبحث عن شيء يقرؤه، وعشر عليه، ولم يقرأه، وغرق في النوم.

صحيح أن الطبول والأبواق تفتقر إلى الكلام، صحيح أن بيكاديللي وهولبورن، وغرفة الجلوس الخاوية وغرفة الجلوس التي بها خمسون شخصاً عرضة في أي لحظة لهبوب الموسيقى في الرياح. النساء ربما أكثر عرضة للإثارة من الرجال. من النادر أن يذكر أي أحد شيئاً عن هذا، ورؤية حشود تعبر جسر واترلو لتلحق بالحافلة التي لا تتوقف إلى سورييتون تجعل المرء يعتقد أن هناك سبباً ما يلح عليهم. كلا، أبداً. إنها الطبول والأبواق. فقط، إذا ملت جانباً إلى أحد تلك الخلعجان الصغيرة على جسر واترلو لتفكر في الأمر، فربما سيبدو لك مشوشاً بأكمله، مثل لغز.

إنهم يعبرون الجسر بلا انقطاع. في بعض الأحيان، وسط العربات والحافلات العامة، تظهر شاحنة مربوط إليها أشجار ضخمة من الغابة. بعدها، ربما، عربة صغيرة مغلقة بها شاهد قبر كُتب حديثاً يسجل كيف

أحب أحدهم شخصًا مدفونًا في بوتني. ثم تنتقل السيارة مرتجة إلى الأمام، ويمر شاهد القبر بسرعة لا تمكنك من قراءة المزيد. طوال الوقت لا يتوقف تدفق البشر المتجهين من سيري⁽¹⁾ إلى ستراند⁽²⁾؛ ومن ستراند إلى سيري. وكأن الفقراء قد شنوا غارة على المدينة، وعادوا يتسكعون إلى مساكنهم، مثل الخنافس التي تهول إلى جحورها، فتلك المرأة العجوز تسير مترنحة إلى حد ما نحو واترلو⁽³⁾، ممسكة بحقيبة لامعة، كما لو كانت قد خرجت في ضوء النهار وتهول الآن ببعض عظام الدجاج المكشوفة إلى كوخها تحت الأرض. من ناحية أخرى، على الرغم من أن الرياح هائجة وتعصف في وجوههم، يبدو أن هؤلاء الفتيات هناك، اللواتي يذرعن الطريق يدًا في يد، وهن يغنين بصوت مرتفع، لا يشعرن بالبرد ولا بالحجل. إنهن حاسرات الرؤوس. يشعرن بالانتصار.

عصفت الرياح بالأمواج. النهر يتسابق أسفلنا، وعلى الرجال الذين يقفون على البوارج أن يرخوا كل ثقلهم على ذراع المقود. عُقد المشمع الأسود حول حمولة ضخمة من الذهب. كتل ضخمة من الفحم تلمع بلونها الفاحم الأسود. كالعادة، تعلق عمال الطلاء على ألواح عبر الفنادق الواقعة على ضفاف النهر، ونوافذ الفندق تظهر فيها نقاط من الضوء. على الجانب الآخر، المدينة بيضاء كأنها تشيخ؛ تتضخم كنيسة القديس بولس بيضاء فوق المباني المتآكلة أو المدببة أو المستطيلة جوارها. وحده الصليب يضيء

Surrey (1)

Strand (2)

Waterloo (3)

بهريق وردي مذهب. لكن إلى أي قرن وصلنا؟ هل يستمر هذا الموكب متجهًا من سيري إلى ستراند إلى الأبد؟ لقد ظل ذلك الرجل العجوز يعبر الجسر خلال هذه الست مئة عام، مع حشد من الصبية الصغار في أعقابهم، لأنه ثمل، أو أعمى على نحو بائس، ومربوط بخرق قديمة مثل ملابس الحجاج الرثة. يجر قدميه ليوصل السير.

لا أحد يقف ساكنًا. يبدو كما لو كنا نسير على صوت الموسيقى؛ ربما الرياح والنهر؛ وربما هذه الطبول والأبواق نفسها - نشوة واضطراب الروح. لماذا، حتى التعساء يضحكون، والشرطي لا يدين الرجل المخمور، يتأمله بطريقة هزلية، ويهرول الصبية الصغار خلفه مرة أخرى، ولا يملك موظف سومرست هاوس سوى التساهل معه، والرجل الذي يقرأ نصف صفحة من جريدة لوثير في المكتبة يفكر في الإحسان إليه، وعيناه تشيحان عن جريدته، وتتردد الفتاة عند اجتياز الطريق وتلتفت إليه بنظرة الشباب المشرقة والغامضة.

مشرقة وإن كانت غامضة. ربما تكون في الثانية والعشرين. إنها رثة الثياب. تعبر الطريق وتنظر إلى أزهار النرجس البري والزنبق الأحمر في فاترينة بائع الزهور. تتردد، وتواصل سيرها في اتجاه تيمبل بار. تمشي بسرعة، ومع ذلك تتلهى في أي شيء. أحيانًا تبدو كأنها تنظر، وأحيانًا تبدو أنها لا تلاحظ شيئًا.

الفصل العاشر

عبر المقبرة المهجورة في أبرشية سانت بانكراس، شردت فاني إلمرين المقابر البيضاء المستندة إلى الجدار، راحت تعبر العشب لتقرأ اسمًا ما، وانطلقت بسرعة حين اقترب الحارس، مهرولة إلى الشارع، ها هي تتوقف جوار واجهة بها خزف أزرق، الآن تغذ الخطو لتعوض الوقت الضائع، تدلف فجأة إلى المخبز، وتشتري رولز، تضيف إليها الكيك، تواصل سيرها بسرعة مرة أخرى بحيث إذا ما رغب المرء في متابعتها فعليه أن يهرول بعض الشيء. ومع هذا، لم تكن رثة الثياب على نحو بشع. كانت ترتدي جوارب من الحرير، وحذاء بإبزيم فضي، ولا شيء تهدل سوى ريشة حمراء في قبعتها، وقفل حقيبتها الذي لم يكن محكمًا، إذ وقعت منها نسخة من برنامج مدام توسو فيما كانت تمشي. كان لها كاحلان ككاحلي ظبية. وجهها لم يكن واضحًا. بالطبع، في هذا الغسق، تصدر اللمحات الخاطفة والآمال الجريئة على نحو طبيعي. مرت أسفل نافذة يعقوب مباشرة.

كان المنزل قائمًا ومظلمًا وصامتًا. ويعقوب هناك مستغرق في حل مشكلة في لعبة الشطرنج، حيث استقرت الرقعة على كرسي بين ركبتيه. إحدى

يديه تداعب شعر مؤخرة رأسه. حرك ما قبلها ببطء ورفع الوزير الأبيض من مربعه؛ ثم وضعه مرة أخرى في نفس الخانة. حشا غليونيه؛ فكر ملياً؛ نقل بيدقين؛ تقدم بالحصان الأبيض؛ ثم استغرق في التفكير وإصبعه على البيدق. وذلك عندما كانت فاني المر تمر أسفل نافذته.

كانت في طريقها إلى جلسة مع نيك برامهام الرسام. جلست في شال إسباني مطرز بالزهور، تحمل في يدها رواية صفراء اللون.

"انخفضي قليلاً، استرخي بعض الشيء، هكذا أفضل، تمام"، غمغم برامهام، الذي كان يرسمها، ويدخن في الوقت نفسه، والذي لم يكن ثنائراً بطبيعته. ربما كانت رأسه من صنع نحات، قام بتربيع الجبهة، ومط الفم، وترك آثار إبهامه وخطوط كفه على الصلصال. لكنه لم يغمض العينين أبداً. لقد كانتا شاخصتين إلى حد ما، بل ومحتقتين بالدماء، كما لو من جراء التحديق المستمر، وعندما نطق، كانتا تبدوان للحظة مشوشتين، لكنهما استمرتتا في التحديق. ضوء كهربائي غير مظلل كان يتدلى فوق رأسها.

أما عن جمال المرأة، فإنه كالضوء على البحر، لا يستقر على موجة واحدة. كلهن يحظين به؛ كلهن يفتقدنه. مرة تبدو متبلدة وغنية مثل لحم خنزير مقدد؛ ومرة شفافة كبلورة متدلية. الوجوه الثابتة وجوهٌ بليدة. ها هي

ليدي فينيسيا تُعرض كتحفة فنية مثيرة للعجب، ولكنها منحوتة في المرمر، توضع على رف المدفأة ولا يعتليها الغبار مطلقاً. امرأة سمراء مرسومة بإتقان من الرأس حتى أخمص القدمين لا تصلح إلا كزخرف على طاولة غرفة الجلوس. وجوه النساء في الشوارع تشبه ورق اللعب؛ تُمَلَأُ المعالم بدقة بالوردي أو الأصفر، وثمة خط يحدها بإحكام. وحين تطل من نافذة في الطابق العلوي، وتتطلع إلى أسفل، ترى الجمال بعينه؛ أو منزوياً في حافلة؛ أو مقرصاً في خندق - الجمال الباهر، يبرز فجأة، ويروغ في اللحظة التالية. لا أحد يستطيع أن يعول عليه أو أن يستلبه أو أن يطويه في الورق. لا منفعة تُستجلب من المحلات التجارية، والسماء تعرف أنه من الأفضل الجلوس في البيت بدلاً من التردد على الزمرد والياقوت المعروض في الواجهات بغية استلاب وهجها الحي. إن زجاج البحر⁽¹⁾ في صحن الفنجان لا يفقد بريقه أسرع من الحرير. ومن ثم، إذا كنت تتحدث عن امرأة جميلة، فأنت تعني شيئاً لحظياً فحسب والذي في جزء من الثانية يستخدم عيني فاني المر أو شفيتها أو وجنتيها، مثلاً، ليشع من خلالها.

لم تكن جميلة، في جلستها الجامدة؛ شفيتها السفلي شديدة البروز؛ أنفها ضخمة للغاية؛ عيناها قريبتان من بعضهما. فتاة نحيفة، بوجنتين مشرقتين

(1) زجاج البحر وزجاج الشاطئ هما نوعان من الزجاج متشابهان ولكن كل منهما يأتي من نوع مختلف من المياه. زجاج البحر هو زجاج مجوى بفعل التعامل الكيميائي والفيزيائي على السواء وهو يوجد على شواطئ المسطحات المائية المالحة. إجراءات التجوية هذه تثمر زجاجاً مصنفراً طبيعياً. يمكن جمع زجاج البحر الحقيقي كهواية كما يمكن استعماله في صنع المجوهرات أو في التزيين.

وشعر داكن، متجهة للحظة، أو متصلبة في جلستها. وحين انقصف قلمه الفحم قامت من مكانها. كان براهام سئ المزاج. قرفص أمام النار يدفع يديه. أثناء ذلك راحت تتأمل لوحته. نخر. ألقت فاني بالروب على كتفها ووضعت البراد على النار ليغلي.

"يا إلهي، كم هي سيئة!".

انزلت فاني إلى الأرض، شَبَكَت يديها حول ركبتيها، ونظرت إليه، بعينها الجميلتين - نعم، كان الجمال، يخلق في جو الغرفة، متألقاً هناك لوهلة. بدت عينا فاني متساءلتين، متعاطفتين، لتتحولا، لثانية، إلى عينين محبتين. لم يلحظ برهما شَيْئاً. وعندما غلي البراد، اندفعت إليه، أشبه بجحش أو جرو أكثر منها امرأة محبة.

مشى يعقوب إلى النافذة ووقف ويده في جيبه. خرج السيد سبرينجيت في الجهة المقابلة، ونظر إلى واجهة متجره، ودخل مرة أخرى. تدافع الأطفال في مرورهم، وهم يتطلعون إلى العصي الوردية للحلوي. أسرع سيارة بيكفورد متأرجحة في الشارع. انزلق صبي صغير من أسفل حبل. استدار يعقوب مبتعداً. بعد دقيقتين فتح الباب الأمامي، ومشى في اتجاه هولبورن.

تناولت فاني المر معطفها من المشجب. نزع نيك براهام الدبابيس من لوحته ولفها تحت ذراعه. أطفالاً المصاييح وانطلقا إلى الشارع، يشقان طريقهما عبر الناس، والسيارات، والحفلات، وعربات الكارو، حتى وصلا ساحة

ليستر، قبل خمس دقائق من وصول يعقوب، لأن طريقه كان أطول قليلاً، إذ أعاقته جمهرة في هولبورن تنتظر رؤية الملك وهو يمر في عربته، حتى أن نيك وفاني كانا يستندان بالفعل إلى الحاجز في المنتزه في الإمباير عندما دفع يعقوب الباب الدوار واتخذ مكانه جانبيهما.

"يا مرحباً، لم ألاحظك"، قال نيك، بعد خمس دقائق.

"المهرج الكبير!"، قال يعقوب.

"الآنسة المير"، قال نيك.

سحب يعقوب غليونيه من فمه بشكل خارق للغاية.

أخرق جداً كان هو. وعندما جلسوا على أريكة فخمة وتركوا الدخان يتصاعد بينهم وبين خشبة المسرح، وسمعوا الأصوات المجلجلة من بعيد والأوركسترا المرحّة تدخل في اللحظة المناسبة كان ما يزال أخرق، فاني فقط هي التي جال بخاطرها: "يا له من صوت جميل!" فكرت كم كان حديثه مقتضباً وإن كان مع ذلك صارماً. جال بخاطرها كم يبدو الشباب مشبعين بذواتهم ومتحفظين، كم يبدو غير مكترثين، وكيف بهدوء يجلس المرء بجانب يعقوب وينظر إليه. وكيف سيبدو مثل طفل بريء، يحل به التعب في المساء، فكرت، وكيف أنه مهيب؛ متعجرف قليلاً ربما. "لكنني لن أفسح له مجالاً". نهض هو وانحنى على الحاجز. تلفه سحابة من الدخان.

دائماً ما يبدو جمال الشباب ملتقاً في سحابة من الدخان، بالرغم من أنهم

يطاردون كرات القدم بمنتهى النشاط، أو يدفعون كرات الكريكت أو يرقصون أو يركضون أو يسرون بخطوات واسعة على طول الطرق. ربما يدركون أنهم قد يفقدونه قريباً. ربما ينظرون في أعين الأبطال البعيدين، ويتخذون مكانهم بيننا بنوع من الازدراء، فكرت (مهتزة كوتر كمان، حين يواصل العزف ويتوقف فجأة). على أية حال، هم يحبون الصمت، ويتحدثون على نحو رائع، كل كلمة تنزلق من شفاههم تشبه أسطوانة جديدة سُحِذت للتو، وليس مثل وابل من العملات المعدنية الصغيرة الملساء كما تفعل الفتيات؛ إنهم يتحركون بلا أدنى تردد، كما لو أنهم يعرفون كم من الوقت يمكنون ومتى يغادرون، أوه، لكن السيد فلاندرز ذهب فقط للحصول على نسخة من البرنامج.

"ستعود الرقصات في نهاية العرض"، قال وهو يعود إليهم.

ولم يكن هذا ساراً، واصلت فاني تفكيرها، كيف يخرج الشباب الكثير من العملات الفضية من جيوب بناطيلهم، ويحدقون إليها، بدلاً من الاحتفاظ بالضروريات فقط في محافظهم؟

ثم شعرت فجأة وهي تقف جامدة على بعد خطوتين من يعقوب، بأنها هناك تنتقل في حركة دائرية عبر خشبة المسرح في كرانش بيضاء، وكانت الموسيقى راقصة وهي تندفع من أعماق روحها، والآلات تهتز بأكملها وترس الكرة الأرضية يدور بسلاسة في تلك التدويمات والخفقات الناعمة.

سقط قفازها الأسود المكرمش على الأرض. عندما التقطه يعقوب، تناولته بغضب. لم يكن هناك عاطفة تفتقر إلى المنطق أكثر من تلك. وخاف منها يعقوب لوهلة - حين تقف الشابات متوترات؛ يتشبثن بالحاجز؛ يقعن فجأة في الحب فهو أمر غير طبيعي وغير مأمون العواقب.

في منتصف فبراير. تمددت الأسطح في ضاحية حدائق هامبستاد في ضباب هائل. كان الجو شديد الحرارة يتعذر المشي فيه. راح كلب ينبح، وينبح، وينبح في الخلاء. استلقت الظلال المائعة عبر السهل. بعد مرض طويل يصبح الجسد واهناً، بليداً، حساساً أكثر للجمال، لكنه أضعف من أن يتحملة. تتجمع الدموع وتسقط لأن كلباً ينبح في الخلاء، أطفال يهرولون بسرعة خلف أطواقهم، تعتم الدنيا وتضيء. تترأى من خلف حجاب. آه، ولكن عليك أن تسدل حجاباً أكثر سمكاً خشية أن أصاب بإغماءة من حلاوته، تنهدت فاني إلمر، بينما تجلس على مقعد في جادجيز ووك تتطلع إلى ضاحية حدائق هامبستيد. ولكن الكلب استمر في النباح. كانت السيارات تنطلق على الطريق. من مسافة سمعت صوت اندفاع وهمهمة.

ثمة إثارة اعترت قلبها. نهضت وراحت تمشي. كان العشب أخضر يانعاً؛ الشمس حارقة؛ في كل مكان حول البركة أطفال ينحنون لإطلاق قواربهم الصغيرة. أو يصرخون حين تسحبهم مربياتهم بعيداً.

في منتصف النهار، تخرج الشواب يتنسمن الهواء. الرجال مشغولون في أعمالهم في المدينة. يقفن بجانب حافة البركة الزرقاء. والرياح العذبة

تبعثر في هبوبها أصوات الأطفال. أطفالي، جال بخاطر فاني المر. تقف النساء حول البركة، يبعدن الكلاب الكبيرة المشعثة التي تتبختر. وبرفق يتأرجح الطفل في عربته. تلمع عيون جميع المربيات والأمهات والنساء المتجولات قليلاً وتستغرق في التفكير. يومئ بلطف بدلاً من الرد عندما يجذب الصبية الصغار تنانيرهن، متضرعين إليهن للانتقال إلى مكان آخر.

غيرت فاني مكانها، منزعة من صرخة -صافرة مصنع ربما- تأتي عالية من بعيد. الآن، من بين الأشجار، صدح طائر السمينة في الهواء بدفء وحيوية، لكن الخوف بدا أنه يشجعه، فكرت فاني؛ كما لو أنه قلق أيضاً من هذه البهجة في قلبه - كما لو كان مراقباً بينما يغني، وأن الضوضاء تدفعه للغناء. هناك! مضطرباً، طار إلى الشجرة التالية. تناهت إليها أغنيته أكثر وهنا. ومن مسافة أبعد صوت أزيز العجلات واندفاع الهواء.

كلفها الغداء عشرة بنسات.

"عزيزتي، لقد نسيت السيدة مظلتها"، دمدمت المرأة المجدورة في الصندوق الزجاجي بالقرب من الباب في متجر الملابس التابع لشركة إكسبرس ديري.

"قد ألق بها"، ردت ميلي إدواردز، النادلة بجداول شعرها الفاتحة؛ واندفعت عبر الباب.

قالت: "لم أنجح"، عادت مع مظلة فاني الرخيصة. داعبت ييـدها صفائرها.

"أوه، ذلك الباب!" دمدمت الكاشيرة.

كانت يداها مغطاة بقفاز أسود، وأطراف أصابعها التي تضرب طلبات الزبائن متورمة مثل النقانق.

"فطيرة وخضراوات لشخص ما. فنجان قهوة كبير وكعكة غير محلاة. بيض على خبز محمص. كعكتي فواكه.

هكذا تعالت أصوات النادلات الحادة. والزبائن يستمعون إلى طلباتهم حين تتكرر بالتصديق عليها؛ ينظرون بترقب إلى الطاولة المجاورة التي تقدم إليها الطلبات. أخيراً وصل طلبهم من البيض على الخبز المحمص. فلم تزغ عيونهم بعد ذلك.

سقطت مكعبات المعجنات الرطبة في أفواه مفتوحة مثل أكياس مثلثة الشكل.

فتت نيللي جينكنسون، عاملة الآلة الكاتب، كعكتها بلا مبالاة تمامًا. في كل مرة يُفتح الباب ترفع عينيها. ماذا تتوقع أن ترى؟

قرأ تاجر الفحم التلجراف دون توقف، أخطأ صحن الفنجان، تحسس، وهو شارد، ووضع الفنجان على مفرش الطاولة.

"أرأيت شيئاً صفيقاً كهذا من قبل؟" قالت السيدة بارسونز بغضب وهي تنظف الفُتات عن فرائها.

"الحليب الساخن وكعكة مرققة لشخص ما. كوب من الشاي. رولز وزبدة"، صاحت النادلة.

فُتح الباب وأُغلق.

هكذا هي حياة الكهول.

من الغريب أن تشاهد الأمواج وأنت مضطجع على متن قارب. ها هي ثلاثة تتقدم بتتابع واحدة تلو الأخرى، كلها كبيرة الحجم. ثم، وهي تهول خلفهم تلحق بهم الرابعة، مهولة ومهددة؛ ترفع القارب؛ وتواصل مسارها؛ تندمج معهم بطريقة ما دون إنجازٍ يُذكر؛ متسطحة مع البقية.

ماذا قد يكون أكثر عنفاً من اندفاع أغصان في عاصفة، الشجرة تطوع نفسها بأكملها من الجذع، حتى أقصى الأطراف، مندفعة ومرتجفة بالطريقة التي تهب بها الرياح، ومع ذلك لا تتطاير بعيداً في فوضى؟ الذرة تنحني وتسوي نفسها بالأرض كأنها تستعد لسحب نفسها من جذورها، وإن ظلت مقيدة من أسفل.

لماذا ترى، من نافذتك، حتى في الغسق، انتفاخاً يمرق عبر الشارع، طموحاً، كما نجد في الأذرع الممدودة، والعيون المتلهفة، والأفواه الفاغرة. ثم نستقر بسلام. لأنه إذا استمر التضخيم فسننفجر مثل فقاعة في الهواء.

وتتألق النُّجوم خلالنا. ونسقط في حبات من الملح يحملها الانفجار - كما يحدث في بعض الأحيان. فالأرواح المندفعة لن تنال هذه الهدية. لا أرجحة أو تعلق بلا جدوى بالنسبة إليهم. لا شيء يجعلهم يصدقون، أو يكذبون بأريحية تامة، أو يفترضون بحماس أن الأشياء هي نفسها بالنسبة إلى الجميع، النار دافء، الخمر متعة، الإسراف خطيئة.

"الناس لطيفون جداً، بمجرد أن تعرفهم".

"لم أستطع التفكير فيها على نحو سيئ. لا بد للمرء أن يتذكر -" لكن نيك ربما، أو فاني المر، اللذين يؤمنان على نحو مطلق بصدق اللحظة، انفلاتها، تنغيصها، انطلقا مثل وابل من الثلج.

قالت فاني، "أوه"، اندفعت إلى المرسم متأخرة ثلاثة أرباع ساعة لأنها كانت تتجول في حي مستشفى اللقيط على أمل أن ترى يعقوب يسير في الشارع، يخرج مفتاحه، ويفتح الباب، "أعتذر عن تأخيري"؛ لم يقل نيك شيئاً ردّاً على ذلك فازداد احتياج فاني.

صرخت مطولاً: "لن أعود مرة أخرى!"

"لا تأتي إذن"، رد نيك، واندفعت مهرولة دون أن تقول له ليلة سعيدة.

يا لروعة ذلك الفستان في متجر إيفيلينا قبالة جادة شافتبيري! كانت الرابعة في يوم صحو في أوائل إبريل، أكانت فاني واحدة ممن يمضين الساعة الرابعة في يوم صحو داخل بيوتهن؟ فتيات أخريات في هذا الشارع نفسه

يجلسن منحنيات على دفاتر حسابات، أو يسحبين خيوطاً طويلة بسأم بين الحرير والشاش؛ أو، يزينه بأشرطة في متجر سوان أند إدجرز، سرعان ما يضيفون القروش والملاليم⁽¹⁾ على الجزء الخلفي من فاتورة العميل ويلفون المتر وثلاثة أرباع في ورق رقيق ويستأذن: "أي خدمة يا سيدي؟" للزبون القادم.

في واجهة متجر إيفيلينا قبالة جادة شافتسبري، عُرضت القطع المختلفة للمرأة بشكل منفصل. في اليد اليسرى تنورتها. وحول وتد في المنتصف التفت ريشة أفعى. وعلى شكل رؤوس الأشرار في طريق تيمبل بار ارتصت القبعات - زمردية وبيضاء، يكللها على نحو طفيف أو يتدلى منها ريش داكن اللون. وعلى السجادة وضع حذاؤها مستدقاً من الذهب، أو من جلد ممتاز مُطعم بالقرمزي.

بحلول الرابعة تبدو الملابس وقد التهمت نظرات النساء، مثل كعك السكر حين يتلوث بيرقات الذباب في فاترينة الخباز. فاني تركت نظرتها عليها أيضاً. لكن القادم على طول شارع جيرارد كان رجلاً طويل القامة يرتدي معطفاً رثاً. سقط ظل على واجهة متجر إيفيلينا - ظل يعقوب، رغم أنه لم يكن يعقوب. استدارت فاني وسارت على طول شارع جيرارد وتمنت لو كانت قد قرأت كتباً من قبل.

(1) "البنس والفارذنج".

لم يكن نيك يقرأ الكتب مطلقاً ولم يتحدث أبداً عن أيرلندا أو مجلس اللوردات؛ مثلما يتحدث عن أظافره! كانت تخطط كي تتعلم اللاتينية وتقرأ فيرجيل. إنها قارئة عظيمة. قرأت سكوت؛ قرأت دوماس. في سليد لا أحد يقرأ. لكن لا أحد في سليد يعرف فاني، أو خمن كم بدا لها تافهاً؛ الشغف بالأقراط وحفلات الرقص وتونكس وستير - عندما كان الفرنسيون هم وحدهم الذين يستطيعون الرسم، كما قال يعقوب. لأن الحداثيين كانوا بلا جدوى؛ الرسم أقل الفنون تقديراً؛ ولماذا نقرأ أي شيء غير مارلو وشكسبير، قال يعقوب، وفيلدينج إذا كان لا بد أن تقرئي الروايات؟ "فيلدينج"، ردت فاني عندما سألتها الرجل في تقاطع شارع تشارنج كروس عن الكتاب الذي تريده.

اشترت توم جونز.

في العاشرة صباحاً، في غرفة تتقاسمها مع زميلتها المدرسة، قرأت فاني المر، توم جونز، ذلك الكتاب الغامض. لأن هذه الأمور المضجرة (فكرت فاني) عن أشخاص غربيي الأساء هي ما تروق ليعقوب. وتروق للأفاضل. النساء اللواتي يفتقرن إلى الأناقة والذوق الرفيع ولا يكثرن بالطريقة التي يضعن بها قدمًا على قدم يقرأن توم جونز، كتاب غامض؛ فهناك شيء ما، فكرت فاني، بشأن الكتب التي لو كنت قد تعلمت لراقت لي - أكثر بكثير من الأقراط والزهور، تهدت، وهي تفكر في الأروقة في سليد وثوب السهرة لحفل الأسبوع المقبل. لم يكن لديها شيء ترتديه.

الكتب تضم الحقيقة بين دفتيها، فكرت فاني إلمر وقدمائها على رف المدفأة. بعض الناس حقيقيون كذلك. نيك ربما، على الرغم من غبائه. النساء لسن حقيقيات - باستثناء الأنسة سارجنت، لكنها تنصرف وقت الغداء وتتعامل بتعالٍ. هناك أشخاص يجلسون بهدوء في بيوتهم ليلاً يقرؤون، فكرت. لا يذهبون إلى قاعات الموسيقى؛ لا يتجولون للتطلع إلى واجهات المتاجر؛ لا يرتدي بعضهم ملابس بعض، مثل روبرتسون الذي يرتدي شالها، وترتدي صدريته، الشيء الذي لم يكن بوسع يعقوب أن يفعله إلا على مضض؛ لأنه يحب توم جونز.

كان مفتوحاً على ركبتيها، مطبوعاً في عمودين، كلفها ثلاثة شلنات ونصف؛ ذلك الكتاب الغامض الذي ألقى فيه هنري فيلدينج منذ سنوات عديدة باللوم على فاني إلمر لتفضيلها اللون الأحمر الفاقع، في نثر مثالي، كما قال يعقوب. الذي لم يقرأ روايات حديثة. وكان يفضل توم جونز.

"أنا أحب بالفعل توم جونز"، قالت فاني، في الخامسة والنصف من نفس اليوم في أوائل شهر إبريل عندما قام يعقوب الجالس قبالتها في كرسي بذراعين بإخراج غليونه.

للأسف، النساء يكذبن! لكن ليس كلارا دورانت. روح لا تشوبها شائبة؛ طبيعة صريحة؛ عذراء مكبله بأغلال إلى صحرة (في مكان ما قبالة ساحة لونيدز)، تصب دائماً الشاي لكهول في صدريات بيضاء، بعينها الزرقاوين،

تنظر إليك مباشرةً، وتعزف باخ. من بين جميع النساء، كان يعقوب يحترمها أكثر. لكن أن تجلس على مائدة مع الخبز والزبدة، مع أرامل ثريات في ثياب مخملية، ولا تقل لكلا را دورانت مطلقاً أكثر مما قاله بنسون للبيغاء عندما صبت الأنسة بيرى العجوز الشاي، لهو إساءة لا تحتل للتواصل واللياقة البشرية - أو كلمات بالمعنى نفسه. لأن يعقوب لم يقل شيئاً. توهج فحسب على ألسنة النار. ووضعت فاني توم جونز عن ركبتها.

كانت تخطط أو تنسج.

"ما هذا؟" سأل يعقوب.

"حفلة الرقص في سليد."

وأخرجت غطاء رأسها؛ بنطالها؛ حذاءها بالدانتيل الأحمر. ماذا ينبغي عليها أن تلبس؟

"سأكون في باريس"، قال يعقوب.

وما الهدف من الملابس التذكيرية في حفلات الرقص؟ فكرت فاني. أنت تقابل نفس الأشخاص؛ ترتدي نفس الملابس؛ مانجين يشمل؛ فلورندا تجلس على ركبته. وتغازل نيك براهمام على نحو فظ.

"في باريس؟"، قالت فاني.

"في طريقي إلى اليونان"، رد.

لأنه، قال، لا يوجد شيء أكثر بشاعة من لندن في مايو.

سوف ينساها.

مر عصفور بمحاذاة النافذة يسحب قشة - قشة من كومة موضوعة قرب حظيرة في مزرعة. الكلب البني العجوز راح يتشمم حول القاعدة بحثا عن فأر. بالفعل تشكلت فروع أشجار الدردار العالية بأعشاش الطيور. جذب الكستناء جمهوره. وراحت الفراشات تتبخر عبر مسارات الغابة. ربما تكون فراشة الإمبراطور الأرجواني تتغذى، كما يقول موريس، على جيفة ننتة عند قاعدة شجرة البلوط.

فكرت فاني أن المسئول عن كل ذلك هو توم جونز. بوسعه أن يذهب وحده مع كتاب في جيبه ويشاهد الدببة. سيركب القطار في الثامنة والنصف ويتمشى طوال الليل.

كان قد رأى خنافس مضيئة، وتذكر حشرة سراج الليل التي كان يضعها في علب الحبوب. سيصطاد مع الكلاب الهجين الحديثة في الغابات. كل ذلك كان المسئول عنه توم جونز؛ وسيذهب إلى اليونان مع كتاب في جيبه وينساها.

أخرجت مرآتها. هناك كان وجهها. ولنفترض رأس يعقوب وقد لفها شخص ما بعمامة؟ هناك كان وجهه. أضواء المصباح. ولأن ضوء النهار تسلل عبر النافذة، فنصف وجهه فقط هو ما أضاءه المصباح. وعلى الرغم من أنه بدا فظيحا ورائعا وقال إنه سوف يهجر الغابة، ويأتي إلى

سليد، ويكون فارسًا تركيًا أو إمبراطورًا رومانيًا (وتركها تسود شفثيه
وتقبض على أسنانه بإحكام وتكشر في المرأة)، وتوم جونز ما يزال هناك
مستلقيًا.

الفصل الحادي عشر

"آرشر"، قالت مدام فلاندرز بهذا الحنو الذي غالبًا ما تبديه الأمهات تجاه أبنائهم الأكبر سنًا، "سيكون غداً في جبل طارق".

البريد الذي كانت تنتظره (وهي تتجول على دودز هيل بينما تتأرجح أجراس الكنيسة العشوائية بترتيلة حول رأسها، والساعة تدق أربع دقات منتظمة عبر الأنغام الدائرية؛ تلون الزجاج بالأرجواني تحت غيمة ثقيلة؛ وجثمت عشرات المنازل في القرية وضبعة إلى أقصى حد، متجمعة تحت نفس ظل الورقة)، البريد، بكل رسائله المتنوعة، المعنونة مغلفاته بخطوط ثقيلة، بخطوط مائلة، والتي كانت تُختَم أحيانًا بطوابع إنجليزية، وأحيانًا بطوابع استعمارية، وفي بعض الأحيان يتم حظرها في عجالة بشرط أصفر، البريد الذي كان يوزع ما يقرب من عشرة آلاف رسالة عبر العالم. سواء استفدنا من هذه العادة في التواصل المفرط أم لم نستفد، فلسنا من عليه أن يقول ذلك. لكن كتابة الرسائل مورست بشكل خاطئ هذه الأيام، وبخاصة من الشباب المسافرين إلى الخارج، يبدو هذا أمرًا مرجحًا تمامًا.

خذ عندك هذا المشهد، مثلاً.

ها هو يعقوب فلاندرز قد سافر إلى الخارج مخططاً لإقامة قصيرة في باريس. (توفيت الآنسة بيركيك العجوز، ابنة عم والدته، في يونيو الماضي وتركت له مئة جنيه).

"أنت لست بحاجة إلى تكرار تلك اللعنة كاملة مرة أخرى يا كروتيندون". قال مالينسون، الرسام الأصيل الضئيل الذي كان يجلس على طاولة رخامية، مبقعة بالقهوة ومحاطة بالخمر، ويتحدث بسرعة رهيبة، ولا ريب أنه كان أكثر من ثمل.

"فلاندرز هل انتهيت من كتابة رسالتك إلى والدتك؟" قال كروتيندون، بينما يقترب يعقوب ويجلس جوارهم، ممسكاً بيده مظروفاً موجهًا إلى مدام فلاندرز، قرب سكاربورو، بإنجلترا.

"هل يعجبك فيلاثكيث⁽¹⁾؟" قال كروتيندين.

"أقسم بالله إنه يعجبه"، قال مالينسون.

"هو دائماً يتكلم هكذا" قال كروتيندين بانفعال.

نظر يعقوب إلى مالينسون بهدوء مبالغ.

"سأقول لك أعظم ثلاثة أشياء كتبت على الإطلاق في الأدب برمته"
اندفع كروتندون صائحاً.

(1) ديفغو رودريغث دي سيلفا إي فيلاثكيث كان رساماً إسبانياً، يعتبر واحداً من أعظم ممثلي الرسم الإسباني وكبير الرسامين في العالم.

"تعلقي هناك يا روحي مثل ثمرة". بدأ...

"لا تستمع إلى رجل لا يحب فيلاثكيث"، قال مالينسون.

"أدولف، لا تصب مزيداً من الخمر للسيد مالينسون"، قال كروتيندون.

"كن عادلاً، كن عادلاً"، قال يعقوب بنزاهة. "دع الرجل يشرب إن كان يرغب في ذلك. إنه شكسبير يا كروتندون. أنا معك هناك. كان شكسبير يملك من الجرأة ما يفوق كل هذه الضفادع الملعونة مجتمعة معاً." تعلقي هناك يا روحي مثل ثمرة"، بدأ المقطع، بصوت موسق رخيم، ملوحاً بكأسه. "فليرجمك الشيطان بالسواد، يا ذا الوجه الممتنع الدنيء!" صرخ بينما تفيض الخمر على الحافة.

"تعلقي هناك يا روحي مثل ثمرة"، نطق كل من كروتيندون ويعقوب في نفس الوقت مرة أخرى، وانفجرا في الضحك.

"اللعنة على هذا الذباب"، قال مالينسون، وهو يهشه عن رأسه الصلعاء. "لماذا يهاجمني؟"

"لشيء حلوا الرائحة"، قال كروتيندون.

"اخرس يا كروتندون"، قال يعقوب. "الزميل لا أخلاق له"، أوضح مالينسون بأدب شديد. "ذلك الذي يريد أن يمنع الناس من الشرب. اسمع. أريد فخذاً مشوية. كيف أنطق فخذاً مشوية بالفرنسية؟ فخذ مشوية يا أدولف. أنت غبي، ألا تفهم؟"

"سأقول لك يا فلاندرز، ثاني أجمل شيء في الأدب كله"، قال كروتندون، وهو يجذب قدميه إلى الأرض ويميل مباشرةً عبر الطاولة، بحيث لمس وجهه وجه يعقوب تقريباً.

"هاي ديدل ديدل، ذاكات آند فيدل"⁽¹⁾، قاطعه مالينسون، قارعاً بأصابعه على الطاولة. "الشيء الأكثر روعة وجمالاً في الأدب كله... كروتندون زميل رائع جداً." نطق ملاحظته كمن يفضي بسر. "لكنه أحمق قليلاً". وهو يوميء برأسه.

حسنًا، لم يتم إخبار السيدة فلاندرز كلمة واحدة من هذا؛ ولا ما حدث عندما دفعوا الفاتورة وغادروا المطعم، وساروا على طول شارع ريسبال⁽²⁾.

إليك شذرات من حديث آخر؛ الساعة حوالي الحادية عشرة صباحًا؛ المكان مرسوم. واليوم هو الأحد. "أريد أن أخبرك يا فلاندرز، قال كروتيندون، "سأقتني قريباً واحدة من لوحات مالينسون الصّغيرة مثل لوحة شاردان⁽³⁾."

(1) "Hey diddle diddle, the cat and the fiddle"، هي أغنية شعبية لمرحلة الحضانة بالإنجليزية. ومعناها "انتظر يا محتال يا محتال، القط والكمّان".

(2) شارع Raspail هو شارع في باريس، في فرنسا، يتقاطع الشارع مع الطرق الرئيسية: شارع Sèvres وشارع Rennes وشارع Montparnasse.

(3) جان باتيست سيميون شاردان Jean-Baptiste-Siméon Chardin؛ (1699-1779) رسام فرنسي من القرن 18. ويُعتبر أستاذًا في تصوير الحياة الصامتة وديمومتها غير المحدودة، بعيدًا عن السرد والوصف والرمز، باستخدام طبقات لونية كثيفة يضعها تباعًا على قماش لوحته الخشن.

وعندما أقول ذلك... "اعتصر بقية أنبوب اللون الرفيع... "شاردان فنان عظيم... مالينسون يبيع لوحاته لينفق على طعامه الآن. لكن انتظر حتى يكتشفها التجار. سيكون فنانًا عظيمًا، نعم، عظيمًا جدًا."

"إنها حياة مشوقة إلى أبعد حد". قال يعقوب، "مرح صاحب هنا. مع ذلك، فهو فن غبي يا كروتيندون." تجول في جميع أنحاء الغرفة. "ها هو هذا الرجل، بير لويز الآن." تناول كتابًا.

قال كروتندون: "الآن سيدي العزيز، أئن تستقر في مكان؟" "هذه قطعة فنية رائعة"، قال يعقوب وهو يضع اللوحة على المقعد. قال كروتندون وهو ينظر من فوق كتفه: "أوه، لقد أنجزتها منذ زمن طويل".

"أنت رسام قدير جدًا في رأيي". قال يعقوب بعد فترة من الوقت. "الآن إذا كنت ترغب في رؤية ما أرسمه في الوقت الحالي". قال كروتيندون، وهو يضع لوحة زيتية أمام يعقوب. "ها هي هناك. وهذه تشبهها كثيرًا. تلك..." لوى إبهامه في دائرة حول كرة مصباح مدهونة بالأبيض. "عمل رائع"، قال يعقوب، واقفًا على قدميه أمام اللوحة "ولكن ما أتمناه أن تفسر لي..."

في تلك اللحظة دخلت الأنسة جيني كارسليك، شاحبة، منمشة، معتلة.

"أهلاً جيني، أقدم إليك صديقاً. فلاندرز. إنجليزي. ثري. علاقته بأصدقائه جيدة. فلنعد إلى حديثنا يا فلاندرز..."

لم يقل يعقوب شيئاً.

"إنه كذلك - هذا ليس صحيحاً". قالت جيني كارسليك.

"كلا"، قال كروتيندون بلا تردد. "لا يمكن عمل ذلك."

أخذ اللوحة من على الكرسي ووضعها على الأرض وظهرها إليهم.

"اجلسا، سيدتي وسيدي. الآنسة كارسليك قادمة من منطقتك يا فلاندرز. من ديفونشاير. أوه، أعتقد أنك قلت ديفونشاير. ممتاز جداً. إنها ربيبة الكنيسة أيضاً. النعجة السوداء في العائلة. والدتها تكتب لها مثل تلك الرسائل. أتساءل، هل لديك واحدة؟ إنها تأتي أيام الأحد بشكل عام. شيء من قبيل تأثير جرس الكنيسة، كما تعلم."

"هل قابلت كل الرسامين هنا؟" قالت جيني. "هل مالينسون ثمل؟ إذا ذهبت إلى مرسومه فسوف يعطيك إحدى لوحاته. أقول يا تيدي..."

"نصف لحظة" قال كروتيندون "أي فصل هذا؟" تطلع من النافذة.

"نحن نأخذ يوم الأحد إجازة يا فلاندرز."

"هل يأخذ الأحد إجازة..." قالت جيني وهي تنظر إلى يعقوب.
"أنت..."

قال كروتيندون "نعم، سوف يأتي معنا".

ثم، ها هو قصر فرساي. وقفت جيني على الحافة الحجرية ومالت على البركة، ممسكة بذراعي كروتندون حتى لا تسقط. "هناك! هناك!" صاحت. "أعلى القمة تمامًا!" طفت بعض الأسماك البطيئة بظهر منحدر من القاع لتلتهم الفتات التي ألقتها. "أرأيت"، قالت وهي تقفز أرضًا.

ثم المياه البيضاء المتلألئة، الهائجة والمسرعة، انطلق في الهواء رذاذ النافورة. عبرها تنهى صوت موسيقى عسكرية من بعيد.

تغضن الماء بأكمله من الرذاذ. اصطدمت كرة زرقاء مملوءة بالهواء بالسّطح. كيف احتشد جميع المربيات والأطفال والكهول والشباب حول الحافة، منحنين عليها وملوحن بعكاكيزهم! ركضت الفتاة الصّغيرة وهي تفرد ذراعها نحو الكرة، لكنها غاصت أسفل النافورة.

وقف إدوارد كروتيندون، وجيني كارسليك ويعقوب فلاندرز مصطفىين على طول طريق الحصباء الصفراء، يواصلون طريقهم على العشب؛ لذا فقد مروا من تحت الأشجار؛ وخرجوا عند المنزل الصيفي حيث اعتادت ماري أنطوانيت شرب الشوكولاتة. دخل إدوارد وجيني، ولكن يعقوب انتظر في الخارج، مستندًا إلى مقبض عكازه. خرجا مرة أخرى.

"حسنًا؟" قال كروتيندون وهو يتسم ليعقوب.

انتظرت جيني؛ انتظر إدوارد؛ ونظر كلاهما إلى يعقوب.

"تعالاً"، قرر؛ وانطلق. تبعه الآخرون وهما يتسلمان.

ثم ذهبوا إلى مقهى صغير في شارع جانبي حيث يجلس أناس يشربون القهوة، يراقبون الجنود، وينفضون الرماد في الطفايات.

"لكنه مختلف تمامًا". قالت جيني وهي ترفع يديها عاليًا بمنظارها. "أفترض أنك لا تعرف ماذا يقصد تيد عندما يقول شيئًا كهذا". قالت وهي تنظر إلى يعقوب:

"لكنني أعرف. في بعض الأحيان قد أقتل نفسي. في بعض الأحيان ينام في الفراش طوال اليوم - يرقد هناك فحسب... لا أريدك أن تجلس على الطاولة مباشرة؛" لوحت بيديها. الحرائم اللامعة بألونها القزحية راحت تتبختر حول أقدامهم.

"حسنًا؟" قال يعقوب وهو يتسم ويضغط بيديه على عصاه.

"انظر إلى قبعة تلك المرأة"، قال كروتيندون. كيف يتوصلون إلى التفكير فيها؟... كلا يا فلاندرز، لا أعتقد أنني يمكن أن أعيش مثلك. حين يسير المرء في ذلك الشارع المقابل للمتحف البريطاني - ما اسمه - هذا ما أقصده. كل شيء يشبه ذلك. هؤلاء النساء البدينات - والرجل يقف في منتصف الطريق كما لو كان سيصاب بنوبة..."

"الجميع يلقي إليها بالطعام"، قالت جيني وهو تشيح بيدها لتبعد الحمام "إنها أشياء قديمة غبية".

قال يعقوب وهو يدخن سيجارته "حسنًا، لا أعرف". "ها هي كنيسة القديس بولس".

"أنوي الذهاب إلى قداس"، قال كروتيندون.

"تخلص من تلك الفكرة"، اعترض يعقوب.

قالت جيني وهي تنظر إلى كروتيندون: "لكنك لا تكثر بشيء كهذا". "أنت مجنون. أقصد، أنت فقط تفكر في الرسم".

"نعم أعرف. ليس بوسعي فعل شيء. أفكر، هل سيوافق الملك جورج على طلبات أقرانه من النبلاء؟"

قال يعقوب: "عليه أن يوافق بكياسة".

"هناك!" قالت جيني. "إنه يعرف حقًا".

قال كروتندون: "كما ترى، سأفعل لو استطعت ذلك، لكنني ببساطة لا أستطيع ذلك".

"أعتقد أنني أستطيع"، قالت جيني. "فقط، كل الأشخاص الذين لا يحبهم المرء هم الذين يفعلون ذلك. في المنزل، أقصد. يتحدثون عن أي شيء آخر. حتى الناس الذين يحبون أُمي".

"الآن إذا أتيت للعيش هنا -". قال يعقوب. "ما هو نصيبي يا كروتيندين؟"

أوه، حلو جدًا. احسبه كما يحلو لك. تلك الطيور السخيفة، بمجرد أن يرغبها المرء - تطير بعيدًا".

وأخيرًا تحت المصابيح القوسية في محطة أنفاليد، مع واحدة من تلك الحركات الغريبة التي تحدث بخفة ولكنها تكون حاسمة جدًا، والتي قد تجرح المشاعر أو تمر دون أن يلحظها أحد، غير أنها تسبب عمومًا قدرًا كبيرًا من الحرج، اقتربت جيني وكروتيندون من بعضهما؛ وقف يعقوب بمفرده. كان عليهم أن يفترقوا. شيء ما يجب أن يقال. لا شيء قيل. مر رجل يدحرج عربة على مقربة جدًا من قدمي يعقوب إلى درجة أنه دهسهما. عندما استعاد يعقوب توازنه كان الاثنان الآخران يستديران مبتعدين، على الرغم من أن جيني نظرت من فوق كتفها، ولوح كروتيندون بيده، مختفيًا، مثل العبقرى العظيم الذي كانه.

كلا - لم يُذكر لمدام فلاندرز شيء من هذا، على الرغم من أن يعقوب أحس، أنه لا خوف في أن يقوله، حيث لا يوجد شيء في العالم أكثر أهمية من ذلك؛ لأنه كان يعتقد أن كروتندون وجيني، أكثر شخصين مهمين التقاهما على الإطلاق - عدم القدرة بالطبع على توقع كيف وقع ذلك خلال الوقت الذي استغرقه كروتندون في رسم البساتين؛ كان عليه بالتالي أن يعيش في كينت؛ وكان عليه، كما قد يفكر المرء، أن يرى زهور التفاح في هذا الوقت، لأن زوجته، التي من أجلها فعل ذلك، هربت مع روائي؛ لكن لا؛ ما يزال كروتيندون يرسم البساتين، بوحشية، في عزلة.

ثم جيني كارسليك، بعد علاقتها بليفانو الرسام الأمريكي، راحت تتردد على حكماء الهند، والآن تجدها في بيوت الضيافة في إيطاليا تعلق صندوق مجوهرات صغير يحتوي على حصى عادي تم التقاطه من الطريق. لكن إذا تأملتها جيدًا، كما تقول، تتحول التعددية إلى وحدة، وهي سر الحياة بطريقة ما، وإن كان ذلك لا يمنعها من متابعة المكرونة وهي تنزل حول الطاولة، وفي بعض الأحيان، في ليالي الربيع، تعترف بأغرب الأسرار لشباب إنجليز خجولين.

ليس لدى يعقوب ما يخفيه عن والدته. الأمر ينحصر في أنه لا يستطيع التعبير عن إثارته غير العادية، وكذلك كتابتها على الورق.

"إن رسائل يعقوب تشبهه"، قالت السيدة جارفيس، وهي تطوي الرسالة.

قالت السيدة فلاندرز "في الواقع يبدو أنه يقضي..."، وتوقفت قليلًا، لأنها كانت تفصل ثوبًا وكان عليها أن تساويه بالنموذج، "... أوقاتًا صاخبة جدًا".

فكرت السيدة جارفيس في باريس. وإلى ظهرها، كانت النافذة مفتوحة، لأنها كانت ليلة لطيفة؛ ليلة هادئة؛ عندما بدا القمر محبوبًا وأشجار التفاح تقف ساكنة تمامًا.

"أنا لا أرثي الموتى أبدًا"، قالت مدام جارفيس، وهي تحرك الوسادة

عند ظهرها، وتشبك يديها خلف رأسها. لم تسمع بيتي فلاندرز، لأن مقصها أثار الكثير من الجلبة على الطاولة.

"لقد استراحوا"، قالت السيدة جارفيس. "ونحن نقضي أيامنا في القيام بأشياء غبية لا داعي لها دون أن نعرف لماذا".

لم تكن مدام جارفيس تحب الحياة في القرية.

"ألا تتمشين أبداً في هذا الوقت من الليل؟" سألت السيدة فلاندرز.

"الجو حقاً لطيف جداً"، قالت السيدة فلاندرز.

مرت سنوات إلى الآن منذ أن فتحت بوابة البستان وخرجت تتمشى على دودز هيل بعد العشاء.

قالت السيدة جارفيس: "لقد جفت تماماً"، بينما تغلقان باب البستان وتخطوان على طبقة العشب.

"لن أذهب بعيداً"، قالت بيتي فلاندرز. "نعم، سوف يغادر يعقوب باريس يوم الأربعاء".

قالت السيدة جارفيس: "يعقوب هو المفضل عندي من بين أبنائك الثلاثة".

"الآن، يا عزيزتي، لن أذهب أبعد من ذلك" قالت السيدة فلاندرز. صعدوا التل المظلم ووصلوا إلى المعسكر الروماني.

ارتفع الحصن عند أقدامهم - أحاطت الدائرة الملساء بالمعسكر أو الضريح. كم عدد الإبر التي فقدتها بيتي فلاندرز هناك؛ وبروشها العقيق.

"تكون أوضح بكثير من هذا في بعض الأحيان"، قالت السيدة جارفيس، وهي تقف على التلال. لم تكن هناك غيوم، ومع ذلك كان هناك ضباب فوق البحر وعلى المستنقعات. وأضواء سكاربورو تومض، كما لو كانت امرأة ترتدي قلادة من الماس تحرك رأسها هنا وهناك.

"يا له من هدوء!" قالت السيدة جارفيس.

فركت السيدة فلاندرز العشب بأصابع قدميها، وهي تفكر في بروشها. وجدت السيدة جارفيس أنه من الصعب التفكير في نفسها الليلة. كان الجو هادئًا جدًا. لم يكن هناك رياح؛ لا شيء يتسابق، يتطاير، يتسلل. جثمت الظلال السوداء ساكنة فوق المستنقعات الفضية. انتصبت شجيرات الجولق دون حراك. لم تتحول أفكار السيدة جارفيس إلى الله. كانت ثمة كنيسة وراءهما، بالطبع. دقت ساعة الكنيسة العاشرة. هل وصلت الدقات إلى شجيرة الجولق، أو تناهت إلى مسامع شجرة الزعرور؟

مالت مدام فلاندرز لتلتقط حصاة. كثيرًا ما يعثر الناس على أشياء، فكرت مدام جارفيس، وإن كان في ضوء هذا القمر المحجوب تتعذر رؤية أي شيء، باستثناء العظام، وقطع صغيرة من الطباشير.

"لقد اشتراه يعقوب من ماله، وذات مرة أحضرت السيد باركر ليشاهد

المنظر، لا بد أنه وقع مني - "غمغمت مدام فلاندرز.

هل تتقلقل العظام أو تصدأ السيوف؟ أبات بروش مدام فلاندرز ذو البنسين والنصف جزءاً من الآثار الثمينة المتراكمة؟ وإذا ما اندفعت الأشباح كلها أفواجاً غزيرة ومسدت أكتافها بكتف مدام فلاندرز في الدائرة، ألم تكن لتبدو مثالية في وضعها تماماً، ربة البيت الإنجليزية الحية التي تزداد بدانة؟

دقت الساعة ربعاً آخر.

اندلعت الأصوات الضعيفة للأمواج بين الجولق الواقف ساكناً وأغصان الزعرور البري بينما تُقسَّم ساعة الكنيسة الوقت إلى أرباع. استقبلت المستنقعات الهامدة الشاسعة البيان "لقد مرت خمس عشرة دقيقة من الساعة"، لكنها لم تستجب، ما لم يكن نبات العليق قد اهتز.

مع ذلك حتى في هذا الضوء، يمكن قراءة النقوش على شواهد القبور، بأصوات موجزة تنطق: "أنا برثاروك"، "أنا توم غيج". ويذكرون في أي يوم من السنة ماتوا، والعهد الجديد يقول شيئاً لأجلهم، شيئاً باعثاً على الفخر جداً، أو رائعاً جداً، أو مجرد رثاء.

تقبلت المستنقعات كل ذلك أيضاً.

ضوء القمر يسقط مثل صفحة باهتة على جدار الكنيسة، ويضيء العائلة الجاثية في المحراب، ولوح الكتابة الذي أنشئ عام 1780 لفارس الأبرشية

الذي كان يساعد الفقراء، ويؤمن بالرب - وهكذا يستمر الصوت الموزون
 مازًا من أسفل الرخام، كما لو كان بوسعه أن يفرض نفسه على الوقت
 والهواء الطلق.

الآن يتسلل ثعلب من خلف شجيرات الجولق.

غالبًا، حتى في الليل، تبدو الكنيسة مكتظة بالبشر. المقاعد رثة ومبقعة
 بالدهون، وأردية الكهنة في أماكنها، وكتب التراتيل على الأرفف. إنها سفينة
 تحمل على متنها جميع أفراد طاقمها. ينهصر الخشب لحمل الموتى والأحياء،
 والفلاحين، والنجارين، والنبلاء الذين يصيدون الثعالب، والمزارعين
 المشربين بالطين والبراندي. تتحد ألسنتهم معًا في كلمات قاطعة، تمزق على
 الدوام الوقت إربًا، كذلك المستنقعات المترامية الأطراف. كانت الشكوى
 والإيمان والرثاء واليأس والانتصار، ولكن النصيب الأكبر يكون للحكمة
 والمرح الهادئ، تنطلق بتؤدة من النوافذ في أي وقت طوال تلك الخمس مئة
 عام. ومع ذلك، كما قالت السيدة جارفيس، وهي تخطو على المستنقعات،
 "كم هي هادئة!" هادئة في منتصف النهار، إلا عندما تتبعثر فيها الطرائد؛
 هادئة في فترة بعد الظهر، عدا حينما تتجمع الأغنام. في الليل يكون المستنقع
 هادئًا تمامًا.

وقع بروش العقيق في العشب. وطئه ثعلب خلصة. ورقة شجر قلبت
 حافته. السيدة جارفيس، البالغة من العمر خمسين عامًا، تعود إلى المعسكر
 في ضوء القمر الغائم.

"... و"، قالت السيدة فلاندرز وهي تعدل ظهرها: "لم أهتم أبداً بالسيد باركر".

قالت السيدة جارفيس: "أنا كذلك لم أهتم به". شرعا في العودة إلى البيت.

لكن أصواتهم طفت قليلاً فوق المعسكر. لم يشتت من ضوء القمر شيء. لقد تقبل المستنقع كل شيء. وتوم غيج يبكي بصوت مرتفع ما بقي قبره صامداً.

الهياكل العظمية الرومانية في أمان. إبر خياطة بيتي فلاندرز آمنة للغاية والبروش العتيق. وفي بعض الأحيان في منتصف النهار، في ضوء الشمس، يبدو أن المستنقع يضم هذه الكنوز الصغيرة، مثل مربية. ولكن في منتصف الليل عندما لا يتحدث أحد أو يعدو، وما تزال شجرة الزعرور ساكنة تماماً، يصبح من الغباء أن تحير المستنقع بالأسئلة - ماذا؟ ولماذا؟

ساعة الكنيسة، مع ذلك، تدق الثانية عشرة.

الفصل الثاني عشر

كانت المياه تسقط من حافة صخرية مثل رصاص منصهر - مثل سلسلة مكونة من حلقات فضية غليظة. ركض القطار عبر مرج أخضر شديد الانحدار، ورأى يعقوب زهور الأقحوان متعددة الألوان وسمع طائرًا يصدح، في إيطاليا.

مرت سيارة مكتظة بالضباط الإيطاليين على الطريق المنبسط مثيرة الغبار خلفها ومواكبة لحركة القطار. كانت هناك أشجار مربوطة معًا بأغصان الكروم - كما قال فيرجيل. هنا محطة؛ صاحبة بكلمات الوداع، بنساء ينتعلن أحذية صفراء عالية وأولاد شاحين غربيي الأطوار بجوارب مخططة. تشتت نحل فيرجيل في سهول لومباردي. تعود القدماء أن يزرعوا الكروم بين أشجار الدردار. ثم في ميلانو، كان هناك صقور ذات أجنحة حادة، باللون البني الفاتح، تحترق الأشكال الزخرفية على أسطح البنايات.

هذه المقصورات الإيطالية تزداد سخونتها على نحو بشع تحت شمس الظهيرة، وقبل أن تصعد القاطرة إلى قمة الممر الضيق هناك فرص لأن تنقطع السلسلة المعقعة. تحرك صاعدًا، إلى أعلى، إلى أعلى، مثل قطار يظهر في عرض. كل ذروة مغطاة بالأشجار الخلابية، وقرى بيضاء بديعة تتكدس

على الحواف الصخرية. يوجد دائماً برج أبيض أعلى القمة تماماً، وسقف مسطحة مزينة بالورد الأحمر، بمنحدرٍ شفاف عنها. إنها ليست البلد الذي يتمشى فيه المرء بعد الشاي. على الأرجح لعدم وجود حشائش. ولأن منحدر التل مغطى بأكمله بأشجار الزيتون. بحلول إبريل، تقبع الأرض بينها في غبار جاف. ولا توجد أي كباري ولا ممرات للمشاة، ولا مسارات موشاة بظلال الأوراق ولا تُنزل من القرن الثامن عشر مزودة بنوافذ مقوسة، حيث يأكل المرء البيض ولحم الخنزير. أوه كلا، إيطاليا ليست إلا عنفاً وعرياً وفضح، وكهنة سوداً يجرون أقدامهم على طول الطرق. غريب أيضاً، ألا تجد طريقة للانفلات من الفيلات مطلقاً.

ومع ذلك، فإن سفر المرء بمفرده ومعه مئة جنيه لنفقاته يعتبر شيئاً رائعاً. فإذا ما نفذت نقوده، كما يحدث أحياناً، سيواصل المشي على قدميه. بوسعه أن يعيش على الخبز والنبذ - في قنينات من القش - لأنه بعد قيامه برحلة اليونان، سيتخلص من روما نهائياً. كانت الحضارة الرومانية وضیعة جداً، بلا شك. تحدث بونامي بكثير من الهراء في هذا الموضوع. "عليك بزيارة أثينا"، هذا ما سيقوله لبونامي عندما يعود. سيقول له: "الوقوف على البارثينون⁽¹⁾" أو "أطلال الكولوسيوم⁽²⁾ يلهمك أفكاراً عظيمة حقاً"،

(1) البارثينون معبد إغريقي في مدينة أثينا، بُني على جبل الأكروبولس، ويعتبر من أفضل نماذج العمارة الإغريقية القديمة. بنى الإغريق البارثينون في الفترة ما بين 447 و432 ق.م. وقد صممه المهندس الإغريقيان أكتينوس وكاليكراتس، وأشرف على أعمال النحت النحات الإغريقي فيدياس. وفي حوالي عام 500م تحول المعبد إلى كنيسة مسيحية.

(2) الكولوسيوم أو الكوليسيوم أو الكلوسيم أو ما يسمى المدرج الفلافي، هو مدرج روماني عملاق يقع في وسط مدينة روما، تم تشييده إلى شرق المتدى الروماني، ويرجع تاريخ بنائه إلى عهد =

والتي سيكتبها باستفاضة في رسائله. قد تتحول إلى مقال عن الحضارة. مقارنة بين القدماء والمعاصرين، مع بعض اللمحات الذكية عند السيد أسكويث - شيء ما بأسلوب جيون.

سيد بدين حاول إقحام نفسه بصعوبة ليدخل، متربًا، منتفخًا، تتدلى منه سلاسل ذهبية، ويعقوب وهو يساوره الندم أنه لم ينحدر من عرق لاتيني، تطلع من النافذة.

تفكير غريب أنه بالسفر لمدة يومين وليلتين تصبح في قلب إيطاليا. تظهر الفيلات بشكل مباغت بين أشجار الزيتون؛ والخدم يروون أشجار الصبار. تنطلق العربات المكشوفة بين الأعمدة الفخمة بدروع جصية ملتصقة عليها. إنها تظهر في الحال خاطفة وحميمة بشكل مدهش - لعيني أجنبي. وهناك قمة منعزلة لا تترأى لأحد مطلقًا، ومع ذلك، فقد تراءت لي وأنا في الحافلة في ساعة متأخرة أسفل بيكاديلي. وما رغبت فيه حقًا هو النزول بين الحقول، والجلوس وسماع صوت الجراد، وتناول حفنة من التربة - التربة الإيطالية، بينما هذا الغبار الإيطالي على حذائي.

= الإمبراطورية الرومانية في القرن الأول فيما بين عامي 70 و 72 بعد الميلاد تحت حكم الإمبراطور فلافيو فسبازيان، وتم الانتهاء منه بشكل أساسي عام 80 في عهد تيتوس، إلا أنه قد أضيفت إليه بعض التعديلات في عهد دوميتيان. وقد بُني المدرج الأكبر في العالم من الخرسانة والحجارة، ويعد المدرج بمثابة العمل الأكبر الذي شيدته الإمبراطورية الرومانية، حيث يعتبر واحدًا من أعظم الأعمال المعمارية والهندسية الرومانية. وطُبعت صورة الكولوسيوم على قطعة الخمس سنتات من النسخة الإيطالية.

سمعهم يعقوب يهتفون بأسماء غريبة في محطات القطار طوال الليل. توقف القطار وتناهى إليه صوت نقيق الضفادع على مقربة منه، كمش الستارة بحذر ورأى مستنقعا غريباً واسعاً يسطع بأكمله في ضوء القمر. كانت المقصورة مضربة بدخان السيجار، الذي طفا حول كرة المصباح بظل أخضر. استلقى الرجل الإيطالي يشخر بدون حذاء وصدريته مفتوحة الأزرار.

وبدت كل هذه الحركة ليعقوب في طريقه إلى اليونان جهداً لا يطاق - الجلوس في الفنادق بمفرده والتطلع إلى المعالم الأثرية - كان من الأفضل أن يذهب إلى كورنوال مع تيمي دورانت.... "أو - ه"، احتج يعقوب، حين راح الظلام يتمدد أمامه، ومن خلاله يتبدى الضوء، ولكن الرجل كان قد مر من أمامه لجلب شيء ما - كان الإيطالي البدين في صديرتة، غير حليق، جعد الشعر، سميناً، يفتح الباب ويخرج ليغتسل.

نهض يعقوب جالساً في مكانه، ورأى رياضياً نحيفاً من الإيطاليين يحمل مسدساً وهو يسير على الطريق في ضوء الصباح الباكر، فارتسم في ذهنه البارثينون بكامله في لحظة.

"بحق جويتر!" فكر، "لا بد أننا قريبون منه!" وعلق رأسه خارج النافذة والهواء يندفع في وجهه.

من المثير جداً للسخط أن يكون بمقدرة خمسة وعشرين شخصاً من

معارفك أن يقولوا على الفور شيئاً رائعاً جداً عن رحلة إلى اليونان، بينما بالنسبة إليك ثمة سداة على مشاعرك كلها أيّما كانت. بعد الاستحمام في الفندق في باتراس⁽¹⁾، اتبع يعقوب خطوط الترام على بعد ميل أو نحو ذلك؛ واتبعها ميلاً أو نحو ذلك مرة أخرى؛ قابل العديد من أسراب الديوك الرومية؛ عدة أرتال من الحمير؛ تاه في شوارع خلفية؛ قرأ إعلانات عن مشدات الصدر ومِرقة ماجي؛ داس الأطفال على أصابع قدميه؛ فاح المكان برائحة جبن فاسد؛ وأحس بالسعادة حين وجد نفسه فجأة يخرج قبالة فندقه. كانت هناك نسخة قديمة من صحيفة الدايلي ميل بين فناجين القهوة؛ قرأها. ولكن ماذا يفعل بعد العشاء؟

من المؤكد أننا، في الأغلب الأعم، نصبح أسوأ حالاً مما نحن عليه بدون ملكتنا المذهلة على التخيل. في سن الثانية عشرة أو نحو ذلك، بعد أن نتخلص من الدمى ونهشم محركات لعبنا، فإن فرنسا، ولكن الأكثر إلحاحاً منها ربما إيطاليا، والهند تقريباً على وجه التحديد، تداعب خيالنا المفرط. عمات وخالات المرء زُرْنَ روما؛ وكل من له خال سمع عنه آخر مرة - المسكين - في رانجون⁽²⁾. لن يعود أبداً بعد ذلك. لكن معلمينا ومربينا هم من ابتدعوا أسطورة الإغريق. انظر إلى تلك الرأس (يقولون) - الأنف، كما ترى، مستقيم كسهم، الشعر المجعد، الحاجبان - كل سمات الجمال

(1) باتراس: مدينة يونانية تقع في غرب البلاد، وهي عاصمة مقاطعة غرب اليونان الإدارية، وأيضاً مركز مقاطعة أخايا أحد المقاطعات الثلاث المشكّلة لمنطقة غرب اليونان.
(2) يانجون حالياً رانجون، هي العاصمة السابقة لبورما.

الذكوري؛ في حين أن بساقيه وذراعيه خطوطاً تشير إلى درجة تامة من النمو، فال يونانيون يهتمون بالجسد قدر اهتمامهم بالوجه. وكان بوسعهم رسم الفاكهة إلى حد أن تنقر الطيور منها. أنت تبدأ أولاً بقراءة زينوفون⁽¹⁾؛ ثم يوريبيدس⁽²⁾. يوماً ما - يأتي بمحض الصدفة، بفعل الرب - حيث يبدو أن ما قاله الناس قد اكتسب معنى؛ "الروح الإغريقية"؛ الإغريقي هذا، وذلك، والآخر؛ برغم أنه من السخف، بالمناسبة، أن نقول إن أي يوناني اقترب من منزلة شكسبير. وإن كانت المسألة الأهم هي أننا تربينا في الوهم.

لا شك أن يعقوب فكر في شيء بهذه الطريقة، تكرشت الديلي ميل في يده؛ تمددت ساقاه؛ الصورة الحقيقية للسأم.

"لكن هذه هي الطريقة التي تربينا عليها". راح يفكر.

وبدت برمتها كريمة جداً. لا بد من فعل أي شيء حيالها. ومن كونه مكتئباً بشكل معتدل أصبح مثل رجل على وشك الإعدام. تركته كلارا دورانت في الحفلة لتحدث إلى أمريكي يدعى بيلشرد. واجتاز هو كل طريقه إلى اليونان وتركها. كانا يرتديان ملابس السهرة، وتحدثا حديثاً تافهاً - ياله من هراء - ومد يده إلى "الرحالة"⁽³⁾، وهي مجلة دولية توزع مجاناً على أصحاب الفنادق. على الرغم من حالتها المتداعية، فإن اليونان

(1) هو فيلسوف يوناني قديم ومؤرخ وجندي ومرتزق وكان أحد طلاب سقراط.

(2) يوريبيدس هو روائي مسرحي يوناني ولد في سالاميس سنة 480 ق.م. وتوفي في مقدونيا سنة 406 ق.م.

Globe Trotter (3)

المعاصرة متطورة للغاية في نظام الترام الكهربائي، لذلك بينما يجلس يعقوب في بهو الفندق، قعقع الترام، أطلق صفيراً، توت، توت، توت بإلحاح لإبعاد الحمير عن الطريق، ورفضت امرأة عجوز التزحزح، أسفل النوافذ. كانت الحضارة مدانة بأكملها.

لم يهتم نادل الفندق، أرسطو، بذلك هو الآخر. رجل قذر، يولي اهتماماً فقط على طريقة آكلي لحوم البشر بجسد الضيف الذي يحتل المقعد ذا الذراعين الآن، دخل إلى الغرفة بزهو، ووضع شيئاً ما، وعدل شيئاً آخر، ورأى أن يعقوب ما زال هناك. "أريد أن يوقظني أحد مبكراً غداً". قال يعقوب من فوق كتفه، "أنا ذاهب إلى أولمبيا."

هذه الكآبة، هذا الاستسلام إلى المياه السوداء التي تدوم حولنا، اختراعٌ حديث. ربما، كما قال كروتندون، نتيجة لقلّة الإيمان. كان آبائنا على الأقل لديهم شيء يهدمونه. نحن أيضاً لدينا ما نفعل به الشيء نفسه، فكر يعقوب، وهو يكمش الديلي ميل في يده. سيذهب إلى البرلمان ويلقي خطاباً رنانة - ولكن ما جدوى الخطب البليغة والبرلمان، ما دمت استسلمت لشبر واحد في المياه السوداء؟ في الواقع لم يكن هناك أي تفسير لانحسار السعادة والتعاسة وتدفقهما في عروقنا. هذا الاحترام وحفلات السهرة التي تضطرك إلى التأنق، والأحياء الفقيرة البائسة تقبع في الجزء الخلفي من غرايز إن⁽¹⁾ - شيء راسخ، ثابت، وبشع - إنها في الجزء الخلفي منها،

(1) Society of Gray's Inn، المعروفة باسم جرايز Gray's Inn، واحدة من أربعة فنادق صغيرة في كورت بلندن. ليتم استدعاؤك إلى نقابة المحامين وممارسة المحاماة في إنجلترا وويلز، يجب أن ينتمي الشخص إلى أحد هذه الفنادق الصغيرة.

كما فكر يعقوب. ولكن بعد ذلك كانت هناك الإمبراطورية البريطانية التي بدأت تحيره؛ كما أنه لم يكن مؤيدًا لإعطاء الحكم الذاتي لأيرلندا. ماذا قالت الديلي ميل عن ذلك؟

لأنه كبر وأصبح رجلًا، وعلى وشك أن تستغرقه الأشياء - حين قامت خادمة الغرفة، بإفراغ حوضه في الطابق العلوي، ولمست مفاتيحه، وأزراره، وأقلامه الرصاص، وقنينات الحبوب المبعثرة على الطاولة، انتبه إلى ما يدور حوله.

حقيقة أنه شب وأصبح رجلًا، كانت فلورندا تعرفها، فقد كانت تعرف كل شيء، بالغريزة.

انتاب بيتي فلاندرز الآن الشك في ذلك، وهي تقرأ رسالته، الرسالة من بريد ميلانو، "لا يخبرني"، اشتكت للسيدة جارفيس، "بأي شيء أرغب في معرفته حقًا؟" لكنها أطالت التفكير فيما جاء فيها.

فاني المرأيضا، كانت واعية إلى حد اليأس بما كان عليه يعقوب. سيأخذ عصاه وقبعته ويمشي إلى النافذة، ويبدو شاردًا تمامًا وصارمًا جدًا، جال بخاطرهما.

"أنا ذاهب"، سيقول، "ليعزميني بونامي على وجبة".

"على كل حال، يمكنني أن أغرق نفسي في نهر التايمز"، هتفت فاني

وهي تمر سريعاً أمام مستشفى اللقيط⁽¹⁾.

قال يعقوب لنفسه، وهو يبحث عن شيء آخر يقرؤه: "لكن الديلي ميل ليست جديرة بالثقة".

وتنهذ مرة أخرى، كان حقاً مكتئباً جداً إلى درجة أن الكآبة لا بد أن تكون قد توطنت فيه لتغمره في أي لحظة تشاء، وهو ما كان أمراً مثيراً للدهشة في شاب مستعد للاستمتاع بكل شيء، لا يميل إلى التبريرات كثيراً، ولكنه رومانسي بشكل فظيع، بالطبع، هكذا فكر بونامي، في غرفته في جمعية لنكولن⁽²⁾.

"سيقع في حب"، فكر بونامي. "امرأة يونانية بأنف مستقيم."

هذا ما كتبه يعقوب إلى بونامي من باتراس - إلى بونامي الذي لم يستطع أن يحب امرأة ولم يقرأ كتاباً تافهاً مطلقاً.

في النهاية، هناك عدد قليل جداً من الكتب الجيدة، فليس ممكناً أن نضع في اعتبارنا كتب التاريخ الغزيرة، أو كتب الرحلات في عربات تجرها البغال لاكتشاف منابع النيل، أو الكتب الأدبية الثرثرة.

أفضل الكتب التي تلخص مغزاها في صفحة أو صفحتين. أحب الجمل

(1) Foundling Hospital

(2) جمعية معالي لنكولن هي جمعية شرفية لنقابة المحامين وأحد الجمعيات المهنية المرموقة في العالم للمحاميين. تقع الجمعية في لندن، المملكة المتحدة.

التي لا تتزحزح حتى وإن اخترقتها الجيوش. أحب أن تكون الكلمات حادة - مثل آراء بونامي، والتي أكسبته عداء لأولئك الذين تميل ذائقتهم في مجملها إلى البراعم اليانعة في الصباح، والذين يطلون من نوافذهم، بحثاً عن الخشخاش المنتشر في الشمس، ولا يستطيعون كبح جماح صرخة جذلة أمام الخصوبة المذهلة للأدب الإنجليزي. لم يكن ذلك أسلوب بونامي على الإطلاق. لقد أثر ذوقه في الأدب على صداقاته، وجعله صامتاً، متحفظاً، شديد الحساسية، وعلى راحته مع شاب أو شابين فحسب من نفس طريقة تفكيره، هذه هي التهمة التي يمكن أن نوجهها إليه.

ولكن يعقوب فلاندرز لم يكن يفكر بطريقته على الإطلاق - بل على العكس، تنهد بونامي، ووضع أوراق المذكرة على المنضدة واستغرق - ليس للمرة الأولى - في التفكير في شخصية يعقوب.

مشكلته هو ذلك النزغ الرومانسي فيه. "لكنه يمتزج بالغباء الذي أودى به إلى هذه الورطات السخيفة"، فكر بونامي، "هناك شيء ما - شيء ما" - تنهد، لأنه كان يحب يعقوب أكثر من أي شخص في العالم.

ذهب يعقوب إلى النافذة ووقف ويدها في جيبه. هناك رأى ثلاثة يونانيين في تنانير؛ صواري السفن؛ الأشخاص العاطلين أو المشغولين من الطبقات الدنيا يتجولون أو يسرون بحماس، أو يحتشدون في جماعات ويومنون بأياديهم. لم يكن عدم اكتراثهم به هو سبب كآبته؛ إنما قناعة ما أعمق - فليس وحده من يشعر بالوحدة، بل كل الناس كانوا كذلك.

ولكن في اليوم التالي، بينما ينعطف القطار ببطء على التل في الطريق إلى أولمبيا، كانت الفلاحات اليونانيات في الخارج بين الكرّمات؛ الرجال اليونانيون المسنون يجلسون في المحطات يحسّون النيبذ الحلو. وعلى الرغم من أن يعقوب ظل مكتئبًا، فلم يخامره الشك مطلقًا في مدى سحر كونه وحيدًا؛ خارج إنجلترا؛ معتمدًا على نفسه؛ معزولًا عن كل شيء.

الطريق المؤدي إلى أولمبيا، تحوطه تلال شديدة الانحدار؛ وبينها البحر الأزرق مقسمًا إلى مثلثات. يشبه قليلًا ساحل كورنوال. حسنًا الآن، بوسعي التمشية على ضفافه وحدي طوال اليوم - للوصول إلى هذا الممر وتتبع مساره بين الأجمات - أم تراها أشجارًا صغيرة؟ - من أعلى قمة هذا الجبل يمكن للمرء أن يرى نصف العالم القديم.

"نعم"، نطق يعقوب، لأن مقصوده كانت خالية، "لنلقي نظرة على الخريطة". سواء وجدناه مثيرًا للقدح أو المدح، لن ننكر وجود ذلك الحصان الجامح داخلنا. الذي يركض على نحو عصبي؛ يسقط على الرمال منهكًا؛ يشعر بأن الأرض تدور بسرعة؛ يشعر بشكل لا يقبل الجدل بفورة من الصداقة مع الحجارة والأعشاب، كما لو أن الجنس البشري قد انتهى، أما الرجال والنساء، فدعك منهم، لا إنكار لحقيقة أن هذه الرغبة تستحوذ علينا كثيرًا.

حرك هواء المساء على نحو طفيف الستائر المتسخة في نافذة الفندق في أولمبيا. "أشعر أنني مفعمة بحب لكل الناس"، قالت مدام ويتنورث ويليامز

"الفقراء على وجه الخصوص، الفلاحون الذين يعودون في المساء بأحمالهم الثقيلة. كل شيء مليء بالعدوثة والغموض والحزن. إنه محزن، إنه محزن. لكن لكل شيء معنى"، فكرت ساندرا وينتورث ويليامز، وهي ترفع رأسها قليلاً وكانت تبدو جميلة جداً، وحزينة، وراقية. "على المرء أن يحمل مشاعر حب لكل شيء".

كانت تمسك في يدها كتاباً صغيراً مناسباً للسفر - قصص لتشيخوف - بينما تقف، محجبة، بالأبيض، في نافذة الفندق في أوليمبيا. يا له من مساء جميل! وكان جمالها من جماله نفسه. وهي تتحرك نحو المائدة حيث كان زوجها جالساً يقرأ وهي تسند ذقنها إلى يديها وتفكر في الفلاحين، في المعاناة، في جمالها، في التسوية التي لا مفر منها، في الطريقة التي ستكتب بها ذلك. ولم يقل إيفان ويليامز أي شيء قاسٍ أو مبتذل أو سخيف حين أغلق كتابه ووضع بعيداً لإفساح المجال أمام أطباق الحساء التي يتم وضعها الآن أمامهما. فقط أفصح جفناه المرتحيان وخداه الشاحبان عن معاناته الحزينة، مع تسليم بأنه على الرغم من اضطرابه للعيش بحيلة وترو، فلن يتمكن مطلقاً من تحقيق أيًا من تلك الأشياء التي، كما يعرف، هي الأشياء الوحيدة التي تستحق السعي خلفها. كان رأيه هذا لا تشوبه شائبة؛ وصمته مطبقاً.

"يبدو أن كل شيء يحمل مغزى كبيراً"، قالت ساندرا. ولكن مع رنين صوتها توقفت الكتابة. نسيت الفلاحين. ولم يتبقَ معها سوى إحساس

بجمالها، وأمامها لحسن الحظ، كانت هناك مرآة.

"أنا جميلة جدًا"، فكرت.

حركت قبعتها قليلاً. رآها زوجها تنظر إلى المرأة؛ ووافق على أن الجمال مهم؛ إنه إرث؛ لا يمكن لأحد تجاهله. لكنه حاجز؛ إنه في الواقع مصدر إزعاج. لذلك شرب حساءه؛ وأبقى عينيه شاخصتين إلى النافذة.

"طيور السماء"، قالت السيدة ويتورث ويليامز بوهن. "ثم الماعز، على ما أظن؛ ثم..."

"على ما أظن أنه كريم كرامل"، قال زوجها بنفس الإيقاع، وخلة أسنانه في يده بالفعل.

أسندت ملعقتها على صحنها، وأزيع طبق حسائها بعيداً وهو ممتلئ لنصفه. لم تكن تفعل أي شيء يفتقر إلى الرقي؛ لأنها كانت من النوع الإنجليزي الذي يشبه الإغريق كثيراً، باستثناء أن القرويين يسحبون قبعاتهم لهذا النوع، ويبجله النائب؛ والبستانيون الأوائل ومساعدوهم يتصبون باحترام وهي تنزل من التراس الواسع صباح يوم الأحد، تتسكع عند الجرار الحجرية مع رئيس الوزراء لتقطف وردة - والتي ربما كانت محاولة للتلهي، بينما تتجول بعينيهما في غرفة الطعام في النزل في أولمبيا، بحثاً عن النافذة التي وضعت كتابها عليها، حيث اكتشفت قبل بضع دقائق شيئاً ما - شيئاً عميقاً جداً لا بد أنه، عن الحب والحزن والفلاحين.

لكن إيفان هو الذي تنهد؛ لا ييأس ولا بتمرد حقًا. بل لكونه الأكثر طموحًا بين الرجال والأكثر كسلًا وفق طبيعته المزاجية، لم ينجز شيئًا؛ كان يحوز تاريخ إنجلترا السياسي بين أطراف أصابعه، ولم يساعده العيش كثيرًا مع تشاتام، بيت، بيرك، وتشارلز جيمس فوكس على مقارنة نفسه بهم وعصره بعصرهم. "وإن كان الرجال العظماء أكثر ضرورة الآن من أي وقت مضى"، هكذا تعود أن يقول لنفسه وهو يتحسر. هنا كان يلتقط من أسنانه بقايا الطعام في نزل في أولمبيا. انتهى من تنظيفها. لكن عيون ساندرا كانت تتجول حولها.

"هذا البطيخ الوردي خطر جدًّا بلا شك"، قال بتقطعية. وبينما كان يتكلم فُتح الباب ودخل شاب في بدلة رمادية بمربعات.

"جميل ولكنه خطر"، قالت ساندرا، على الفور متحدثة إلى زوجها في حضور شخص ثالث. ("آه، فتى إنجليزي في جولة سياحية"، فكرت في نفسها).

وكان إيفان يعرف ذلك تمامًا هو الآخر.

نعم، كان على دراية بكل ذلك؛ لقد أعجبته. ممتع جدًّا، كما فكر، الدخول في علاقات عاطفية. لكن بالنسبة إليه، ماذا مع قامته الطويلة (كان نابليون خمسة أقدام وأربع بوصات، تذكر)، حجمه، عجزه عن فرض شخصيته (وإن كان الرجال العظماء أكثر ضرورة الآن من أي وقت مضى، تنهد)،

كان عديم الفائدة. رمى سيجاره، واقترب من يعقوب وسأله، على نحو من الصدق والبساطة راق ليعقوب، ما إذا كان قد جاء مباشرةً من إنجلترا. "يا له من إنجليزي صميم!" ضحكت ساندرا عندما أخبرهما النادل في صباح اليوم التالي أن الشاب قد غادر في الساعة الخامسة ليتسلق الجبال. "أنا واثقة بأنه سألك عن حمام؟" هز النادل رأسه وقال إنه سيستفسر من المدير. "لم تفهمني" ضحكت ساندرا. "لا عليك."

تمدد يعقوب على قمة الجبل، في عزلة تامة، وهو يشعر بارتياح كبير مع نفسه. ربما لم يحدث أبدًا أن أحس بالسعادة هكذا طوال حياته.

لكن على العشاء في تلك الليلة سأله السيد وليامز عما إذا كان يرغب في قراءة الجرنال؛ ثم سألتها السيدة ويليامز (أثناء تجولهم في الشرفة يدخلون - وكيف استطاع أن يرفض سيجار ذلك الرجل؟) ما إذا كان قد شاهد المسرح على ضوء القمر؛ ما إذا كان يعرف إيفرارد شيربورن؛ ما إذا كان يقرأ الأدب اليوناني وفي حال اضطر إلى التوضيح بأحدهما (نهض إيفان بصمت ودخل) فأيهما يختار، الأدب الفرنسي أم الروسي؟

"والآن"، كتب يعقوب في رسالته إلى بونامي، "لا بد أن أقرأ كتابها اللعين" - كان يقصد تشيخوف، فقد أعارته إياه.

على الرغم من عدم شيوع هذا الرأي، فمن المحتمل جدًا أن تكون الأماكن المكشوفة، والحقول التي لا يمكن زراعتها جراء تكسدها بالحجارة،

والمروج التي يضر بها البحر في منتصف الطريق بين إنجلترا وأمريكا، أكثر صحة لنا من المدن.

هناك شيء مستبد فينا يستخف بالجدارة. إنه الشيء الذي يزعج ويشوه الحياة الاجتماعية. يجتمع الناس معاً في الغرفة. "سعيد جداً" يقول أحدهم، بمقابلتك، وهذه كذبة. ثم: "أنا أستمتع الآن بالربيع أكثر من الخريف. أظن أن المرء يشعر بذلك، وهو يتقدم في العمر". بالنسبة إلى النساء، فداءً، وأبدًا يتحدثن عما يشعرن به، وإذا قلن "بينما يتقدم المرء في العمر"، فهن يرغبن أن ترد بشيء لا علاقة له بالموضوع الأساسي.

جلس يعقوب في المحجر حيث يقوم اليونانيون بتقطيع الرخام لبناء المسرح. إنه جهد شاق بالفعل أن تتسلق التلال اليونانية في وضع النهار. كان نبات بخور مريم الأحمر قد تبرعمت أزهاره؛ رأى السلاحف الصغيرة تحجل من أجمة إلى أجمة؛ تضوع الهواء برائحة قوية وعطرة على حين بغيته، والشمس، التي تسلطت على شظايا الرخام الخشنة، تكاد تعمي الأبصار.

جلس هناك رابط الجأش، مسيطراً، ومستهيئاً، ومكتئباً قليلاً، وضجراً بنوع مهيب من الملل، يدخن غليونته.

كان بونامي يقول إن هذا هو بالضبط ما يقلقه - حين يغرق يعقوب في نوبة من الكآبة، يبدو وكأنه صياد مارجيت بعيداً عن عمله، أو أميرال

بريطاني متقاعد. ليس بوسعك أن تفهمه شيئاً حين يكون في مزاج كهذا. من الأفضل أن يتركه المرء وشأنه. يصبح مملاً. وميلاً كثيراً إلى الغضب. استيقظ مبكراً جداً، ليذهب لرؤية التماثيل ومعه كتيب الإرشاد.

ساندرا وينتورث ويليامز، تجوب العالم قبل الإفطار بحثاً عن مغامرة أو وجهة نظر، في ملابسها البيضاء بالكامل، ليست طويلة جداً رباحاً، ولكنها مستقيمة بشكل غير عادي - رأت ساندرا ويليامز رأس يعقوب على نفس مستوى رأس هيرميس براكسيتيليس⁽¹⁾. المقارنة كانت في صالحه تماماً. لكن قبل أن تتمكن من قول كلمة واحدة، كان قد خرج من المتحف وتركها.

عادة ما تسافر المرأة الأنيقة بأكثر من ثوب، وإذا كان اللون الأبيض ملائماً للصباح، فربما يكون الأصفر الرملي المنقط بالأرجواني، وقبعة سوداء، ومجلد لبلازك، ملائماً للمساء. هكذا كانت قد تجهزت على الشرفة عندما دخل يعقوب. كانت تبدو جميلة جداً. مستغرقة في التفكير ببيدين مطويتين، بينما تستمع إلى زوجها، وتراقب الفلاحين وهم يهبطون بفروع الأشجار على ظهورهم، وتلاحظ كيف يتغير التل من الأزرق إلى الأسود، وكأنها تفرق بين الحق والباطل، فكر يعقوب، ووضع ساقاً على ساق فجأة، وهو يلحظ ضيق سرواله المبالغ.

(1) هيرميس براكسيتيلز أو هيرميس أوف أولبيا هو تمثال يوناني قديم لهرميس والرضيع ديونيسوس المكتشف في عام 1877 في أنقاض معبد هيرا، أوليمبيا، في اليونان. يتم عرضه في متحف أولبيا الأثري.

"لكن مظهره مميز جدًا"، قررت ساندرًا.

وإيفان وويليامز، وهو يسند ظهره على كرسيه والجرنال على ركبتيه، حسدهما. من الأفضل أن ينشر، مع ماكميلان⁽¹⁾، دراسته عن السياسة الخارجية لساتام. لكن هذا الشعور المرّضي المثير للغثيان يحيره - هذا الأرق والهياج والحمى - إنها الغيرة! الغيرة! الغيرة! التي أقسم ألا تتباه مرة أخرى.

"تعال معنا إلى كورنث⁽²⁾ يا فلاندرز"، قال بحيوية أكثر مما هو معتاد منه، وهو يتوقف عند كرسي يعقوب. شعر بالارتياح من رد يعقوب، أو بالأحرى من الأسلوب الرّزين والمباشر، وإن كان بطريقة خجولة حين قال إنه يسعده أن يصحبهما إلى كورنث.

"ها هو زميل"، فكر إيفان وويليامز، قد يبلي حسنًا في السياسة".

"نويت المجيء إلى اليونان كل عام ما دمت على قيد الحياة" كتب يعقوب إلى بونامي. "إنها الفرصة الوحيدة التي أراها ليحمي المرء نفسه من الحضارة".

(1) دار ماكميلان للنشر (تُعرف أحيانًا باسم مجموعة ماكميلان) هي دار نشر دولية مملوكة لمجموعة هولتزبرينك للنشر. لديها مكاتب في 41 دولة حول العالم وتعمل في أكثر من ثلاثين دولة أخرى.

(2) كورنث، أيضًا كورينثوس مدينة يونانية تقع في وسط جنوب البلاد ضمن منطقة البيلوبونيز الإدارية، وهي مركز مقاطعة كورينثيا ضمن هذه المنطقة الإدارية.

"الرب يعرف ماذا يعني ذلك"، تنهد بونامي. لأنه بما أنه لم يقل شيئاً أخرج عن نفسه من قبل، فإن هذه الكلمات اليايسة التي ذكرها يعقوب أشعرته بالقلق، وإن أثرت على نحو ما، في ميله الذي كان موجهاً كلية نحو المحدد، والملموس، والعقلاني.

لا شيء يمكن أن يكون أكثر بساطة مما قالته ساندرا وهي تهبط الأكروكورنث⁽¹⁾، متبعة الممر الضيق، بينما كان يعقوب يسير بخطوات واسعة على أرض أكثر خشونة بجوارها. فقد فقدت أمها في سن الرابعة؛ وكان البارك شاسعاً.

ضحكت قائلة: "لا أظن أن بوسع أحد الخروج منه". بالطبع كانت هناك مكتبة، والسيد جونز العزيز، ومعلوماته عن الأشياء. "اعتدت أن أشرد إلى المطبخ وأجلس على ركبتي الخادمة"، ضحكت ولكن بحزن. فكر يعقوب أنه لو كان هناك لمساعدتها؛ لأنها تعرضت بالتأكيد لمخاطر كبيرة، وشعر، و، فكر مع نفسه، "لن يفهم الناس امرأة تروي ما ترويهِ هي".

كانت استعدت قليلاً لخشونة التل؛ مرتدية بنطال الإنقاذ، لمحّه، تحت تنورتها القصيرة.

(1) أكروكورنث هو صخرة متجانسة تشرف على مدينة Corinth القديمة، اليونان. "إنه الأكثر إثارة للإعجاب من الأكروبول في البر الرئيسي لليونان"، حسب تقدير جورج فورست.

"نساء مثل فاني المر لا يفعلن"، فكر. "أو مثل - ما اسمها - كارسليك لا تفعل؛ ومع ذلك يتظاهرن..."

مدام ويليامز تتحدث ببساطة. تفاجأ بمعرفته بقواعد السلوك؛ بمدى ما يمكن قوله بدلاً من التفكير؛ بمدى إمكانية التحدث صراحةً مع امرأة؛ وقلة ما كان يعرفه عن نفسه من قبل.

انضم إليهما إيفان في الطريق؛ وبينما كانت السيارة تصعد بهم تلالاً وتهبط منحدرات (لأن اليونان أرض جبلية، لكنها واضحة المعالم بشكل مدهش، أرض بلا أشجار، حيث ترى التربة من بين نصال الأعشاب، كل تلة منفصلة ومشكلة ومحددة بشكل متكرر قبالة المياه الزرقاء العميقة المتألثة، والجزر البيضاء كالرمال السابحة في الأفق، والبساتين المتباعدة من أشجار النخيل المنتصبة في الوديان، التي انتشرت بالماعز الأسود، ورُقِطت بأشجار الزيتون الصغيرة واحتوت أحياناً على تجاويف بيضاء، أشعت وتقاطعت، في جوانبها)، بينما تنطلق بهم السيارة صعوداً وهبوطاً على التلال كان هو متجهماً في زاوية العربة، بقبضة مغلقة بإحكام حتى بدا الجلد مشدوداً بين مفاصل الأصابع والشعيرات الصغيرة منتصبة. ركبت ساندرا قبالتها، مهممة، مثل منتصر يتأهب للانطلاق في الهواء.

"بلا قلب" فكر إيفان (كان ذلك غير صحيح).

"بلا عقل!" راوده الشك (وهذا لم يكن صحيحاً أيضاً). "مع ذلك...!"
كان يحسدها.

عندما جاء وقت النوم وجد يعقوب صعوبة في الكتابة إلى بونامي. مع أنه رأى سلاميز⁽¹⁾ وماراثون⁽²⁾ من بعيد. المسكين بونامي! لا؛ ثمة شيء غريب في ذلك. إنه لا يستطيع الكتابة إلى بونامي.

"سأذهب إلى أثينا في كل الأحوال"، قرر، وهو يبدو في وضع جيد جداً، مع هذا الخطاف الذي يجرحه من خاصرته. ذهبت أسرة وليامز بالفعل إلى أثينا.

ما تزال أثينا لديها القدرة على مفاجأة شاب باعتبارها تركيبة غريبة، أكثر تنويعاً متناقضة. أحياناً تكون قرية بسيطة؛ وأحياناً مدينة خالدة. أحياناً توضع المجوهرات المستوردة الرخيصة على صوانٍ أفخم بكثير. وأحياناً تقف المرأة بجلالة عارية، باستثناء هفهة ثوب فوق الركبة. لا شكل بوسعه أن يحدد به مشاعره بينما يتجول، في يوم حار جداً بعد الظهر، في الشارع الباريسي ويتفادى العربة الملكية التي، تبدو متهاكة بشكل يتعذر وصفه، تقعقع على طول الطريق غير الممهّد، يستقبلها المواطنون بالتحايا من كلا الجنسين في ملابس رخيصة وقبعات مستديرة سوداء وأزياء أوروبية؛

(1) سلاميز Salamis جزيرة يونانية على شكل حافر الفرس، تقع على خليج سارونيك على بُعد 16 كم غرب أثينا. تعتبر سالامينا أهم مدينة في الجزيرة. معظم الأراضي صخرية جبلية، وغالبية السكان من الألبانيين، يزرعون العنب والزيتون وأنواع الفاكهة في الأودية والمناطق الساحلية.

(2) ماراثوناس أو ماراثون؛ مدينة يونانية ومركز لبلدية تقع في جنوب وسط البلاد ضمن مقاطعة آتيكا الشرقية التي تتبع إدارياً لإقليم آتيكا الإداري.

على الرغم من أن راعياً في تنورة، وقبعة، وجراميق⁽¹⁾ كان يسوق قطيعه من الغنم على مقربة جداً من العجلات الملكية؛ وطوال الوقت يبرز الأكروبوليس⁽²⁾ في الهواء، رافعاً نفسه فوق المدينة، مثل موجة كبيرة لا يتزعزع من مكانه مع أعمدة البارثينون الصفراء المغروسة حوله برسوخ.

ستتراءى أعمدة البارثينون الصفراء في جميع ساعات النهار منتصبه بثبات على طول الأكروبوليس؛ حتى في مغيب الشمس، عندما تطلق السفن في بيرايوس⁽³⁾ نيران بنادقها، يقرع الجرس، ويظهر رجل يرتدي الزي العسكري (بصديرية مفكوكة الأزرار)؛ والنساء يلففن الجوارب السوداء اللاتي نسجنها في ظل الأعمدة، ينادين على أطفالهن وينطلقن هابطات التل ليعدن إلى بيوتهن.

(1) الجرموق: الحُفُف القصير يُلبس فوق حُفٍّ.

(2) أكروبوليس أو أكروبول هي هضبة صخرية عالية وسط أثينا. يأتي مصطلح "أكرو" من صفة (العلو والارتفاع) واسم "بوليس" من (مدينة أو بلدة)، وهذا يعني أن "أكروبوليس" معناها "المدينة المرتفعة". وهو معبد يوناني قديم يقع في العاصمة اليونانية أثينا على قمة تل، يعد من أشهر المعابد اليونانية القديمة وكلمة أكروبوليس Acropolis كلمة يونانية قديمة تعني المدينة العالية، وقد اعتاد اليونانيون القدماء لبناء أكروبوليس لكل مدينة ذات أهمية، وكان الأكروبوليس في أثينا له الشأن الأعظم من بين جميع المعابد في المدن اليونانية القديمة، وفي حالة الغزو الخارجي كان اليونانيون يتخذون الأكروبوليس قاعدة حصينة يقاومون القوات الغازية حتى النهاية. أضيف الموقع عام 1987 إلى قائمة اليونسكو للتراث العالمي.

(3) بيرايوس، مدينة يونانية في منطقة أتيكا الإدارية تقع على بعد 9 كيلومترات جنوبي العاصمة أثينا، وهي مركز مقاطعة بيرايوس. تاريخياً كانت ميناء مدينة أثينا القديمة وهي ما زالت تلعب هذا الدور في الوقت الحالي حيث تعد بيرايوس مركزاً صناعياً مهماً ومرفأً للشحن والتفريغ. تقع المدينة ضمن نطاق مترو أثينا.

إنها هناك مرة أخرى، الأعمدة، والقوس، ومعبد النصر، والأرخبون⁽¹⁾، منتصبه على شق صخري مصفر بالظلال، بمجرد أن تفتح نافذتك على مصراعيها في الصباح و، تمل لتطل منها، تسمع القعقعة، والصخب، وطرقعة كرباج أسفلك في الشارع. وهي كائنة هناك.

الحسم الصارم في وقفتهما، أحيانًا بالأبيض الساطع، وأحيانًا أخرى بالأصفر، وبيعض الأضواء الحمراء، يفرض أفكارًا عن الصلابة، عن انبثاق طاقة روحية عبر الأرض، تبددت في مكان آخر في تفاهات أنيقة. ولكن هذه الصلابة قائمة بشكل مستقل عن إعجابنا. على الرغم من أن الجمال إنساني بما يكفي لإضعافنا، وإثارة الرواسب العميقة لطین الذكريات، التخليلات، الندم، الولاءات العاطفية - إلا أن البارثينون مستقل عن كل ذلك؛ وإذا كنت تفكر في كيفية وقوفه طوال الليل، لعدة قرون، فعليك أن تربط بين تألقه (في وضوح النهار يتألق بريقه ويصبح الإفريز غير مرئي تقريبًا) وفكرة أنه من المحتمل أن يكون الجمال وحده هو الخالد.

زد على ذلك، عند مقارنته بالجلس المحبب، وأغاني الحب الحديثة التي تصر في أوتار الجيتار والجراموفون، والوجوه المتحركة وإن كانت غير ذات أهمية في الشارع، فإن البارثينون مذهل حقًا في صمته الرزين؛ ذاك المفعم جدًا بالحياة إلى درجة تنأى به عن فكرة التدهور، بل يظهر

(1) هو معبد يوناني شيد فوق تل الأكروبول بجانب معبد البارثينون، وهو معبد فريد جميل يتميز بأعمدته المنحوتة على هيئة سيدات رشيقات.

البارثينون، على عكس ذلك، مرجحًا بقاءه عن العالم بأسره.

"ولم يكثرث الإغريق مطلقًا، كرجال عقلاء، بإضفاء اللمسات الأخيرة على ظهور تماثيلهم"، قال يعقوب وهو يظلل عينيه ويلاحظ أن جانب التمثال البعيد عن الأنظار، تُرك خشنًا دون تصقيل.

ولاحظ الأخطاء الطفيفة في رسم القياسات التي "يفضلها الحس الفني لليونانيين عن الدقة الهندسية"، كما قرأ في كتابه الإرشادي.

لقد وقف في المكان المحدد حيث اعتاد تمثال أثينا العظيم الوقوف، وحدد المعالم الأكثر شهرة في المشهد أسفله.

كان باختصار دقيقًا ومثابرًا؛ لكنه نكد المزاج جدًّا. علاوة على ذلك، منزعًا من المرشدين. كان هذا يوم الاثنين.

لكنه كتب يوم الأربعاء برقية إلى بونامي، يخبره أن يأتي في الحال. ثم كمشها في يده وألقاها في البلاعة.

"لسبب واحد لن يأتي"، فكر. "وبعد ذلك أظن أن هذا النوع من الأشياء لا يدوم." "هذا النوع من الأشياء" هو شعور غير مريح، مؤلم، شيء يشبه الأنانية - يتمنى المرء تقريبًا أن يتوقف هذا الشيء - إنه يتعدى أكثر فأكثر حدود الاحتمال - "إذا طال الأمر كثيرًا فلن أكون قادرًا على التعامل معه - ولكن إذا كان هناك شخص آخر يراه معي في نفس الوقت - بونامي محنطًا في غرفته في لينكولن إن - أوه، أقول، اللعنة على كل شيء، أقول"، مشهد

هيميتوس⁽¹⁾، وبيتيلكوس⁽²⁾، وليكايتوس⁽³⁾ من جانب، والبحر من جانب آخر، بينما يقف المرء في البارثينون عند غروب الشمس، والسماء مكسوة بالوردي، والسهل بكل الألوان، والرخام يصفر في عيون المرء، هو بالتالي مشهد طاغ. لحسن الحظ، كان يعقوب يولي قليلاً من الاهتمام بالارتباط الشخصي؛ نادرًا ما كان يفكر في جسد أفلاطون أو سقراط؛ من ناحية أخرى كان إحساسه بالهندسة المعمارية قويًا جدًا؛ إنه يفضل التماثيل على الصور. وبدأ يفكر كثيرًا في مشاكل الحضارة، التي قام بحلها، بالطبع، قدماء الأغريق على نحو لافت، على الرغم من أن حلهم لم يكن مفيدًا لنا. ثم صدر عن الخطاب في خاصرته جذبة عنيفة وهو مستلقٍ على الفراش مساء الأربعاء؛ وتقلب عليه بنوع من اليأس، وتذكر ساندرًا ويتورث وييامز التي وقع في حبها. في اليوم التالي صعد البتيليكوس.

بعدها بيوم ذهب إلى الأكروبوليس. كان الوقت مبكرًا؛ المكان شبه مهجور؛ وربما كان ثمة هدير في الهواء. لكن الشمس انصبت بكاملها على الأكروبوليس. انتوى يعقوب أن يجلس ويقرأ، وجد أسطوانة من

(1) هيميتوس، أو هيميتو هي سلسلة جبال في منطقة أثينا، في شرق اليونان الوسطى. وهو معروف بالعامية بتريللوس أو تريلوفونو، وهو اسم من أصل غير مؤكد. في العصور القديمة كان هناك ملاذ لزيوس أو مبراوس على القمة وفيه العديد من العروض التي يرجع تاريخها إلى القرنين 7-8 قبل الميلاد على وجه الخصوص.

(2) بتيليكوس عبارة عن سلسلة جبلية تمتد شمال شرق أثينا وجنوب غرب ماراثون.

(3) تل ليكايتوس هو أعلى التلال الموجودة في أثينا، اليونان؛ إذ يبلغ ارتفاعه 270م فوق مستوى سطح البحر. تتواجد أشجار اللوز والصنوبر في سفح التل بينما يوجد على قمته كنيسة القديس جورج ومسرح ليكايتوس.

الرخام في مكان ملائم، يمكن منها رؤية المراثون، وفوق ذلك كانت في الظل، بينما يتألق الإرخثيوم بالأبيض هناك أمامه. وبعد أن قرأ صفحة وضع إبهامه في كتابه. لماذا لا تحكم البلدان بالطريقة التي ينبغي أن تحكم بها؟ وعاود القراءة مرة أخرى.

لا شك أن جلوسه هناك مطلقاً على المراثون قد رفع معنوياته إلى حد ما. أو ربما من الممكن أن ذلك الدماغ البطيء المترامي الأطراف تنتابه لحظات من التفتح. أو أنه، بطريقة غير معقولة، قد تورط أثناء وجوده في الخارج، بالتفكير على هذا النحو في السياسة.

ثم وهو يرفع عينيه ويرى الخطوط الحادة، بوغت بتأملاته تبلغ حدًا غير عادي؛ انتهت اليونان. البارثينون في أطلال؛ وهو ما زال هناك.

(مرت السيدات بمظلات خضراء وبيضاء عبر الفناء - السيدات الفرنسيات في طريقهن للانضمام إلى أزواجهن في القسطنطينية.)

استأنف يعقوب القراءة مرة أخرى. وبينما يضع الكتاب على الأرض شرع يكتب، كما لو أن ما قرأه قد ألهمه شيئاً، ملاحظة عن أهمية التاريخ - عن الديمقراطية - أحد تلك الشخبطات التي قد تكون نقطة انطلاق لعمل يستغرق حياة المرء بأكملها؛ أو التي تخرج مرة أخرى، في كتاب بعد عشرين عاماً، ولا يمكن للمرء أن يتذكر كلمة واحدة منها. إن هذا مؤلم قليلاً. كان من الأفضل لو أحرقتها.

كتب يعقوب؛ بدأ في رسم أنف مستقيم؛ عندما صاحت جميع السيدات الفرنسيات وهن يفتحن مظلاتهن ويغلّقنها أسفل منه تمامًا، ويتطلعن إلى السماء، ليس بوسع المرء أن يتوقع - طقس ممطر أم صحو؟

نهض يعقوب وتجول عبر الأرخثيوم. ما يزال عدد من النساء يقفن هناك يحملن السقف على رؤوسهن. اعتدل يعقوب قليلًا؛ لأن الاستقرار والتوازن يؤثران على الجسم أولاً. أبطلت هذه التماثيل أشياء على هذا النحو! حدق إليها، ثم استدار، وكانت هناك مدام لوسيان جراف تجثم على كتلة من الرخام بكاميرتها مصوبة إلى رأسه. بالطبع، قفزت إلى أسفل، على الرغم من سنّها، ومظهرها، وأحذيتها الضيقة - فبعد أن تزوجت ابنتها، استسلمت بشهوة مفرطة، لا تخلو من بعض العظمة، إلى بدانة بشعة؛ قفزت هابطة، لكن ليس بالسرعة الكافية كي لا يراها يعقوب.

"سحقًا لهؤلاء النساء - سحقًا لهؤلاء النساء!"، جال بخاطره. وذهب ليجلب كتابه الذي كان قد تركه ملقى على الأرض في البارثينون.

"كيف يفسدن الأشياء"، دمدم وهو يميل على أحد الأعمدة، ويضغط كتابه بين ذراعه وخاصرته. (أما الطقس، فلا شك أن العاصفة ستهب حالًا؛ كانت أثينا تحت غيمة.)

"هؤلاء النساء اللعينات"، قال يعقوب، دون أي أثر للمرارة، ولكن بالأحرى بحزن وخيبة أمل على ما كان يجب ألا يكون أبدًا.

(من المتوقع عمومًا أن يحدث هذا الإحباط العنيف لدى الشباب في ريعانهم، أصحاب العقل والبدن، الذين سيصبحون قريبًا آباء لعائلات ومديري بنوك).

بعد أن تأكد أن الفرنسيات غادرن، وهو يتطلع حوله بحذر، سار يعقوب إلى الإرخثيوم ونظر بمكر إلى الآلهة على الجانب الأيسر اللاتني يحملن السقف برؤوسهن. ذكرته بساندرا ويتتورث ويليامز. نظر إليها، ثم نظر بعيدًا. نظر إليها، ثم نظر بعيدًا. كان قد أثر بشكل غير عادي، ومع وجود الأنف اليوناني المقصوف في رأسه، مع وجود ساندرا في رأسه، مع كل أنواع الأشياء في رأسه، راح يصعد إلى قمة جبل هيميتوس، وحده، في عز الحر.

بعد ظهر ذلك اليوم، ذهب بونامي ليتكلم بصراحة عن يعقوب وهو يتناول الشاي مع كلارا دورانت في الساحة خلف شارع سلون حيث ترى، في أيام الربيع الحارة، ستائر مخططة فوق النوافذ الأمامية، وخيول بمفردها تنبش الحصباء خارج البيوت، وسادة كهول في صدريات صفراء يرنون الجرس ويخطون إلى الداخل بأدب جم حين تجيبهم الخادمة باحتشام بأن السيدة دورانت موجودة في الداخل.

جلس بونامي مع كلارا في الغرفة الأمامية المشمسة وثمة أورغن يصدح بعذوبة في الخارج؛ وصوت عربة الماء وهي تسير ببطء ترش الرّصيف؛ وقعقة السيارات، وكل الفضة والأقمشة القطنية المطبوعة، والسجاد

البنّي والأزرق والزَّهريات الممتلئة بفروع خضراء، ومقلّمة بشريط أصفر راحت ترتجف.

لا تستحق تفاهة ما قيل إلى ذكر عينة منه - استمر بونامي في تكرار الردود الهادئة بلطف وكانت دهشته تتنامى أمام كيان معصور ومتقلص داخل فردة حذاء من الساتان الأبيض (السيدة دورانت كانت تتحدث في هذا الوقت عن السياسة بصوت مرتفع مع السير سمبدي في الغرفة الخلفية) إلى أن ظهرت له روح كلارا الطاهرة صريحة؛ الأعماق مجهولة؛ وكان سيذكر اسم يعقوب لو لم يشعر بيقين لا يقبل الجدل أن كلارا تحبه - ولم يستطع فعل أي شيء.

"لا شيء على الإطلاق!"، صاح وهو يغلق الباب، ولأنه رجل سريع التأثر، شعر بإحساس غريب جداً، بينما كان يعبر الحديقة، عن العربات التي تنطلق دون مقاومة تذكر؛ عن أصص الزهور بمعاييرها الهندسية الصارمة. عن القوة التي تندفع بعماء في الأنماط الهندسية بأكثر الطرق سخافة في العالم. "أكانت كلارا"، فكر، متوقفاً عن مشاهدة الأولاد وهم يستحمون في السربنتين⁽¹⁾، "المرأة الصامتة؟ - هي من سيتزوجها يعقوب؟"

ولكن في أثينا تحت أشعة الشمس، في أثينا، حيث يستحيل الحصول على كوب شاي بعد الظهر، وحيث يواصل السادة الكهول حديثهم في

(1) تعتبر السربنتين (المعروفة أيضاً باسم نهر سربنتين) عبارة عن بحيرة ترفيهية تبلغ مساحتها 40 فدانا (16 هكتاراً) في هايد بارك، لندن، إنجلترا، تم إنشاؤها عام 1730 بناءً على طلب الملكة كارولين.

السياسة طوال الطريق، في أثينا كانت ساندرنا ويتنورث ويليامز تجلس، بحجاب أبيض، ممدة ساقها أمامها، أحد مرفقيها على ذراع الكرسي الخيزران، تحيطه سحب زرقاء متموجة من سيجارتها.

اكتسبت الأشجار البرتقالية التي تزدهر في ميدان الكونستيتيوشن⁽¹⁾، والفرقة، وجرجرة الأقدام، والسماء، والمنازل، الملونة بالليموني، والوردي - معنى مهمًا جدًا لمدام ويتنورث ويليامز بعد كوبها الثاني من القهوة بدأت تستعرض بشكل مسرحي قصة المرأة الإنجليزية النبيلة والمندفعة التي عرضت مقعدًا في مقصورتها للسيدة الأمريكية العجوز في ميسينا (السيدة دوجان) - لم تكن القصة زائفة تمامًا، على الرغم من أنها لم تقل شيئًا لإيفان، وقفت في البداية على قدم واحدة، ثم على الأخرى، في انتظار أن تتوقف النساء عن الثرثرة.

"أنا الآن أكتب حياة الأب داميان في أبيات شعرية"، قالت السيدة دوجان، لأنها فقدت كل شيء - كل شيء في العالم، الزوج والطفل وكل شيء، غير أن الإيمان هو ما بقي.

ساندرنا، وهي تنتقل من الخاص إلى العام، استلقت على ظهر كرسيها في نشوة.

رحلة الزمن التي تجعلنا نهول على نحو مأساوي؛ الكدح الأبدي

Constitution Square (1)

والرتابة، تتفجر الآن في لهب نارٍ يشبه الكرات الصَّغيرة الصفراء قصيرة العمر بين ورق الشجر الأخضر (كانت تنظر إلى أشجار البرتقال)؛ القبلات على الشفاه التي تؤول إلى موات؛ العالم الذي يتحول، ينعطف في متاهات من الحمى والضوضاء - برغم حقيقة أن هذه الأمسية هادئة بشحوبها المحجب، "لكنني أتأثر جدًّا بكافة تفاصيل الأشياء"، فكرت ساندرا، وستكتب إليَّ السيدة دوجان بشكل دائم، وسأرد على رسائلها. "مر موكب الأوركسترا الملكية يسبقه العلم اليوناني مرفرفًا فضفاضًا بخفقات تشحذ العاطفة، واستحالت الحياة إلى شيء أكثر جرأة وإلحاحًا للخروج إلى البحر - تطاير الشعر إلى الوراء (هكذا تصورته، والنسيم يتحرك بطيئًا بين أشجار البرتقال) وكانت تبرز من رذاذ الأمواج الفضية - حين أبصرت يعقوب. كان يقف في الميدان مع كتاب تحت ذراعه ينظر حوله بنظرة فارغة. وقد بدت حقيقة أنه قوي البنيان وقد يغدو بدينًا مع الوقت أمر لا ريب فيه.

لكنها تشككت في كونه مجرد قروي خجول.

"ها هو ذلك الشاب"، قالت، وهي ترمي سيجارتها بعنف، "إنه السيد فلاندرز".

"أين؟" قال إيفان. "أنا لا أراه."

"أوه، لقد ابتعد وراء الأشجار. لا، لا يمكنك رؤيته. لكن من المؤكد أننا سنلتقيه مصادفة"، وهو ما حدث بالطبع.

ولكن إلى أي مدى كان مجرد ريفي ساذج؟ إلى أي مدى كان يعقوب فلاندرز في سن السادسة والعشرين رقيقاً غيبياً؟ لا فائدة ترجى من محاولة تلخيص البشر. على المرء أن يتبع الإشارات، وليس بالضبط كل ما يقال، ولا حتى كل ما يفعل بالضبط. بعضها، صحيح، تحمل انطباعات لا يمكن محوها عن الشخصية على الفور. وبعضها تتوانى، تتلکأ، ثم تبرز بطريقة أو بأخرى. تطمئننا العجائز الطيبات إلى أن القلط غالباً ما تكون أفضل حكم على الشخصية. يقلن إن القطة تذهب دائماً إلى الشخص الطيب؛ ولكن في هذه الحالة، فيم نفكر إن كانت السيدة وايتهورن، صاحبة المنزل الذي يقطنه يعقوب، تشمئز من القلط.

هناك أيضاً رأي جدير بالاحترام مفاده أن مؤيدي التحليل النفسي يبالغون كثيراً هذه الأيام. بعد كل شيء، فيما يهم - أن فاني المر عاطفية وحساسة جداً، ومدام دورانت صلبة كالقولاذ؟ أن كلارا، بسبب (كما يقول مروجو تحليل الشخصية) تأثير والدتها بشكل كبير، لم تتح لها الفرصة بعد لفعل أي شيء بمفردها، وما يظهر فحسب للعين اليقظة للغاية مشاعر دفينة تنذر بالخطر على نحو لا لبس فيه؛ وبقيناً سترتمي في أحضان شخص لا يستحقها في أحد هذه الأيام ما لم يكن لديها، كما يقول مروجو تحليل الشخصية - شرارة روح والدتها - روح بطولية إلى حد ما. ولكن يا له من كلام ينطبق على كلارا دورانت! يظنها الآخرون ساذجة إلى أبعد حد. ولهذا السبب بالذات، كما يقول البعض، ينجذب ديك بونامي إليها - هذا

الشاب ذو أنف ولنجتون. صحيح أنه الآن حصان سباق إمكانات فوزه مجهولة إذا أردت تشبيهه. وقتها تتوقف هذه الثروة فجأة. من الواضح أنهم كانوا يقصدون التلميح إلى تصرفه الغريب - الإشاعة التي راجت طويلاً بينهم.

"لكن في بعض الأحيان تكون امرأة من نوع كلارا على وجه التحديد هي التي تناسب رجالاً بهذه الطباع..." تلمح الأنسة جوليا إليوت.

"حسنًا"، يجيب السيد باولي، "قد يكون الأمر كذلك."

لأنه مهما استمر هذا القيل والقال، وأياً ما كانت طريقة حشو الضحايا حتى ينتفخوا ويلينوا مثل كبد الإوز المشوي على نار حامية، فلن يتوصلوا أبداً إلى نتيجة حاسمة. "هذا الشاب، يعقوب فلاندرز"، سيقولون، "مظهره مميز للغاية - ومع ذلك صعب المراس." ثم يضاهون أنفسهم بـيعقوب ويتأرجحون إلى الأبد بين الطرفين. لقد ركب الخيل ليشارك في المطاردة - مسائراً الموضه، وهو لا يملك فلساً واحداً.

"هل تعرف من كان والده؟" سألت جوليا إليوت.

"يقولون إن والدته، على صلة بآل روكسبير"، أجاب السيد باولي.

"إنه لا يجهد نفسه في العمل على أي حال."

"أصدقاؤه يحبونه جداً."

"تقصدين ديك بونامي؟"

"لا، لم أقصد ذلك. من الواضح أن هذا ليس من نوع يعقوب على الإطلاق. إنه على وجه التحديد الشاب الذي يقع في الحب من النظرة الأولى، ويندم على ذلك بقية حياته".

"آه، السيد باولي"، قالت مدام دورانت، وهي تقتحمهما بطريقتها اللحوحة، "هل تتذكر مدام آدمز؟ حسناً، هذه ابنة أختها". والسيد باولي، نهض واقفاً، انحنى إليها بأدب وذهب ليجلب الفراولة.

يدفعنا هذا إلى العودة ثانية لنرى مغزى ما يقوله الطرف الآخر - الرجال في النوادي الليلية ومجالس الوزراء - من أن رسم الشخصية مجرد هواية تافهة يمارسها أشخاص يمددون سيقانهم قرب المدفأة، يعانون من تنميل الأطراف، خطوط عريضة متقنة تحيط بفراغ، وزخارف، ومجرد خربشات.

تنتشر السفن الحربية في بحر الشمال، محافظة بدقة على مواقعها على مسافات عن بعضها. عند إشارة معينة، تُطلق المدافع كلها على نفس الهدف والتي (الرامي الرئيسي يحسب الثواني، بساعة يد - عند السادسة ينظر إلى أعلى) تتقد منفجرة إلى شظايا. برباطة جأش متكافئة، تهبط أكثر من درزينة شباب في مقتبل العمر بوجوه هادئة في أعماق البحر؛ وهناك بمشاعر جامدة (بالرغم من تمكنهم المثالي من الآلات) يختنقون معاً دون أدنى تدمر. غطى

الجنود حقل الذرة، مثل كتل من القصدير، راحت تتسلق منحدر التل، وتتوقف، وتتدحرج قليلاً في شتى الجهات، وتسقط منبطحة، باستثناء ذلك، من خلال المنظار، يمكن أن نرى قطعة أو قطعتين ما زالت تتقلقل صعوداً وهبوطاً مثل شظايا عود ثقاب منسحق.

هذه الإجراءات، إلى جانب التجارة المستمرة للبنوك والمختبرات والجهات الاستشارية وبيوت الأعمال، هي الاندفاعات التي يقال إنها تشد العالم إلى الأمام. ويتعامل معها رجال نحتوا على أفضل وجه مثل شرطي متبلد الحس في تقاطع لودجيت سيركس⁽¹⁾.

لكنك قد تلاحظ بعيداً عن كون وجهه يميل إلى بدانة، فإنه متيبس من قوة الإرادة، وضامر من المجهود الذي يبذله في الحفاظ عليه كما هو. عندما ترتفع ذراعه اليمنى، تتدفق كل الطاقة في عروقه مباشرةً من الكتف إلى أطراف الأصابع؛ لا أونصة واحدة يبدها في دوافع مفاجئة، ولا في إلتيعات عاطفية، ولا فروق دقيقة. الحافلات تتوقف في موعدها المحدد.

هذه هي الطريقة التي نعيش بها، كما يقولون، تُسيرنا قوة بعيدة المنال. يقولون إن الروائيين لم يمسكوا بها أبداً؛ فهي تندفع عبر شباكهم وتركها مزقاً. إنها، كما يقولون، هي ما نعيش بها - تلك القوة بعيدة المنال.

"أين الرجال؟"، قال الجنرال جيبونز، وهو ينظر عبر الصالة، المكتظة

(1) Ludgate Circus تقاطع طريق في مدينة لندن.

كالعادة يوم الأحد بعد الظهر بأشخاص يرتدون ملابس أنيقة. "أين البنادق؟"

نظرت مدام دورانت حولها أيضًا.

اعتقدت كلارا أن أمها تريدها، فدخلت إليها؛ ثم خرجت مرة أخرى. كانوا يتحدثون عن ألمانيا في دورانتس⁽¹⁾، ويعقوب (مُسَيَّرًا بهذه القوة بعيدة المنال) يمشى مسرعًا في شارع هيرميس ويتجه ركضًا إلى ويليامز. "أوه!" صاحت ساندرا، بمشاعر ودية انتابتها للتو. وأضاف إيفان، "يا لها من صدفة!"

كان العشاء الذي قدموه إليه في الفندق المطل على ميدان الدستور⁽²⁾ ممتازًا. سلال ملونة تحتوى على لفائف طازجة. زبدة حقيقية. ولا يكاد اللحم يحتاج إلى تمويه الخضراوات الحمراء والخضراء التي لا حصر لها المغطاة بالصلصة.

كان الأمر غريبًا رغم ذلك. حيث تظهر طاولات صغيرة على فترات منتظمة على أرض حمراء مزينة بعلامة صفراء ترمز للملك اليوناني. تناولت ساندرا عشاءها في قبعتهما، وحجابها كالمعتاد. نظر إيفان يمينًا ويسارًا من فوق كتفه؛ رابط الجأش ولكن بلين؛ وفي بعض الأحيان كان يتنهد. غريب،

(1) فندق يقع في شارع جورج في لندن.

Square of the Constitution (2)

كونهم إنجليز يجلسون معاً في أثينا مساء مايو. رد يعقوب، وهو يضع الطعام لنفسه من هذا الصنف وذاك، بذكاء، ولكن برنة في صوته.

قالا إن أسرة ويليامز ستكون في طريقها إلى القسطنطينية باكراً صباح اليوم التالي.

"قبل أن تستيقظ"، قالت ساندررا.

سوف يترك ان يعقوب وحده، إذن. بعد أن استدار قليلاً، طلب إيفان شيئاً ما - زجاجة نبيذ - شرب منها يعقوب، بشعور من الهم، بنوع من الهم الأبوي، إذا جاز ذلك. أن تُترك وحدك - كان ذلك جيداً بالنسبة إلى شاب جامعي. الوقت الذي كانت البلاد فيه بحاجة إلى الرجال أكثر من أي وقت مضى. تنهد.

"هل زرت الأكروبوليس؟" سألت ساندررا.

"نعم"، قال يعقوب. وانتقلا إلى النافذة معاً، بينما تحدث إيفان إلى رئيس النُذْل بشأن إيقاظهم مبكراً.

قال يعقوب بصوت فظ: "إنه مذهل".

فتحت ساندررا عينيها برفق. ربما اتسعت فتحتا أنفها قليلاً أيضاً. "في الساعة السادسة والنصف إذن" قال إيفان، قادمًا نحوهما، ويبدو كما لو أنه لمح شيئاً في وقفة زوجته ويعقوب وجهها لوجهه وظهراهما إلى النافذة.

ابتسمت ساندرال له.

وبينما يسير نحو النافذة وليس لديه ما يقوله أضافت في جمل غير مكتملة:

"حسنًا، لكن كيف يبدو جماله - أليس جميلًا؟ الأكروبوليس يا إيفان، أم أنك متعب؟"

عند ذلك نظر إليهما، أو، إلى زوجته لأن يعقوب كان يحدق أمامه، بفضاظة، بتجهم، وفوق ذلك بنوع من الكرب - وليس لتشفق عليه. ولا لروح الحب العنيدة، التي لا يمكن لأي شيء، أن يوقف عذاباتها.

تركاها وجلس إيفان في حجرة التدخين المطلة على ميدان الدستور.

"إيفان يسعد أكثر حين يكون بمفرده"، قالت ساندرال. "لقد حُرمتنا من الصحف لبضعة أيام. أليس من الأفضل أن يحصل الناس على ما يريدون... لقد رأيت كل هذه الأشياء الرائعة منذ التقينا.... ما انطباعتك... أعتقد أنه تغير."

"أترغبين في الذهاب إلى الأكروبوليس"، قال يعقوب. "هيا إذن."

"سيتذكرها المرء طوال حياته"، قالت ساندرال.

"نعم"، قال يعقوب. "أتمنى لو أتيت في وضح النهار."

قالت ساندرال وهي تلوح بيدها "إنه أكثر من رائع الآن".

نظر يعقوب بغموض.

"لكن ينبغي أن ترى البارثينون في وضح النهار"، قال. "لا يمكنك أن تأتي غداً - سيكون مبكراً جداً؟"

"أجلستَ هناك لساعات وساعات مع نفسك؟"

قال يعقوب: "كان هناك بعض النساء الفطيعات هذا الصباح".

"نساء فطيعات؟" رددت ساندررا.

"فرنسيات."

"ولكنه رائع جداً"، قالت ساندررا. عشر دقائق، خمس عشرة دقيقة، نصف ساعة - كان ذلك هو الوقت أمامها.

"نعم"، قال.

"عندما يكون المرء في عمر ك - عندما يكون شاباً. ماذا سيفعل؟ سيقع في الحب - نعم! لكن لا تكن في عجلة من أمرك - أنا أكبر منك سنّاً بكثير."

أزاحها عن الرّصيف موكب من الرجال.

سأل يعقوب: "هل نواصل السير؟"

"نعم نواصل"، أصرّت.

لم تكن تستطيع التوقف قبل أن تجربه بشيء - أو تسمعه يقول شيئاً - أم أنها كانت بحاجة إلى تصرف من جانبه؟ بعيداً في الأفق لاح لها ولم تشعر بالراحة.

"لن نرى إنجليز يجلسون في الخارج أبداً كذلك"، قال.

"كلا أبداً. عندما تعود إلى إنجلترا تذكر ذلك - أم ستأتي معنا إلى القسطنطينية!" هتفت فجأة.

"ولكن بعد ذلك..."

تنهدت ساندررا.

"عليك أن تذهب إلى دلفي، بالطبع"، قالت. "لكن"، سألت نفسها، ماذا أريد منه؟ ربما شيئاً أفتقده..."

"ستصل هناك حوالي الساعة السادسة مساءً"، قالت. "سترى النسور".

بدا يعقوب متضائلاً وحتى يائساً من الضوء في زاوية الشارع وإن كان رابط الجأش. كان يعاني، ربما. كان غراً. ومع ذلك ثمة شيء ساخر فيه.

كان يحمل بداخله جرثومة خيبة الأمل الشديدة، والتي ستأتيه من نساء في منتصف العمر. ربما إذا حاول المرء بذل جهد كبير للوصول إلى قمة التل، فلا حاجة لأن تأتيه - خيبة الأمل هذه من نساء في منتصف العمر.

"الفندق مقرف"، قالت. "المقيمون قبلنا تركوا أحواضهم ممتلئة بالماء الوسخ. هذا ما يحدث دائماً"، ضحكت.

قال يعقوب: "الناس الذين نلتقيهم بغضون فعلاً".

كان انفعاله واضحاً بما فيه الكفاية.

"اكتب وأخبرني عن ذلك"، قالت. "أخبرني بما تشعر وفيم تفكر. قل لي كل شيء".

كانت الليلة مظلمة. والأكروبوليس عبارة عن تلة مسننة.

"أود ذلك، إلى أقصى حد"، قال.

"عندما نعود إلى لندن، سنلتقي..."

"نعم فعلاً".

"أفترض أنهم يتركون البوابات مفتوحة؟" تساءل.

"يمكننا تسلق السّياج!" أجابت بعنف.

مرت الغيوم من الشرق إلى الغرب تحجب القمر وتظلم الأكروبوليس تماماً. استقرت الغيوم جامدة؛ تكثفت الأبخرة. ظلت الأحجية تتابع وتتراكم.

خيم الظلام في الحال على أثينا، عدا الخطوط الحمراء الشفافة حيث

تمر الشوارع؛ وواجهة القصر التي باتت شديدة الشحوب من المصاييح الكهربائية. عند البحر انتصبت الأعمدة، مميزة بنقط منفصلة؛ أصبحت الأمواج غير مرئية، اُحدودت صخور الشاطئ وكانت الجزر داكنة مع ضوء يسير.

"وددت لو عرفتك بأخي، إذا أمكن"، غمغم يعقوب.

"ثم عندما تأتي والدتك إلى لندن"، قالت ساندررا.

كانت أرض اليونان معتمة؛ وفي مكان ما قبالة واية⁽¹⁾، لا بد أن غيمة قد لمست الأمواج وظللتها برقع داكنة - راحت الدلافين تدور أعمق وأعمق على سطح البحر. اشتدت الرِّياح بعنف تجوب بحر مرمرة بين اليونان وسهول طروادة.

في اليونان ومرتفعات ألبانيا وتركيا، كسحت الرِّياح الرمال والغبار في طريقها، وباتت مثقلة بجسيماتها الجافة. ثم رشقت بها قباب المساجد الملساء، وجعلت أشجار السرو، الواقفة متيبسة على شواهد قبور أتباع محمد المعممين⁽²⁾، تصر منتصبية الأوراق.

طرح حجاب ساندررا عنها.

(1) وَايَة ثاني أكبر جزر اليونان من حيث المساحة وعدد السكان، بعد إقريطش.
(2) يَلْقَوْنَ رؤوسهم بعمامة.

"سأعطيك نسختي"، قال يعقوب. "ها هي. هل ستحتفظين بها؟" (كان ديوان شعر لدون).

بين الحين والآخر يكشف احتياج الهواء الستار عن نجم سائر. أحياناً يعم الظلام. الآن أطفأت المصابيح واحداً تلو الآخر. في هذا الوقت أصبحت المدن الكبرى - باريس - القسطنطينية - لندن - معتمة كصخور متناثرة. ربما يمكن تمييز المسارات المائية. في إنجلترا كانت الأشجار ثقيلة بأوراقها. هنا ربما في إحدى الغابات الجنوبية، كان رجل عجوز يشعل أوراق سرخس جافة والطيور جافلة. الخراف تسعل؛ تمل زهرة نحو زهرة أخرى بخفة. سماء إنجلترا أكثر طراوة وحليية من الشرق. شيء يجتازها بلطف من أعشاب التلال، شيء رطب. دخلت الرياح المحملة بالملح من نافذة غرفة نوم بيتي فلاندرز، والأرملة، وهي تنهض قليلاً على كوعها، تنهدت مثل شخص يعي، ولكنه يرغب في درء ذلك لفترة أطول - أوه، لفترة أطول! - الوطأة الأبدية.

ولكن لنعد إلى يعقوب وساندرا.

لقد اختفيا. كان هناك الأكروبوليس. لكن هل وصلا إليه؟ تبقى الأعمدة والمعبد؛ تشظى عليها عاطفة الأحياء طازجة عامًا بعد عام؛ ولكن ما الذي يتبقى منها؟

أما بالنسبة إلى الوصول إلى الأكروبوليس فمن سيقول إننا لم ننجح في الوصول إليه، أو أنه عندما استيقظ يعقوب في صباح اليوم التالي، وجد

أي شيء صلباً ومتيناً ليدوم معه إلى الأبد؟ ومع ذلك، ذهب معها إلى القسطنطينية.

لا شك أن ساندرا وويتنورث ويليامز استيقظت لتجد نسخة من قصائد دون على طاولة ملابسها. وسيوضع الكتاب على الرف في المنزل الريفي الإنجليزي حيث سينضم إليه حياة الأب داميان لسالي دوجان في أبيات شعرية يوماً من هذه الأيام. كان هناك عشرة أو اثنا عشر مجلداً صغيراً بالفعل. أثناء نزولها في الغسق، ستفتح ساندرا الكتب وستشرق عيناها (ولكن ليس للأحرف المطبوعة)، وتغوص في الكرسي ذي الذراعين - تستحلب روح اللحظة مجدداً؛ أو، لأنها في بعض الأحيان تكون منقبضة الصدر، ستسحب كتاباً تلو كتاب وعليه يتأرجح شريط حياتها بكامله مثل بهلوان من حبل إلى حبل. لقد استغرقت في لحظاتها. وفي الأثناء، كانت الساعة الضخمة على رصيف المرفأ تتكثك وساندرا تصغي إلى تراكم الزمن، وتتساءل، "لأجل ماذا؟ لأجل ماذا؟"

"لأجل ماذا؟ لأجل ماذا؟" ستقول ساندرا، وتعيد الكتاب، وتذهب إلى المرأة وتجذب شعرها.

سوف تفاجأ الآنسة إدواردز في العشاء، وهي تفتح فمها ليتسع للحم الضأن المشوي، بمغادرة ساندرا بغتة: "هل تشعرين بالسعادة يا أنسة إدواردز؟" - أمر لم تفكر فيه سيسي إدواردز منذ أعوام.

"لأجل ماذا؟ لأجل ماذا؟ لم يسأل يعقوب نفسه أسئلة من هذا القبيل، إذا حكمنا من الطريقة التي يربط بها حذاءه؛ يخلق ذقنه؛ إذا حكمنا من أعماق نومه في تلك الليلة، والريح مهتاجة على مصراعي النافذة، ونصف دسته من الناموس تصدح في أذنيه. لقد كان شابًا - رجلًا. ومن ثم كانت ساندرا محقة عندما حكمت عليه بأنه غر حتى الآن. في الأربعين ربما يتغير الحال. لقد قام بالفعل بوضع علامات على المقاطع التي أعجبته في دون، وكانت بربرية بما يكفي. ومع ذلك، قد توضع بجوارها مقاطع من أقوى أبيات شكسبير. لكن الرياح كانت تدرج الظلام في شوارع أثينا، تدرجه، كما قد يفترض المرء، بنوع من الطاقة المزاجية الساحقة التي تمنعك من تسليط عدستك لتحليل مشاعر أي شخص على حدة، أو تفحص ملامحه. كل الوجوه - اليونانية، الشرقية، التركية، الإنجليزية - ستبدو لك متشابهة في تلك العتمة. على امتداد الأعمدة والمعابد البيضاء، الصفراء، تستحيل إلى اللون الوردي؛ وترتفع الأهرامات وكنيسة القديس بطرس وفي النهاية تلوح كنيسة القديس بولس في الأفق بتكاسل.

للمسيحيين الحق في إثارة معظم المدن بتفسيرهم لمعنى اليوم. ثم بعد ذلك، بصوت أقل رخامة، يصدر المنشقون عن الطوائف المختلفة تصحيحًا مضادًا. تعلن البواخر، بدوي يشبه شوكة رنانة عملاقة، تلك الحقيقة القديمة القديمة - أن ثمة بحرًا مرتجفًا، مخضرًا، ينساب في الخارج. ولكن في الوقت الحاضر، ينطلق الصوت الضعيف للواجب، في خيط أبيض من

فوهة مدخنة، يجمع أكبر قدر من الحشود، وليل ليس إلا تنهيدة طويلة بين ضربات مطرقة، وتنفس عميق - يتناهى إلى مسامعك من أي نافذة مفتوحة حتى في قلب لندن.

لكن من، ينقذ أصحاب الأعصاب المرهقة والمؤرقين، أو المفكرين الواقفين وأيديهم على عيونهم على جرف شديد الانحدار أعلى الجموع، من يرى الأشياء هكذا في هيكل عظمي، عارٍ من اللحم؟ في سوربيتون⁽¹⁾ الهيكل العظمي مغطى جيداً باللحم.

"الغلاية لا تغلي بكفاءة في صباح مشمس"، تقول مدام جرانداج، وهي تلقي نظرة سريعة على الساعة فوق رف المدفأة. ثم تتمطع القطة الفارسية الرمادية على حافة النافذة، وتكافح عثة بأقدامها المستديرة الرخوة. وقبل أن تنتهي من نصف وجبة الإفطار (لقد تأخروا اليوم)، يوضع طفل في حجرها، وعليها أن تحرس السكرية بينما يقرأ توم جرانداج مقالة عن الجولف في "التايمز"، وهو يحتسي قهوته، ويمسح شاربه، ويخرج إلى المكتب، حيث يتمتع بنفوذ كبير في سوق المال ومرشح للترقية. الهيكل العظمي مغطى جيداً باللحم. حتى في هذه الليلة المظلمة عندما تدرج الرياح الظلام عبر شارع لومبارد وفيتزلين وساحة بيدفورد، تحرك أشجار الدُّلب (بما أنه وقت الصيف وذروة الموسم) متلاثلة بضوء المصباح، والستائر ما تزال تحمي الغرفة من دخول الفجر. ما يزال الناس يغمغمون حول الكلمة الأخيرة

(1) أحد أحياء ضواحي جنوب غرب لندن.

التي قيلت على السلم، أو يصارعون، في أحلامهم، مترقين جرس المنبه. هكذا حين تجوب الرياح غابة تهتز أغصان لا تعد ولا تحصى. تداعب بخفة خلايا النحل؛ تترنح الحشرات على نصال الحشائش؛ يلجأ العنكبوت مهرولاً بسرعة إلى صدع في اللحاء؛ والهواء مُفعم تماماً بالأنفاس؛ ممتد في خيوط مرنة.

لكن هنا - في شارع لومبارد وفيتز لين وساحة بيدفورد - تحمل كل حشرة الكرة الأرضية بأكملها، وشبكات الغابة عبارة عن مخططات طورت لتسهيل إدارة الأعمال؛ والعسل كنز متنوع؛ واهتزاز الغلاف الجوي بمثابة تحريض للحياة يتعذر تفسيره.

لكن اللون عاود الظهور؛ متسلقاً سيقان العشب؛ متفتحاً في زهور الأقحوان والزعفران؛ مقلماً بقوة جذوع الشجرة؛ ومتخللاً نسيج الهواء والمروج والبرك.

ينشق بنك إنجلترا من الظل؛ والنصب التذكاري برأسه المنتصب شعره ذهبي اللون؛ تظهر الخيول وهي تعبر جسر لندن ملونة بالرمادي والأرجواني ولون الحديد. ثمة طنين أجنحة حيثما تسرع قطارات الضواحي إلى محطاتها الأخيرة. والضوء يرتفع على طول واجهات المنازل العالية مسدلة الستائر، ينسل خفية عبر صدع ويلون الستائر القرمزية البراقة المرفرفة؛ ينصب على كؤوس النبيذ الخضراء؛ فناجين القهوة؛ والكراسي المتحركة عن مواضعها.

تضرب أشعة الشَّمس مرآة الخلاقة؛ وأباريق النحاس اللامعة؛ تضرب جميع زخارف النهار المبهجة؛ نهار الصيف المشرق، الفضولي، الذي لا يقهر، المتألق، الذي تغلب على الفوضى لزمن طويل؛ الذي بدد ضباب القرون الوسطى الكئيب؛ زحف على المستنقع وشيد منازل من الزجاج والحجارة؛ وزود أدمغتنا وأجسادنا بمثل هذه الترسانة من الأسلحة كي نرى فحسب أن وميض الصواعق وانتقام هؤلاء الذين ينخرطون في النضال اليومي أفضل من الموكب القديم من تشكيلات الجيوش المنتشرة عبر السهل.

الفصل الثالث عشر

"ذروة الصيف"، قال بونامي.

سفعت الشَّمس بالفعل الطلاء على ظهور الكراسي الخضراء في هايد بارك؛ قشرت اللحاء عن أشجار الدلب؛ وحولت الأرض إلى تراب وحصى أصفر ناعم. وحول هايد بارك كانت الدراجات تلف، دونما انقطاع.

"ذروة الصيف"، قال بونامي بسخرية.

كان ساخرًا بسبب كلارا دورانت؛ إذ عاد يعقوب من اليونان غامقًا وهزيلًا جدًّا، وجيوبه مكدسة بملاحظات عن اليونان، التي أخرجها من جيبه حين جاء عامل الكراسي ليأخذ بنسًا؛ ويعقوب يجلس صامتًا.

"لم يقل كلمة واحدة تنمُّ عن ابتهاجه برؤيتي"، قال بونامي بمرارة.

مرّت السيارات دون توقف على جسر السربنتين؛ سارت الطبقات الراقية مشدودة القامة أو منحنية بكياسة على أوتاد السّياج؛ استلقت الطبقات الدنيا مكومة رُكبها إلى أعلى، مسطحة على ظهورها؛ أكلت الخراف الكلاء على أرجل خشبية مدببة؛ وركض الأطفال هابطين المنحدر المعشوشب، وهم يفردون أذرعهم، ويتساقطون.

"متحضرة جداً"، نطق يعقوب.

كانت كلمة "متحضرة" على شفتي يعقوب تعني بشكل غامض كل جمال الشخصية التي كان بونامي يعتقد يومياً أنها تزداد ضخامة، تخريباً، ورعباً من ذي قبل، على الرغم من أنه ما يزال، وربما سيظل إلى الأبد، بربرياً غامضاً.

يا لها من صيغ تفضيل! يا لها من صفات! كيف يمكن تبرئة بونامي من الحساسية المفرطة؛ من كونه قُذِف مثل قطعة من الفلين على الأمواج؛ من عدم قدرته على تكوين رؤية؛ من عدم استرشاده بالعقل، من عدم استخلاصه لأي فائدة من الكلاسيكيات؟

"قمة الحضارة"، قال يعقوب.

كان مولعاً باستخدام الكلمات اللاتينية.

الشهامة والفضيلة - مثل هذه الكلمات حين يستخدمها يعقوب في كلامه مع بونامي تعني أنه سيطر على الموقف؛ أن بونامي سيلعب حوله مثل كلب وديع؛ وأنه (من المحتمل جداً) أن ينتهي بهما الحال يتدحرجان على الأرض.

"واليونان؟" قال بونامي. "البارثيون وكل ذلك؟"

قال يعقوب: "لا شيء من هذه الروحانية الأوروبية".

"أفترض أنه الجو"، قال بونامي. "وهل ذهبت إلى القسطنطينية؟"

"نعم"، قال يعقوب.

توقف بونامي، حرك حصاة؛ ثم رشقها بسرعة وثقة كلسان السحلية.
"لقد وقعت في الحب!" هتف.

احمر وجه يعقوب.

أكثر السكاكين حدة لا تحترق العمق هكذا.

أما عن الرد، أو حتى النظر إليه بعين الاعتبار، فقد حذر يعقوب أمامه،
ثابتاً، متوحداً -أوه، ما أجمله!- مثل أدميرال بريطاني، هتف بونامي في
غضب، ناهضاً من مقعده ومشى؛ منتظراً أي صوت؛ لم يأتِه أي صوت؛
منعه كبرياؤه أن ينظر خلفه. واصل سيره أسرع وأسرع حتى وجد نفسه
يحرق في السيارات ويلعن النساء. أين وجه المرأة الجميلة؟ وجه كلارا،
فاني، فلورندا؟ من هي المخلوقة الصَّغيرة الجميلة؟

ليست كلارا دورانت.

لا بد من تريض كلب الصيد الأبرديني، وبينما كان السيد باولي يسير
في تلك اللحظة بالذات - لم يكن يُفضل شيئاً على المشي - سارا معاً، كلارا
وباولي الحنون الضئيل - باولي الذي كان لديه شقة في ألبانيا، باولي الذي
كتب رسائل إلى "التايمز" في سياق هزلي عن الفنادق الأجنبية والشفق
القطبي - باولي الذي كان يحب الشباب ويسير في بيكاديلي وهو يسند
يده اليمنى على حدة ظهره.

"شيطان صغير!" صاحت كلارا، وعلقت تروي في سلسلته.

ترقب باولي - بل لعله تمنى - ثقتها. فرغم ارتباطها العميق بأمها، كانت كلارا تشعر أحياناً، حسناً، أن أمها واثقة جداً من نفسها إلى درجة يتعذر معها حتى أن تدرك أن هناك أشخاصاً آخرين - أشخاص - "مثيرون للسخرية مثلي"، ارتجت كلارا بعنف (كان الكلب يجرها إلى الأمام). وفكر باولي أنها تشبه صيادة ودار في ذهنه ما كان ينبغي أن يكون - عذراء شاحبة مع تسلل ضوء القمر في شعرها، تلك كانت شطحة خيال من باولي.

تلونت وجنتاها. كونها تتحدث صراحةً عن أمها - مع ذلك، فقد أفضت فقط للسيد باولي الذي كان يحبها، كما يفعل الجميع؛ لكن الحديث لم يكن طبعياً بالنسبة إليها، وإن كان أمراً سيئاً أن تشعر، كما شعرت طوال اليوم، أنها يجب أن تفضفض لشخص ما.

"انتظر حتى نعبّر الطريق"، قالت للكلب منحنية عليه.

لحسن الحظ كانت قد تعافت بحلول ذلك الوقت.

قالت: "إنها تفكر كثيراً في إنجلترا". "إنها قلقة للغاية".

أحس باولي بالإحباط كالمعتاد. كلارا لن تثق بأي شخص.

"لماذا لا يحسم الشباب أمورهم، لماذا؟" أراد أن يسأل. "ما كل هذا عن إنجلترا؟" - سؤال لم يكن بوسع كلارا المسكينة أن تجيب عليه، لأنه،

في الوقت الذي كانت السيدة دورانت تتناقش مع السير إدجار حول سياسة السير إدوارد جراي، كانت كلارا تتساءل فحسب عن السبب الذي يجعل المقصورة تبدو متربة، ولماذا لم يأتِ يعقوب. أوه، مدام كاولي جونسون هنا...

وستناولهم كلارا أكواب الشاي الخزفية الجميلة، وتقبل بابتسامة عبارات المديح - حيث لا أحد في لندن يعد الشاي كما تعده هي.

قالت: "نشتره من بروكليانك. في شارع كورسيتور".

أليس عليها أن تكون ممتنة؟ أليس عليها أن تكون سعيدة؟

خاصة وأن والدتها بدت على ما يرام واستمتعت كثيرًا بالحديث مع السير إدجاروت عن المغرب أو فنزويلا أو أي مكان مثلها.

"يعقوب! يعقوب!" فكرت كلارا؛ والسيد باولي الطيب، اللطيف دائمًا مع السيدات المسنات، نظر؛ توقف؛ تساءل عما إذا كانت إليزابيث تتعامل بخشونة مع ابنتها؛ تساءل عن بونامي، يعقوب - أي من الشابين يكون؟ وقفز بمجرد أن ذكرته كلارا أنها يجب أن تريض تروي.

وصلا إلى مكان المعرض القديم. تطلعا إلى زهور الخزامى. صلبة وملتفة، ارتفعت السيقان الصغيرة بملمسها الشمعي الناعم من الأرض، مهية للازدهار لكنها لم تتفتح بعد، مخضبة بالقرمزي والوردي المرجاني. لكل

واحدة منها ظل؛ نمت كل منها مرتبة في وتد على شكل معين كما نسقها البستاني.

"بارنز لا يجعلها تنمو هكذا." تنهدت.

"أنت تهملين أصدقاءك"، قال باولي، فيما يمر شخص ما، في الاتجاه الآخر، رفع قبعته. تعرفت على انحناء السيد ليونيل باري؛ أفلت منها ما انبثق في ذهنها عن يعقوب.

("يعقوب! يعقوب!" فكرت.)

قالت للكلب: "لكن قد تداهمك عربة إذا تركتك تذهب".

قال السيد باولي: "إنجلترا تبدو على ما يرام".

كانت حلقة البوابة أسفل تمثال أخيل حافلة بالمظلات والصدريات؛ سلاسل وأساور؛ لسيدات وسادة، يتسكعون بأناقة، ويتفرجون بسطحية.

"قامت نساء إنجلترا بنصب هذا التمثال..." قرأت كلارا بضحكة صغيرة غبية. "أوه، يا سيد باولي! أوه!" مهرولاً - مهرولاً - مهرولاً - ركض حصان مارًا بهما بلا راكب. والسرج يتأرجح. والخصى يتدافع.

"أوه، أوقفه! أوقفه يا سيد باولي!" صرخت، شاحبة، مرتعدة، متشبثة بذراعها، غائبة عن الوعي تمامًا، والدموع تنهمر.

"أوووف"، قال السيد باولي في غرفة ملابسه بعد ساعة. "أوووف!" -

تعليق كان حاسماً بما فيه الكفاية، على الرغم من أنه تعبير مجمل، عندما كان خادمه يناوله مثبتات ياقة قميصه.

رأت جوليا إليوت، أيضاً، الحصان ينطلق هارباً، ونهضت من مقعدها لترى تداعيات الحادثة، التي بدت لها مثيرة للضحك، فهي تنحدر من عائلة رياضية. يقيناً جاء الرجل الضئيل خلفه مهرولاً بمؤخرة بنطاله المتربة؛ بدا منزعجاً تماماً؛ وشرطي يساعده على اعتلاء ظهره عندما كانت جوليا إليوت تستدير، بابتسامة ساخرة، متجهة نحو قوس الرخام في مهمة خيرية. زيارة لسيدة عجوز مريضة كانت تعرف والدتها وربما كانت تعرف الدوق ولنجتون؛ فجوليا توزع حبها على أفراد جنسها من البائسين؛ تحب زيارة المحتضرات على فراش الموت؛ تقذف الأخفاف في حفلات الزفاف؛ تحظى بثقة العشرات؛ تعرف الأنساب أكثر من عالم يعرف التواريخ، وهي واحدة من أكثر نساء العالم لطفاً وكرماً.

بعد خمس دقائق من اجتيازها تمثال أخيل، بدت حاملة كشخص يمر من بين الحشود بعد ظهر أحد أيام الصيف، حين تشخیص الأشجار، وترتج العربات الصفراء، وتبدو جلبة الحاضر مثل قصيدة رثاء للشباب الذي ولَّى والصيف الذي انصرم، وتولد في روحها حزن غريب، كما لو كان الحاضر والأبد يبدوان عبر التناير والصدريات، كما لو كانت ترى الناس يسировن على نحو مأساوي إلى هلاكهم. ومع ذلك، السماء تعرف، أن جوليا لم تكن حمقاء. لا توجد امرأة أكثر ذكاءً منها في التعامل. فهي

دائمًا دقيقة في مواعيدها. أشارت ساعة معصمها إلى اثنتي عشرة دقيقة ونصف كي تصل إلى شارع بروتون. كانت السيدة كونجريف تنتظرها في الخامسة.

دقت الساعة المذهبة في فيري الخامسة.

نظرت إليها فلورندا بتعبير بليد، مثل حيوان. نظرت إلى الساعة؛ نظرت إلى الباب؛ نظرت إلى الزجاج المستطيل قبالتها؛ عدلت معطفها؛ اقتربت من المائدة فهي حامل - لا شك في ذلك، كما قالت الأم ستورت، وهي توصيها بالعلاج، واستشارة الأصدقاء؛ غاصت، تشبثت بكعبها، حين تعثرت برفق على السطح.

وضع النادل أمامها كأسًا من حلوى وردية؛ ورشفته بالشفاطة، عيناها على الزجاج، على الباب، الآن هدأت بتأثير الطعم الحلو. حين دخل نيك براهيم كان واضحًا، حتى للنادل السويسري الشاب، أن ثمة مفاوضات تجري بينهما. جذب نيك أطراف ملابسه معًا على نحو أخرق. مرر أصابعه عبر شعره؛ جلس، مثل شخص في امتحان، بعصبية. نظرت إليه؛ وانفجرت في الضحك. ضحكت، وضحكت، وضحكت. الجرسون السويسري الشاب، الواقف بساقين مشبكتين بالعمود، ضحك أيضًا.

انفتح الباب؛ دخل هدير شارع ريحنت، هدير حركة المرور، مجهول المصدر، لا مبالٍ؛ وأشعة الشمس مُعَرَّقة بالقذارة. على النادل السويسري أن يرى القادمين الجدد. رفع براهيم كأسه.

"إنه يشبه يعقوب"، قالت فلورندا، وهي تنظر إلى الوافد الجديد.
"الطريقة التي يحدق بها." توقفت عن الضحك.

مال يعقوب إلى الأمام، رسم مخططاً للبارثينون في الغبار في هايد بارك، شبكة من الشخبطات على الأقل، التي ربما تكون البارثينون، أو من الممكن أن تكون مخططاً هندسياً. ولماذا كانت الحصاة ملقاة في الزاوية إلى حد لافت للنظر؟ لم يكن من أجل مراجعة ملاحظاته أن أخرج لفة أوراق من جيبه، ولكن لإعادة قراءة الرسالة المستفيضة التي كتبها ساندرافيل يومين في ميلتون داور هاوس وكتابه أمامها وفي ذهنها ذكرى شيء قيل أو أرادت قوله، بعض اللحظات في الظلام على الطريق إلى الأكروبوليس التي (مثل إيمانها) لا تُنسى.

"إنه" استغرقت في التفكير، "مثل هذا الرجل في مولير".

تقصد أليسيست⁽¹⁾. تقصد أنه حاد. تقصد أنها تستطيع مراوغته.

"أم أنني لا أستطيع؟"، فكرت، وهي تعيد قصائد دون إلى خزانة الكتب. راحت تردد "يعقوب"، وذهبت إلى النافذة ونظرت إلى أصص الزهور المنقطة عبر العشب حيث ترعى الأبقار المرقطة تحت أشجار الزان، "سيصدم ذلك يعقوب".

(1) مسرحية مولير الشهيرة "كاره البشر" المتمثل في "أليسيست"، الشخصية التي تتميز بسرعة الانفعال مع خيط من طابع مثير للسخرية يظهر أليسيست في المسرحية ككاتب مسرحي مصاب بروح السخط المزمن على الآخرين. فالعالم الذي يكرهه يتميز بروح التملق ومحابة الأقارب والعدمية مع سيادة مبدأ النسبية على حساب أي قيم ثابتة.

مرت عربية طفل من البوابة الصَّغيرة في السَّياج. أرسلت له قبلة بيدها؛
موجهًا بيد مربيته، لوح لها جيمي بيده.

"إنه فتى صغير"، قالت وهي تفكر في يعقوب.

وفوق ذلك أليست؟

"يا لك من شخص مزعج!" تذمر يعقوب، وهو يفرد ساقًا أولًا ثم
الأخرى ويتحسس كل جيب في بنطاله بحثًا عن تذكرة مقعده.

"أتوقع أن تكون الخراف أكلتها"، قال. "لماذا ترعى الخراف؟" "آسف
لإزعاجك يا سيدي"، قال عامل التذاكر، وهو يدس يده في الحقيبة الممتلئة
بالبنسات.

"حسنًا، أتمنى أنهم يدفعون لك مقابل ذلك"، قال يعقوب. "تفضل.
كلا. يمكنك الاحتفاظ بها. اذهب واشرب خمرًا".

رحل بنصف كراون، متجمالًا بالصبر، مع خزي هائل لصنفه من البشر.
حتى الآن، كانت فاني إلمر البائسة، وهي تتمشي على طول ستراند،
تتعامل بطريقتها العاجزة مع هذا الأسلوب المتعالي المستهتر، اللامبالي
الذي كان يتحدث به مع حراس السكك الحديدية أو الحمالين؛ أو السيدة
وايتهورن، عندما استشارته بشأن طفلها الصغير الذي تعرض للضرب
على يد مدير المدرسة.

كانت صورة يعقوب في عيني فاني، التي شكلتها كليةً من بطاقات البريد المصورة خلال الشهرين الماضيين، تزداد نحتًا ونبلاً وعماءً من أي وقت مضى. ولكي تقوي صورتها عنه اعتادت زيارة المتحف البريطاني، محتفظة بعينيها مسبلتين حتى تصل إلى تمثال أوليسيس المهشم، وهناك تفتحها وتلقى صدمة جديدة لمثول يعقوب أمامها، تكفيها لنصف يوم. ولكن هذا كان يرتدي ثياباً خفيفة. والآن تكتب - قصائد، رسائل لن تُرسل على الإطلاق، أبصرت وجهه في الإعلانات على اللوحات الضخمة، وستعبر الطريق لتسمح للأرغن بتحويل خواطرها إلى لحن مرتجل. ولكن في وجبة الإفطار (كانت تشارك الشقة مع أحد المدرسات)، عندما لطخت الزبدة ما حول الطبق، وتخر صفار البيض القديم على أسنان الشوك، استرجعت هذه التخيلات بعنف؛ كانت، في الحقيقة، غاضبة جداً؛ تفقد رونقها، كما أخبرتها مارجري جاكسون، وهي تستخف بالموضوع كله (بينما تربط رباط حذائها) إلى حد الدعابة والسوقية والهوى، لأنها أحبت بدورها؛ وكانت حمقاء.

"كان لا بد أن تحذرنا أمهاتنا"، قالت فاني، بينما تنظر إلى فاترينة لحم الخنزير المملح، بائع الخرائط، في ستراند، يحذرنا من أنه لا طائل من القصص عديمة الجدوى؛ هذه هي الحياة، كان ينبغي أن يقلن هذا، كما قالت فاني الآن، وهي تتطلع إلى الكرة الأرضية الصفراء الكبيرة المؤشرة بخطوط الملاحة.

"هذه هي الحياة. هذه هي الحياة"، قالت فاني.

"وجهها قاسٍ جدًّا"، فكرت الآنسة باريت، على الجانب الآخر من الفاترينة، كانت تشتري خرائط لصحراء سوريا وتنتظر دورها بنفاد صبر. "إن الفتيات يهرمن بسرعة هذه الأيام."

ارتعش خط الاستواء من خلف الدموع.

"بيكاديلي؟" سألت فاني المحصل في الحافلة، وصعدت على متنها. بعد كل شيء، سيعود، لا بد أن يعود إليها.

لكن ربما ما زال يعقوب يفكر في روما؛ في فنها المعماري؛ في فلسفتها التشريعية، وهو جالس تحت شجرة الدلب في هايد بارك.

توقفت الحافلة خارج تشارنج كروس⁽¹⁾. وخلفها تراكت الحافلات، والشاحنات الصَّغيرة، والسيارات، إذ كان موكب بلافتات يمر عبر وايت هول، ونزل كبار السن بصعوبة من بين أرجل الأسود الزلقة، بينما كانوا يعلنون عن إيمانهم، يغنون بحوية، يرفعون عيونهم عن آلائهم الموسيقية لينظروا إلى السماء، وتظل عيونهم في السماء وهم يسرون وراء الحروف الذهبية لمعتقدهم. توقفت حركة المرور، وغدت الشمس، التي لم يعد يلففها النسيم، شديدة الحرارة تقريبًا. لكن الموكب مر؛ لمعت اللافتات - بعيدًا في نهاية

(1) تشارنج كروس هي إحدى محطات مترو أنفاق لندن. تقع على خط بيكرلو ونورذيرن افتتحت في المنطقة رقم 1 افتتحت في 10 مارس 1906.

شارع وايت هول؛ تحررت حركة المرور؛ ارتجت العربات مستأنفة طريقها؛ أطلقت العنان لضجة متواصلة على نحو رتيب؛ وهي تنحرف حول منعطف شارع كوكسبر؛ وتمر بالمباني الحكومية وتماثيل الفروسية في شارع وايت هول إلى الأبراج الشائكة، والسفينة الحجرية الضخمة الراسية على الأرض، والساعة البيضاء الكبيرة في ويستمنستر.

ترنمت ساعة بج بن بخمس دقائق؛ تلقى نيلسون التحية. ارتجفت أسلاك الأدميرالية باتصال من مكان بعيد. أشار صوت إلى أن رؤساء الوزراء والنواب كانوا يتناقشون في الرايخستاج⁽¹⁾؛ دخول لاهور؛ تحدث عن سفر إمبراطور ألمانيا؛ عن أعمال شغب في ميلانو؛ عن شائعات في فيينا؛ عن أن السفير في القسطنطينية أجرى مقابلة مع السلطان؛ عن الأسطول في جبل طارق. استمر الصوت، طابعاً على وجوه الموظفين في وايتهاول (كان تيموثي دورانت واحداً منهم) شيئاً يتسم بخطورة ملحة، وهم يستمعون، يفكون الشفرة، يدونون على الورق. تراكمت الأوراق، مدونة بتصريحات القياصرة، إحصائيات حقول الأرز، تدمير المئات من العمال، تخطيط لتمرّد في الأزقة، أو الذين تجمعوا في بازارات كالكوتا، أو الذين حشدوا قواتهم في مرتفعات ألبانيا، حيث التلال بلون الرمال، متناثرة بعظام غير مدفونة.

تحدث الصوت بوضوح في الغرفة المربعة الهادئة بطاولات ثقيلة، حيث

(1) مبنى الرايخستاج هو مبنى البرلمان السابق في الرايخ الألماني افتتح في عام 1894م حتى عام 1933م عندما تم إحراقه، يعد بمثابة برلمان حقيقي للنظام النازي (1933-1945) في سنة 1990 تم تغيير اسمه إلى البوندستاج.

يقوم رجل كبير السن بتدوين ملاحظات على هامش الأوراق المطبوعة، ومطلته المنتهية بكرة فضية تستند إلى خزانة الكتب.

رأسه الأصلع، يمثل بعروقه الحمراء، وتقويرته جميع الرؤوس في هذا الصرح. يحمل رأسه، بعينيه الشاحبتين الودودتين عبء المعرفة عبر الشارع؛ أودعها أمام زملائه، الذين كانوا مثقلين بنفس القدر؛ وبعد ذلك، قرر الستة عشر سيداً، وهم يرفعون أقلامهم أو يتحركون على مقاعدهم بإرهاق، أن مسار التاريخ لا بد من إعادة تشكيله بهذه الطريقة أو تلك، عاقدين العزم برجولة، كما أظهرت وجوههم، على فرض بعض الحكمة على الراجات والقياصرة والهمهمات في الأسواق، والتجمعات السرية، الواضحة بشكل صريح في وايت هول، من الفلاحين المهذيين في المرتفعات الألبانية؛ للسيطرة على مجرى الأحداث.

نظر كل من بيت وشاتام وبورك وجلادستون يميناً ويساراً بعيون رخامية ثابتة وحالة من الهدوء الأبدي الذي ربما كان الأحياء يغبطونهم عليها، والهواء يضج بالصفير والرجرجات، بينما يعبر الموكب بلافتاته على طول شارع وايت هول.

فوق ذلك، كان بعضهم يعاني من عسر الهضم؛ أحدهم في تلك اللحظة بالذات هشم زجاج نظاراته؛ آخر كان سيتحدث في غلاسكو غداً؛ بالإجمال بدوا أكثر احمراراً أو بدانة أو شحوباً أو هزالاً، من أن يتعاملوا، كما تعاملت الرؤوس الرخامية مع مسار التاريخ.

في مكتبه الصغير في الأدميرالية، توقف تيمي دورانت لوهلة أثناء ذهابه لمعينة الكتاب الأزرق، قرب النافذة ولاحظ لافتة مربوطة حول عمود الإنارة.

أخبرت الأنسة توماس، إحدى عاملات الآلة الكاتبة، صديقتها أنه إذا استمر مجلس الوزراء لفترة أطول كثيرًا، فسيفوتها موعد حبیبها الذي ينتظرها أمام مسرح جايتي.

عندما عاد تيمي دورانت بكتابه الأزرق تحت ذراعه، لاحظ زمرة صغيرة من الناس على ناصية الشارع؛ تتكلم وكان أحدهم يعرف شيئًا ما؛ والآخرون، يتحلقون حوله، وينظرون إلى أعلى، وإلى أسفل، وعلى امتداد الشارع. ما هو الشيء الذي كان يعرفه؟

وضع تيموثي الكتاب الأزرق أمامه، وتفحص ورقة أرسلتها وزارة الخزانة لطلب معلومات. السيد كراولي، زميله، غرس الرسالة في سيخ الملف.

قام يعقوب من كرسية في هايد بارك، مزق تذكرته قطعًا، ومشى مبتعدًا. "في مغيب الشمس هذا"، كتبت مدام فلاندرز في رسالتها إلى آرشر في سنغافورة، "ليس بوسع المرء أن يقرر العودة إلى البيت"، كتبت. "إن تضيق لحظة واحدة يبدو أمرًا عيّنًا."

أضاءت النوافذ الطويلة في قصر كنسينجتون في لندن بوهج ناري بينما

كان يعقوب يتعد؛ حلق قطع من البط البري فوق السربنتين؛ والأشجار تتصب قبالة السماء، سوداء، بمهابة.

"يعقوب"، كتبت مدام فلاندرز، والضوء الأحمر يسقط على صفحتها، "يواصل عمله بجد بعد رحلته الممتعة..."

"القيصر"، علق الصوت البعيد في وايت هول، "استضافني في مقابلة رسمية".

"الآن أعرف ذلك الوجه -" قال القس أندرو فلويد وهو يخرج من متجر كارتر في بيكاديلي، ولكن من يكون؟"، وشاهد يعقوب، استدار لينظر إليه، لكنه لم يكن متأكداً.

"أوه، يعقوب فلاندرز!" تذكر في لمح البصر.

لكنه كان طويلاً جداً؛ مشتت الذهن؛ هذا الشاب الجميل.

"أهديته أعمال بايرون"، فكر أندرو فلويد وبدأ في التقدم ويعقوب يعبر الطريق؛ لكنه تردد، وترك اللحظة تمر، وفوت الفرصة.

مسيرة أخرى، بدون لافتات، سدت شارع لونج آكر. عربات بها أرامل ثريات في ملابس أرجوانية وسادة منقطين بالقرنفل، وسيارات أجرة وملاكي متوقفة، استدارت في الاتجاه المعاكس، فيها رجال ضجرين متراخين في سترات بيضاء، في طريقهم إلى بيوتهم إلى الحدائق وقاعات

البلياردو في بوتني وويمبلدون. عزف أرغنان قرب الرّصيف، وخرجت الخيول من آلدريج بملصقات بيضاء على أردافها في خطوات واسعة عبر الطّريق وهي تتمايل بمهارة.

كانت السيدة دورانت تجلس مع السيد وورتلي في سيارة، نافذة الصبر خشية أن يفوتها العرض.

لكن السيد وورتلي، اللطيف، الذي دائماً ما يصل إلى العرض في موعده، زرر قفازاته، وأبدى إعجابه بالآنسة كلارا.

"مخجل جداً قضاء ليلة كتلك في المسرح!" قالت السيدة دورانت، وهي تتطلع إلى نوافذ العربات المتوهجة في شارع لونج آكر.

"أتفكرين في مستنقعاتك!" قال السيد وورتلي لكلارا.

"آه! لكن كلارا تحب هذا أكثر"، ضحكت السيدة دورانت.

قالت كلارا، وهي تنظر إلى النوافذ المتوهجة: "لا أعرف - حقاً".

رأت يعقوب.

"من؟" سألت السيدة دورانت بحدة، وهي تميل إلى الأمام.

لكنها لم ترَ أحداً.

تحت قوس دار الأوبرا الوجوه الكبيرة والهزيلة، الملساء والمشعرة، كانت

كلها متشابهة حمراء عند غروب الشمس؛ ومتقدة بالمصابيح المعلقة الكبيرة بأنوارها الزهرية المكتومة، بالمومسات والداعرين والمراسم الهائلة، كانت بعض السيدات يبحثن عن لحظة في غرف النوم الحارة المعبئة بالأبخرة بالقرب من المكان، حيث النساء ذوات الشعر المفكوك يطلن من النوافذ، حيث الفتيات - حيث الأطفال - (المرايا الطويلة قبضت على السيدات عالقات) ولكن على المرء أن يتابع طريقه؛ عليه ألا يسد الطريق.

كانت مستنقعات كلارا على ما يرام. الفينيقيون ناموا تحت الصخور الرمادية المكدسة؛ مداخن المناجم القديمة بدت مدببة بشكل قاس؛ العث المبكر ضبب نبات الخلنج الرمادي؛ يمكن سماع صرير عجالات العربات على الطريق البعيد؛ وصوت تجرع الأمواج وتنهدا يسرى بهدوء وثبات إلى الأبد.

وقفت السيدة باسكو وهي تغطي عينيها بيدها في حديقته المزروعة بالكرنب تطل على البحر. مرت سفينتان بخاريتان وأخرى شراعية كل في اتجاه؛ تقابلت وبعضها تجاوزت بعضًا؛ وفي الخليج ظلت النوارس تصطف على جذع منتصب كوتد، طارت، وعادت مرة أخرى إلى الجذع، بينما اندفع بعضها على الأمواج ووقف على حافة الماء إلى أن يحيل ضوء القمر الشاحب كل شيء إلى بياض.

كانت السيدة باسكو قد دخلت بيتها منذ فترة طويلة.

لكن الضوء الأحمر سقط على أعمدة البارثينون، واليونانيات اللائي

يحككن جواربهن ويصحن بين الحين والآخر على طفل ليأتي ويلتقطن حشرات من رأسه، بدُونَ ظريقات مثل رمال المارتينز في الحر، يتشاجرن، يوبخن، يرضعن أطفالهن، إلى أن أطلقت السفن في بيرايوس مدافعها.

انتشر الصوت عبر الأنحاء، ثم شق نفقًا في طريقه بانفجاراته المتشنجة بين قنوات الجزر.

سقط الظلام مثل سكين فوق اليونان.

"المدافع؟" قالت بيتي فلاندرز، نصف نائمة، نهضت من فراشها وذهبت إلى النافذة، المزينة بشراشيب من الأوراق الداكنة.

"ليس من هذه الجهة"، فكرت. "إنها من البحر".

مرة أخرى، بعيدًا، سمعت صوتًا ثقيلًا، كما لو كانت النساء الناشطات ليلاً ينفضن سجادًا ضخماً. هناك لاح فقد مورتي، موت سيبروك؛ ولداها في الحرب من أجل بلادهم. ولكن هل كانت الدجاجات في أمان؟ هل هناك أحد يتحرك في الطابق السفلي؟ أهى ريبىكا بوجع أسنانها؟ لا. إنهن النساء الناشطات ليلاً ينفضن سجادًا ضخماً. تقلقلت دجاجاتها قليلاً في مجثمها.

الفصل الرابع عشر

"لقد ترك كل شيء كما هو"، تعجب بونامي. "لا شيء مرتب في مكانه. كل رسائله مبعثرة لأي شخص يقرأها. ماذا كان يتوقع؟ هل اعتقد أنه سيعود؟" استغرق في التفكير وهو يقف وسط غرفة يعقوب.

للقرون الثامن عشر تميزه. هذه المنازل مثلاً، بُنيت قبل مئة وخمسين عامًا. غرفها جميلة، سقوفها عالية؛ فوق المداخل، نُحِتت وردة أو جمجمة كبش في الخشب. حتى الألواح المدهونة بلون التوت، لها تميزها.

تناول بونامي فاتورة سوط للصيد.

وقال "يبدو أنها مدفوعة".

كانت هناك خطابات ساندرا.

مدام دورانت تصطحب مجموعة إلى قرية جريتش.

ليدي لوكسير تتوقع لحظات مبهجة....

فاتر هو الهواء في غرفة خاوية، ينفخ الستارة فحسب؛ يحرك الزُّهور

في زهريتها. يخشخش جديدة من جدائل الكرسي، بالرغم من أن لا أحد يجلس عليه.

عبر بونامي إلى النافذة. كانت هناك سيارة بيكفورد تتأرجح في الشارع. الحافلات تسد ناصية مودي. المحركات ترتج، والسائقون يكبحون الفرامل، يسحبون أحصنتها إلى أعلى بعنف. صوت قاسٍ وحزين صاح بشيء غير مفهوم. ثم فجأة بدت كل الأوراق تنتصب من تلقاء نفسها.

"يعقوب! يعقوب!" صاح بونامي، وهو يقف جوار النافذة. غاصت الأوراق مرة أخرى.

"هذه الفوضى في كل مكان!"، هتفت بيتي فلاندرز، وهي تدفع باب غرفة النوم بعنف.

تحرك بونامي بعيداً عن النافذة.

"ماذا أفعل بهذا يا سيد بونامي؟"

كانت تقف وهي تمسك بفردتي حذاء يعقوب القديم.

نبذة عن المترجمة

سناء عبد العزيز

- شاعرة وروائية ومترجمة مصرية.
- انضمت لفريق هيئة تحرير مجلة النقد الأدبي "فصول" 2016.
- تشغل حالياً منصب مدير تحرير مجلة عالم الكتاب الصادرة عن الهيئة المصرية للكتاب.
- حصلت على عدة جوائز أدبية منها، جائزة رامتان في القصة القصيرة 2005، جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي 2017 عن روايتها فيديباك.
- ترجمت:
 - 1 - مسرحية شاكونتالا وأعمال أخرى للشاعر والمسرحي كاليداسا.
 - 2 - المداخل الأساسية للتنظير السينمائي.
 - 3 - كتاب نقدي للملك خوري.
 - 4 - رواية الأجير للكاتب الأمريكي تشارلز بوكوفسكي.
 - 5 - لها دراسات مترجمة نُشرت في الدوريات المصرية والعربية: "التداولية وتحليل الخطاب، جذور قصيدة النثر ونظرية النوع، جماليات الموجة الجديدة في السينما الرومانية، التاريخانية الجديدة، الجدل مع النفس والآخر، نقد التبيؤ وأدب القرن التاسع عشر، الأسلوبية الإدراكية في رواية السيدة دالوي".

